٣٦٥ يومًا دون «صنع في الصين»

سارة بونجورني

٣٦٥ يومًا دون «صنع في الصين»

أسرة تقاطع المنتجات الصينية لمدة عام

تأليف
سارة بونجورني

ترجمة
أحمد شكل

مراجعة
سارة عادل

هنداوي

٣٦٥ يومًا دون «صنع في الصين»

سارة بونجورني

A Year Without “Made in China”

Sara Bongiorni

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٥٩٠ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٧.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٨.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لجون وايلي أند صنز، إنك.

Copyright © 2007 by Sara Bongiorni. All Rights Reserved. Authorised translation from the English language edition published by John Wiley & Sons, Inc. Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with Hindawi Foundation and is not the responsibility of Wiley. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder, John Wiley & Sons Inc.

المحتويات

ثناء على الكتاب ٧
شكر وتقدير ١١
تمهيد ١٣
مقدمة ١٧
١- وداعًا صديقتي ٢١
٢- الحذاء الصيني ٤٧
٣- النهضة والصين ٦٣
٤- رفض المنتجات الصينية ٧٩
٥- اقتراح بسيط ٩٥
٦- أمهات الاختراع ١١١
٧- صيفٌ مفعم بالتذمُّر ١٢٥
٨- المد الأحمر ١٣٩
٩- أحلام الصين ١٥١
١٠- الانهيار ١٦٥
١١- موسم الصين ١٨٣
١٢- نهاية الطريق ١٩٩
خاتمة ٢٢٥

ثناء على الكتاب

على مدى القرن الماضي، تغيَّر تصوُّر الأمريكيين عن الصين بشِدةٍ من كونها ضحيةً إلى كونها مقاتلًا بطلًا حتى كونها متعصبةً للشيوعية؛ لقد أحببناها وخفنا منها. والآن، كما توضح سارة بونجورني بعباراتٍ شخصيةٍ مفعمةٍ بالحيوية، دخلنا في مرحلةٍ جديدةٍ نشعر فيها بكلا الشعورين؛ أصبحت الصين عملاقًا اقتصاديًّا يمكن أن يُخيفنا، ولكن يجب أن نُعانقه.

جون ماكسويل هاملتون، عميد كلية مانشيب
للإعلام وأستاذ كرسي هوبكنز بي بريزيل،
جامعة ولاية لويزيانا

عندما قرَّرَت المؤلفة التخليَ عن السلع الصينية لمدة سنةٍ واحدة، قادتْ أسرتَها النشطة في تجرِبةٍ رائعةٍ تتطلب أعمالًا مذهلة من قوة الإرادة والإبداع. إن مغامرة الأسرة عبْر متاهة الحياة الاستهلاكية الأمريكية الحديثة مُثيرة للتفكير وممتعة في القراءة على حدٍّ سواء. وبعدها، لن تبدوَ عبارة «صنع في الصين» كما كانت من قبلُ أبدًا.

مارك فابياني، المستشار الخاص السابق
في البيت الأبيض ومستشار إعلامي/سياسي

الانفصال يصعب القيام به بالفعل، كما أثبتت سارة بونجورني في هذه المذكرات الفاتنة حول مقاطعة أسرتها للمنتجات الصينية لمدة سنةٍ واحدة. وهذا الكتاب

يُشبه المقالات الممتعة لإرما بومبيك وعلوم الاقتصاد، كما يُمثل معجزةً مفعمةً بالحياة؛ كحلقةٍ دراسيةٍ مكثفةٍ ومسليةٍ في العولمة.

داني هيتمان، كاتب عمود لصحيفة
ذي أدفوكات (باتون روج)

قصة مضحكة ومثيرة للاهتمام حول تجرِبة خاضتها أسرة في الاقتصاد العالمي. عاشت أسرة بونجورني دون أحذيةٍ رياضيةٍ أو نظاراتٍ شمسيةٍ أو خراطيش طابعة، ولكنهم اكتسبوا إبداعًا قويًّا وحسًّ دعابةٍ ضروريًّا؛ ففي كل رحلة تسوُّق، تتضح التعقيدات الأخلاقية التي لا تُعَد ولا تُحصى الموجودة في العلاقة بين المستهلكين الأمريكيين والمصانع الصينية.

د. بييترا ريفولي، أستاذة بكلية ماكدونو لإدارة الأعمال،
جامعة جورج تاون، ومؤلفة كتاب
«رحلات قميص في الاقتصاد العالمي»

لن تتسوَّق أبدًا كما كنتَ تتسوَّق سابقًا! من المستحيل أن تقرأ كتاب سارة بونجورني ولا تأسرك تعقيدات وتحديات مهمتها، ثم تُجرب عيشها بنفسك ليوم واحد وتفشل فشلًا ذريعًا بحلول وقت الغداء. هذا هو الكتاب النادر الذي يجعلك تفكر في مدى تأثير القضايا العالمية فعليًّا على منزلك، وسوف يجعلك تناقش هذه القضايا مع أصدقائك.

تشاك جافي، كاتب عمود أول بموقع ماركت ووتش،
ومضيف برنامج «يور موني» الإذاعي
(www.yourmoneyradio.net)

هذا الكتاب مُهدًى لأسرتي؛
كيفن وويس وصوفي وأودري.

شكر وتقدير

كثير من الأشخاص يستحقون شكرًا خاصًّا على الرؤى والمقترحات التي حسَّنت كثيرًا مسودة هذا الكتاب.

أرشدني كلٌّ من ديبرا إنجلاندر وجريج فريدمان، من دار نشر جون وايلي آند صَنز، خلال عملية النشر، وأمداني بخبراتهما بكل مودة.

كما منحني وكيل أعمالي ثيرون رينز من وقته وخبرته بسخاءٍ من خلال قراءة الفصول، وصقل طريقة رواية القصة لديَّ بلمسةٍ خفيفة، وشجعني في كل خطوة.

وقدَّمتْ لي صديقتي الرائعة وزميلتي الكاتبة رينيه باشر سميث اقتراحات التحرير، وجِهات الاتصال من أجل الدعاية، والحماس الذي جعل تأليف الكتاب مُبهجًا. لم أكن لأُتمَّ هذا الكتاب من دونها.

وقدَّم والداي لويز ولارس هيلبيرج — بلطفٍ خاص — منزلهما لأسرتي ولي لمدة أسبوعين حتى يكون لديَّ مكان هادئ لكتابة عدة فصول. وقدَّم أخواي وزوجتاهما، مايك هيلبيرج وإيفانا جليسون ودان هيلبيرج ولورين تشوي، أيديَ العون بعديدٍ من الأشكال، بما في ذلك تتبُّع الأخبار المتعلقة بالصين من أجلي ومساعدتي في إعداد المسودة النهائية للكتاب.

أودُّ أن أشكر داني هيتمان وماجي هاين ريتشاردسون وميشيل ويلدون على مقترحاتهم عن كيفية رواية قصتنا. وَوَفَّرَ تشارلز ريتشارد وباربرا كلارك الدَّفعة الأولية الضرورية للكتاب.

أيضًا ساعدني أصدقاء قدامى وجدد في نواحٍ كثيرة. أودُّ أن أشكر سيندي ودومينيك ديسميت، وجُون ومارك فابياني، وإد سميث، وهانا سميث، وتشاك جافي، وشيلا أوليري، وميكيل موران، وشانون كيلي، وباميلا ويتينج، وكارولين كينيدي ستون، وماريبيل ديتز،

وجوردان كيلمان، وريك وسوزان مورلاند، وتارا جانيز، وجون ريتشاردسون، وكارولين بَيون، ووابن بارينت، وبيترا ريفولي، وسارة بيرد، وإليز ومايك ديكوتيو، وأسرتي بيركنز وكيلي، وموكول وليزا فيرما.

كان ويس وصوفي بونجورني صابرتَين عليَّ في الأيام التي قضيتُ فيها ساعاتٍ طويلةً أمام الكمبيوتر. وأظهرتْ أودري مراعاةً غير عاديةٍ بالنسبة إلى كونها رضيعة؛ حيث نامت لفتراتٍ طويلةٍ في الأسابيع الأولى من حياتها بينما أقوم بالتعديلات النهائية وكتابة المقدمة.

أخيرًا، أودُّ أن أُقدِّم الشكر لزوجي كيفن بونجورني، الذي رعى أطفالنا لأيامٍ متواصلةٍ حتى أتمكَّن من الكتابة، وساعدني على تذكُّر الأحداث الرئيسية، ووصل عمومًا بالروح الرياضية إلى مستوًى جديد. لقد ساهم بالكثير في تطوير مادة الكتاب من خلال تصرفاته العفوية.

تمهيد

الصين؛ بلد يبلغ عدد سكانه أكثر من ١,٣ مليار شخص، وهو الأكبر في العالم من حيث عدد السكان. لم يَعُد اقتصاد الصين الآن معزولًا عن بقية العالم. في الواقع، عندما يُسأل الأمريكيون مِن أين تأتي البضاعة التي نشتريها؟ فإن معظمهم لا يفكرون في المكسيك، ولا كوريا، ولا الهند، إنما يفكرون في الصين.

مع نمو الاقتصاد الصيني، دخل في منافسةٍ مباشرةٍ مع شركات التصنيع الأمريكية. وبفضل انخفاض الأجور والمساعدات الحكومية، استولت القوة الماحقة للتصنيع الصيني على أسواق السلع التي كانت تُصنَع سابقًا في الولايات المتحدة، وفي البلدان الأخرى أيضًا.

لقد خَلق الاقتصاد الصيني الجامح حالةً من عدم اليقين والخوف، بل خَلق حالةً من الغضب بشأن المنافسة غير العادلة. وأصبح أيضًا قضيةً سياسيةً كبرى نظرًا لانتقال وظائف قطاع التصنيع التي كانت تهيمن عليها الطبقة الوسطى إلى الخارج.

إن صورة الصين كماردٍ اقتصاديٍّ في الشرق الأقصى راسخةٌ بثبات، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنَّ الواقع يُطابق التصوُّر السائد. إذن، هل الصين حقًّا تلك القوة الاقتصادية الساحقة التي نتصوَّرها؟ والأهم من ذلك، هل يمكننا حقًّا العيشُ من دون المنتجات الصينية؟ هذا هو السؤال الذي طرحتْه سارة بونجورني في هذا الكتاب.

إذن، ما حقيقة الصين؟ إن البيانات الاقتصادية ليست واضحةً كما تجعلنا الصحافة نعتقد؛ فقد بدأت الحكومة الصينية في أوائل ثمانينيات القرن العشرين التوقُّف عن السيطرة مركزيًّا على اقتصادها، وسرَّعت ذلك في تسعينيات القرن نفسه. بدأت الصين تفتح أسواقها، وأدَّى تدفُّق الاستثمارات الأجنبية إلى البلاد إلى موجة نموٍّ هائلة في الاقتصاد. وبحلول نهاية عام ٢٠٠٦، كانت الصين تمتلك واحدًا من أكبر خمسة اقتصاداتٍ في العالم، ووَفْق أحد

المقاييس — الذي يُسمَّى تعادل القوة الشرائية — كانت تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة.

نحن في الولايات المتحدة نعتقد أن كل شيءٍ تصنعه الصين يُرسَل فورًا إلى هنا. في الواقع، ليس الأمر على هذا النحو؛ إذ شحنت الصين ما يُقدر بـ ٢٩٠ مليار دولار من جميع أنواع السلع إلى الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٦، ويصل أكثر من ١١ بالمائة من إنتاج الصين إلى الولايات المتحدة، ومع ذلك لا يُباع سوى حوالي ربع مجموع الصادرات الصينية في أمريكا. إلا أن هذه نسبة كبيرة للغاية؛ مما يجعل المستهلك الأمريكي مستهلكًا مهمًّا لقوة الاقتصاد الصيني.

ربما لا تُشكل البضائع الصينية كل ما نشتريه، لكنها بالتأكيد تُشكل جزءًا كبيرًا من مشترياتنا؛ فنحن نستورد البضائع من جميع أنحاء العالم بقيمة أكثر من ٢٫٢ تريليون دولار. ويأتي نحو ١٥ بالمائة من الصين، وهذه ليست كميةً صغيرة. ومع ذلك، بالمقارنة مع حجم الاقتصاد الأمريكي، فإنها كذلك. كان إجمالي الناتج المحلي الأمريكي في عام ٢٠٠٦ أكثر من ١٣٫٢ تريليون دولار، وتجاوز الإنفاق الاستهلاكي ٩٫٢ تريليونات دولار.

يبدو إذنْ أننا ينبغي أن نكون قادرين على عيش حياةٍ مُيسرةٍ دون الحاجة إلى شراء المنتجات الصينية. ولكن ربما لا يكون الأمر كذلك، خاصةً للأسر المنخفضة أو المتوسطة الدخل؛ فرغم أن البيانات تُشير في ظاهرها إلى أن الصين مهمةٌ ولكن ليست حيوية، فإن هذا يكون بالمقارنة بجميع السلع والخدمات التي نحصل عليها من بقية العالم. أما بالنسبة إلى الشخص الأمريكي العادي الذي يبحث عن ملابس وسلع مصنعة رخيصة الثمن، فإن الأمر مختلف تمامًا؛ فالعديد من السلع التي نشتريها بالفعل في هذا البلد يحمل مُلصَق «صُنِعَ في الصين».

وهذا يصل بنا إلى السؤال التالي: هل نستطيع العيش لمدة عامٍ كاملٍ دون شراء أي شيءٍ صيني؟ على الأرجح نعم، ولكن سيكون عليك التدقيق بشدة، ومع ذلك ربما تفشل حينها؛ فالعديد من السلع يحتوي على مكوناتٍ مصنوعةٍ في الصين ولكنها مُجمَّعة في مكانٍ آخر. لا تهتم معظم الشركات المصنِّعة بمكان إنتاج العناصر المكوِّنة من البداية؛ فهي تهتم فقط بأنها رخيصة وتُناسب احتياجاتها. المنافسة هي المتحكم الأول، وأولئك الذين لديهم أدنى تكاليف يسيطرون.

يدور هذا الكتاب في الأساس حول واقع العولمة؛ فهو لا يدور حقًّا حول الصين وإنما يروي قصةً عن الكيفية التي تَغيَّر بها العالم، والأهم من ذلك، إلى أين يتجه الاقتصاد

العالمي. يتحسَّن مستوى معيشة الجميع تقريبًا من خلال قدرتهم على شراء منتجاتٍ أقل تكلفةً بصرف النظر عن مكان صُنعها. تذهب أموالنا إلى أماكن أبعد كثيرًا. ويمكن للشركات استخدام الموارد الزائدة التي وفَّرها استخدام المنتج الأقل تكلفةً لإنتاج المزيد بتكلفةٍ أقل أيضًا.

مع هذا، بالنسبة إلى العاملين في تلك الصناعات والشركات التي لم تَعُد قادرةً على المنافسة، فإنهم فقدوا وظائفهم. هل هم على استعدادٍ لشراء عددٍ أقل من السلع بأسعارٍ أعلى من أجل الحفاظ على وظائفهم؟ الجواب نعم. ولكن بالنسبة إلى بقيتنا، لا نريد أن ندفع أكثر ونُعبِّر عن قرارنا هذا بشكلٍ ملموسٍ من خلال السلع التي نُنفق عليها أموالنا، فنحن نشتري المنتجات الأرخص بصرف النظر عن مكان إنتاجها. وفي الوقت الراهن على الأقل، كثير من تلك البضائع يأتي من الصين.

لذا، ربما يكون العيش دون منتجاتٍ أجنبيةٍ خيارًا، ولكنه ليس خيارًا واقعيًّا للغاية. في خمسينيات القرن العشرين، كان شعار «صنع في اليابان» هو الذي يُقلق شركات التصنيع لدينا، والآن أصبح شعار «صنع في الصين»، وفي المستقبل يمكن أن يكون «صنع في مكان آخر».

جويل إل ناروف
رئيس شركة ناروف إكونوميك أدفايزرز إنك
ورئيس الخبراء الاقتصاديين ببنك التجارة

مقدمة

في الأول من يناير عام ٢٠٠٥، شرعت أسرتي في مقاطعةٍ دامتْ عامًا كاملًا للمنتجات الصينية. كنا نريد أن نرى بأنفسنا ما سيتطلَّبه الأمر من قوة إرادةٍ وبراعةٍ للعيش دون الاستعانة بالاقتصاد الأسرع نموًّا في العالم، ومعرفة ما إن كان ذلك ممكنًا من الأساس. كنت أعرف أن الصين بحاجةٍ لمستهلكين مثلنا لتنشيط اقتصادها، ولكن هل نحتاج نحن إلى الصين أيضًا؟

لم تكن لدينا أدنى فكرةٍ عما سنواجهه؛ فالصين هي أكبر مُنتِجٍ في العالم لأجهزة التليفزيون ومُشغلات الأقراص الرقمية والهواتف الخلوية والأحذية والملابس والمصابيح والمعدات الرياضية. كما تَصنع ما يقرب من ٩٥ بالمائة من جميع ألعاب الفيديو وزينة الأعياد التي تُستورد إلى الولايات المتحدة ونحو ١٠٠ بالمائة من الدُّمى والحيوانات المحشوَّة التي تُباع هنا، وهذه حقيقة غير مريحةٍ لأسرةٍ مثلنا لديها أطفال صغار.

إن تدنيَ الأجور والتلاعُب في سعر العُملة والمساعدات الحكومية تساعد على تفسير احتلال الصين لمكانتها كأكبر مُنتِجٍ في العالم للسلع الاستهلاكية. وكذلك يفعل الإنتاج المحير للعقل من المصانع الصينية التي يمتلك الواحد منها أكثر من ٥٠ ألف عاملٍ سريعٍ ونشيط. ورغم أن ما يصل إلى مليونَي أمريكيٍّ فقدوا وظائفهم أمام المنافسة الصينية، فما زلنا عاشقين لما تبيعه الصين. ويواصل العجز التجاري بين الصين والولايات المتحدة بلوغ مستوياتٍ قياسية؛ فقد قفز بنسبة ٢٥ بالمائة وأصبح ٢٠١٫٦ مليار دولار في عام ٢٠٠٥، وهو عام مقاطعتنا للمنتجات الصينية.

تجلَّت محاولتنا لتجنُّب الوقوع في قبضة الصين في شكل سلسلةٍ من المواقف الدرامية البشرية الصغيرة؛ فبالنسبة إليَّ، عَنَتْ مقاطعةُ الصين أن أسعى جاهدةً للسيطرة على زوجي المتمرِّد والتسبُّب في خيبة أملٍ لابني الصغير؛ فكانت رحلات شراء السلع العادية مثل شموع

عيد الميلاد والأحذية مِحَنًا عسيرة، والأجهزةُ المعطلة سبَّبتْ أزماتٍ صغيرة. كان للأصدقاء والغرباء على حدٍّ سواءٍ آراء قوية عن المقاطعة، ولم يكن أحد يخجل من إخبارنا بما كانوا يعتقدونه. كانت المقاطعة في بعض الأحيان مؤلمة، ولكن في كثيرٍ من الأحيان كانت ممتعة. كانت مغامرة، كما كنتُ آمُل.

كما مثَّلت شيئًا آخر أيضًا؛ فلسنوات، كنت أبدأ يومي بقراءة صحيفة وول ستريت جورنال وتناول فنجان من القهوة. كنت أقرأ المقالات التي تدور عن الصين بِنَهم؛ فكَوني صحفيةً في مجال الأعمال، جعلني أبذل قصارى جهدي لأُقدِّم تفسيرًا للتحولات التي يشهدها الاقتصاد العالمي في المقالات التي أكتبها. ولكن الحقيقة هي أن الصين كانت على بُعد أكثر من ٧ آلاف ميل؛ كانت بعيدةً للغاية لدرجةٍ تمنع فهمها أو إدراكها. دفعتني المقاطعة إلى إعادة التفكير في المسافة بيني وبين الصين. وخلال إبعاد الصين عن حياتنا، اكتسبتُ نظرة مدهشة للغاية عن مدى تغلغُل الصين فيها.

بدأتُ ربط الصين التي قرأتُ عنها في صفحات مجال الأعمال بالصين التي وجدتها على أرض الواقع؛ فعندما قرأت أن المنسوجات الصينية تغمر البلاد، هُرِعْت إلى المركز التجاري لاستكشاف الرفوف لمعرفة هل هذا أمر حقيقي أم جنون ارتيابٍ على مستوًى وطني. عندما قللت سلسلة وول مارت من شأن اعتمادها على البضائع الصينية في إحدى المجلات، توجهتُ لمتجر وول مارت في المنطقة للتحقُّق بنفسي، على أمل أن أُثبت الكذب على سلسلة المتاجر. بدت مكانة الصين في العالم فجأةً حقيقيةً وشخصية.

يوضح رابطي الجديد مع الصين فائدةً غير متوقعةٍ أخرى من العام الذي قضيناه دون منتجاتٍ صينية؛ فقد تغيرتُ كمستهلكة، وأصبحتُ واعية بالخيارات التي كنت أتخذها. أصبح التسوُّق مختلفًا عما كان عليه طوال عقودٍ من السير في المراكز التجارية على غير هدًى؛ فأصبح له معنًى. كان تغيرًا مُرضِيًا. وبحلول نهاية العام، طرحتُ سؤالين جديدين، هما: هل يمكن أن نعيش إلى الأبد دون الصين؟ وهل رغبنا في ذلك أم لا؟

الأحداث المذكورة في هذا الكتاب حقيقية. والشخصيات هم أفراد أسرتي. وتَعرِض قصتنا لقطةً حقيقيةً من الحياة في ظل اقتصادٍ عالميٍّ واسعٍ ومراوغٍ مليءٍ بتعقيدات لا نهائية. وأملي هو أن يستعين القراء بتجربة أسرتي من أجل فهمٍ أفضل للكيفية التي تُغَيِّر بها الصين حياتهم بهدوء، وكيف أن خياراتنا جميعًا كمستهلكين تُشكل مكانة الصين في العالم، وكذا مكانتنا. كنت دائمًا أرى نفسي مجرد نقطةٍ صغيرةٍ في بحر الاقتصاد العالمي، وما زلت أفعل. ولكن المقاطعة جعلتني أرى ما كنت أغفل عنه من قبل؛ فربما أكون مجرد

نقطةٍ في العالم الأكبر، ولكن ما يزال بإمكاني اتخاذ خيارات، والصين تَحدُّ من الخيارات المتاحة أمامي وتزيدها على حدٍّ سواء. وآمل أن تُنبه قصتنا القراء لدراسة الخيارات المتاحة لهم عن كثب.

أتذكر لحظة شكٍّ انتابتني في الأيام الأولى من المقاطعة. ربما لم تكن عبارة «صنع في الصين» موجودةً في كل مكانٍ في منزلنا، كما بدا في فترةٍ قاتمةٍ في ظهيرة اليوم التالي على عيد الميلاد لعام ٢٠٠٤. ربما كنت أتخيل كل شيء. ربما لم نكن لنخوض هذه المغامرة رغم كل شيء، لأنه، واقعيًّا، ماذا يمكن للصين أن تفعل لحياتنا الأمريكية الهادئة على الجانب الآخر من العالم؟

جاء الجواب سريعًا ومبكرًا: يمكنها فعل الكثير.

الفصل الأول

وداعًا صديقتي

طردْنا الصين خارج المنزل في يوم إثنين مظلمٍ بعد يومين من عيد الميلاد، بينما كان الأطفال نيامًا في الطابق العلوي. لا أقصد البلد بطبيعة الحال، ولكني أقصد قِطعًا من البلاستيك والقطن والمعادن المختومة بعبارة «صنع في الصين». احتفظنا بالأشياء الصينية التي لدينا بالفعل، ولكن توقفنا عن جلب المزيد منها.

لم يكن الطرد نتيجةَ خطأٍ ارتكبتْه الصين؛ فقد غَلَّفت حياتنا بقشرةٍ مبهجةٍ من اللعب والأدوات والأحذية الرخيصة. أحيانًا كنت أشعر بالقلق حيال فقدان الوظائف في أمريكا أو التقارير السيئة عن انتهاكات حقوق الإنسان، ولكن السعر تغلَّب على الأخلاق في منزلنا. لم نستطع مقاومة ما كانت تبيعه الصين. ولكن في الظهيرة المظلمة تلك، غمرني اضطراب زاحف وأنا أجلس على الأريكة أعاين الأطلال الكئيبة للعُطْلة. يبدو لي أنه من المستحيل أن أكون قد غفلت عن ذلك سابقًا، إلا أنني حتى هذه اللحظة لم أكن قد لاحظت هذه الحقيقة الدامغة: الصين تُسيطر على المكان.

تُشع الصين وهجًا أزرق من مُشغل الأقراص الرقمية وتَلمع في الأضواء والكرات الزجاجية المتدلية على شجرة الكريسماس في ركنٍ من أركان غرفة المعيشة. الصين تحكُّ في قدميَّ بزوجٍ من الجوارب المخططة، وتكمن في كومةٍ فوضويةٍ من الأحذية الصينية بجوار الباب، وتُشاهد العالم من خلال العيون المطرزة لدميةٍ حمراء الشعر، وتُسلي الكلب باللعبة الصينية المخصصة للعض. وتُلقي الصين دائرةً صفراء اللون من الضوء صادرةً من المصباح على البيانو.

نهضتُ عن الأريكة لبدء جردٍ سريعٍ وفرزٍ لهدايا الكريسماس إلى فئتين: صينية وغير صينية. جاءت النتيجة بخمسٍ وعشرين هديةً صينية مقابل أربعَ عشرةَ هديةً من بقية العالم. طرأتْ عليَّ فكرة أن البرامج التليفزيونية الخاصة بالأطفال بحاجةٍ إلى تحديث

معلوماتها الجغرافية؛ فأقزام بابا نويل لا تُعْمَل في ورش تُغطيها الثلوج في الجزء الشمالي من العالم، ولكن في مصانع مستغِلة للعمال في طقسٍ حارٍّ على بُعد أكثر من سبعة آلاف ميلٍ عن منزلنا على ساحل الخليج. الكريسماس — اليوم الذي يحلم به كثير جدًّا من الأطفال كلَّ عام — عطلة صينية، لو تغاضيت عن ساعة تقضيها في الكنيسة أو مشاهدة أداء البابا للقداس على شاشات التليفزيون. لقد خرجت الأمور عن السيطرة في مكانٍ ما على طول الطريق.

وفجأةً أردت إخراج المنتجات الصينية من المنزل.

فات أوان طرد الصين تمامًا؛ فالتخلُّص مما جمعناه بالفعل في المراحل الأولى من شأنه أن يترك المكان عاريًا مثل فروع شجرة الليمون المحتضَرة في فنائنا الأمامي. وليس هذا فحسب؛ فإن زوجي كيفن كان سيقتلني. إنه رجل متسامح، ولكن لحدود. ومع ذلك، لسنا تروسًا في عجلةٍ صينية، على الأقل حتى الآن. يمكننا التوقف عن جلب المنتجات الصينية إلى منزلنا. يمكننا أن نكف أيديَنا ونقول: لا، شكرًا، لقد اكتفينا.

بدا كيفن قلقًا.

«لا أعتقد أن هذا ممكن.» قالها وعيناه تتفحصان غرفة المعيشة «ليس الآن، ليس مع وجود أطفال.»

كان جالسًا على الطرف الآخر من الأريكة ممسكًا بكوبٍ من الشاي الصيني يرتشف منه ببطء. لم يكن قد تعافى تمامًا بعدُ من تجميع القطار الصيني الجديد لابننا، وهي عملية مَلحمية استمرت حتى الساعات الأولى من صباح الكريسماس. بدا شاحبًا قليلًا والشعيرات النامية على وجنتيه بعمر يومين لم تُحسِّن مظهره. كسرتُ حاجز الصمت لأُقدِّم فكرتي له: لمدة سنةٍ واحدة، اعتبارًا من أول يناير، سنقاطع المنتجاتِ الصينية.

استطردتُ: «لا لعبَ أطفالٍ صينية، لا أجهزةَ إلكترونيةً صينية، لا ملابسَ صينية، لا كتبَ صينيةً، لا تليفزيونَ صينيًّا؛ لا شيءَ صينيًّا لمدة سنةٍ واحدة؛ لمعرفة هل يمكن القيام بذلك. يمكن أن يكون هذا قرارنا في السنة الجديدة.»

كان يرمقني بنظرةٍ مبهمة. ثم تناول رشفةً من الشاي، وأدار رأسه، ووَجَّهَ عينيه إلى الحائط الفارغ على الجانب الآخر من غرفة المعيشة. كنتُ آمُل في الحصول على موافقةٍ سريعة، لكن أصبحتُ الآن أرى أن هذا سيستغرق بعض الجهد.

قلتُ مقترحة: «سيكون هذا مثل لعبة التفتيش، ولكن بالعكس.»

كيفن عادةً مستعد لتحدي الأمور التقليدية. كانت أقرب شخصيةٍ دينيةٍ اقترب منها في طفولته هي دابليو سي فيلدز. كان يتهرَّب من المدرسة لمشاهدة فيلدز في أفلام الظهيرة على قناةٍ محليةٍ خارج لوس أنجلوس. وفي سن السادسة عشرة، أخذ إجازةً لمدة سنةٍ من المدرسة الثانوية وانتقل إلى ألاسكا للعمل في كرنفال متنقل حيث كان يعمل في لعبة رمي العملات المعدنية، وتعلم التحدُّث بطريقة العاملين في الكرنفالات من سجناء سابقين كانوا يديرون جولات الكرنفال. ثم عاد إلى كاليفورنيا، والتحق بكليةٍ مجتمعية، وقضى ثمانيَ سنواتٍ هناك، دارسًا الفلسفة والجمباز والنجارة.

اكتسب كيفن نزعته التمردية بنزاهة؛ فقد كان والده عضوًا صعب المراس في نقابة المعلمين ومحرضًا سياسيًّا، كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في المشي عاريًا في صحراء أنزا بوريجو. كنت أتخيل أنه إذا كان يمكنني استغلال هذا الدم المتمرِّد الآن، يمكنني جعْل كيفن يوافق على مقاطعة الصين.

قلت له: «لا يمكن أن يكون أمرًا صعبًا، فلا يوجد لدينا ميكروويف. وشاشة التليفزيون لدينا ثلاثَ عشْرةَ بوصةً مثبت فوقها هوائي ثُنائي. وأصدقاؤنا يعتقدون أننا مجانين لعيشنا بهذه الطريقة، ولكن لا أستطيع أن أرى أننا نفتقد الكثير. ما درجة الصعوبة التي سنعانيها إذا تخلينا عن الصين أيضًا؟»

أبقى كيفن عينيه على الحائط، فواصلتُ الحديث.

طوحتُ بذراعي قائلة: «إننا دائمًا ما نتذمر من أن الولايات المتحدة لم تَعُد تصنع أيَّ شيء. لقد قلنا ذلك مليون مرة. وقد قلتَ أنت ذلك مليون مرة. ألا تريد أن تكتشف بنفسك هل هذا صحيح حقًّا أم لا؟»

أدركتُ على الفور أن السؤال خطأ. رفع كيفن حاجبه ومطَّ شفتيه راسمًا على وجهه ذلك التعبير المبالغ فيه لوجه المهرج الحزين. ثم سمعتُ صريرَ هواءٍ خافتًا بينما فتح فمه ليتكلم، وهو ما يزال مُشيحًا بوجهه عني، فعدتُ للحديث مرةً أخرى، بسرعة.

«ربما نوفر المال. ربما يمكننا الالتزام أخيرًا بميزانيةٍ محددةٍ مثلما كنا نقول طوال خمسَ عشْرةَ سنة. وسيكون ذلك ممتعًا، كنوعٍ من المغامرة.»

تفحصتُ جانب وجه كيفن. كان يملك فكًّا مربعًا وأنفًا لنجمٍ سينمائي، ولكن ثَمَّةَ شيء غريب في عينيه؛ إذ تتسمان بمظهرٍ زجاجيٍّ حالم، وكانتا معلقتين بالطلاء الأخضر الباهت على الجدار المقابل. بدا أنهما لا تستطيعان الاستدارة ناحيتي.

أوضحتُ أن وظيفتي بدوامٍ جزئيٍّ ككاتبةٍ في مجال الأعمال التجارية تَعني أنني أستطيع القيام بمهمة تمشيط المركز التجاري الشاقة للوصول إلى البضائع غير الصينية. إذا كان في هذا العالم المشغول مَن يملك وقتًا لتضييعه، فإنه أنا.

وأضفت: «ليس ذلك فحسب؛ فأنا أحب قراءة تلك الملصقات الصغيرة التي تخبرك بمكان صُنع الشيء. يمكنك ترك هذا الأمر لي.»

ربما يكون كيفن متعقلًا إلى حدٍّ يَحُول دون أن يَشغل باله بهذه التفاصيل، ولكنْ كلانا يعرف أنني لست هكذا، فقد تحققتُ من ملصقات كل شيءٍ تقريبًا اشتريناه خلال الأعوام القليلة الماضية، فأشعر بسعادةٍ شاذةٍ في تعقُّب سقوط الإمبراطورية الأمريكية من خلال هذه الملصقات الصغيرة التي نادرًا ما تحمل عبارة «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية». هذا هو السبب في أنني أعلم أننا نملك مقلاةً فرنسية، وضماداتٍ برازيلية، ومقعدَ مرحاض تشيكيًّا. كانت تلك الأسماء نادرةً في منزلنا. كان أكثر اسم ألتقيه، ربما ثمانيَ أو تسعَ مراتٍ من أصل عشْرٍ، هو الصين. ربما نتوقف عند أحدث اكتشافٍ صيني، ثم يقول كيفن العبارة التي تطوف في ذهنَيْنا في الوقت نفسه: «سينتهي الأمر بكارثةٍ كبيرة.» ويُتمتم بها بينما يهز رأسه.

أتمنى الآن لو لم أكن متحمسةً للغاية لمشاركة هذه النتائج المتعلقة بالمنتجات الصينية معه. ينبغي أن أجعله ينظر إلى ما وراء الحقيقة البديهية أن مقاطعة الصين من المرجَّح أن تقلب حياتنا رأسًا على عقب. أحتاج أن يُنحيَ كيفن المنطق السليم والتجرِبة الشخصية جانبًا، ويتوغل معي في هذا الدرب غير المطروق.

«لا أقترح ألا نشتري سوى السلع الأمريكية، بل ألا نشتري أشياء صينيةً فحسب. والأطفال — في سن سنةٍ واحدةٍ وأربع سنوات — صغار للغاية ولن يعرفوا ما يفتقدونه. أيمكنك أن تتخيل كيف سيولولون لو كانوا مراهقين؟ لا وقت أنسب لهذه العائلة لمقاطعة الصين من ذلك الوقت. ودعنا نكُن صادقين؛ إذا كان الحساب البنكي يُختزل في بعض الأحيان إلى خانةٍ واحدةٍ في أواخر الشهر، فإن ذلك يرجع إلى الافتقار إلى مهارات إدارة الأموال، وليس لنقصٍ في السيولة. لا يستطيع الجميع مقاطعة الصين، ولكن براتب التعليم الخاص بك وأجري ككاتبة، نستطيع ذلك.»

على الأقل آمُل أن نتمكَّن من ذلك، بحسب ما أعتقد.

أضفت: «وعلى أية حال، يمكن أن نعود إلى عاداتنا القديمة في يناير المقبل. سوف تكون الصين في انتظارنا. سوف تكون الصين موجودةً دائمًا لتستعيدنا.»

تفحصت جانب وجه كيفن. كان قد قرَّر أن ينتظر انتهائي. كانت استراتيجيته المعهودة، ولسببٍ وجيه؛ فهي تنجح تقريبًا في كل مرة. عندما نختلف، يُمسك لسانه، ويتراجع إلى الوراء، ويدعني أتعثر في حديثي. أتذكر أنني رأيت هذه النظرةَ المبهمةَ نفسَها في عينيه قبل سنوات، عندما أحضرتُ كلبًا ضالًّا ذات يومٍ إلى المنزل وسألتُ عما إذا كنا نستطيع الاحتفاظ به. توقَّف كيفن عند البوابة الأمامية ولم ينبس بكلمة. قرر الوحش مصيره بنفسه عندما انفجر مزمجرًا وهجم على كيفن رافضًا السماح له بدخول البيت. لم يلفظ كيفن بكلمةٍ واحدة.

أدركت أن الوقت قد حان لاستخدام سلاحٍ أقوى. وحاولت أن أبدوَ رابطة الجأش وأنا أقول:

«قال بعض الناس إن مقاطعة وول مارت ستكون صعبة. لا أستطيع القول إننا افتقدنا شيئًا.»

في البداية، بدت لي مقاطعة وول مارت سخيفة. لم أستطع أن أرى فرقًا بين وول مارت وأماكن مثل كيه مارت وتارجت فيما يتعلق بقضايا مثل القضاء على المتاجر الصغيرة وأجور العاملين. صحيح أنني مررت ببعض التجارِب الشخصية البغيضة في متجر وول مارت القديم القريب من منزلنا؛ فقد رأيت رجلًا يصرخ في طفلٍ منهكٍ ورأيت في أكثر من مرةٍ صراصير محتضَرةً تحرك سيقانها الشائكة في الهواء إلى جواري بينما أقف في وهج أضواء النيون عند صف الدفع منتظرةً دفع ثمن الملابس الداخلية والحفَّاظات.

ثَمَّةَ أسباب عادية لنقد وول مارت؛ منها التنمُّر على الموردين وتشويه المناظر الطبيعية الذي تسببه متاجره المهجورة، وأمور أخرى. أما ما جعلني أشارك في مقاطعة وول مارت، فهو عندما قرأت أن الشركة منعت مفتشي العمل من دخول المصانع الأجنبية التي تُنتج إنتاجًا وافرًا من قمصان البولو (التي تُباع بسعر ثمانية دولارات) والفساتين المعلقة على رفوفها (التي تُباع بسعر أحد عشر دولارًا). حتى حينها، كنت أستطيع التفكير في شيئين لطيفين حيال وول مارت؛ فالشركة تتيح للناس النوم في سيارات الكارافان الخاصة بهم في مواقفها للسيارات، وتوفر للمستهلكين عمومًا مليارات الدولارات على كل شيء من مسحوق تايد حتى المخللات.

يُخيَّل إليَّ أن مقاطعة متجر وول مارت تجرِبة اختبارية جيدة لحظر الصين؛ لأن كثيرًا مما يبيعه يأتي من الصين. أعرف هذا لأنني قرأت الملصقات على كثيرٍ من الصناديق في وول مارت فيما قبل مقاطعة وول مارت. ومع ذلك، يوجد فرق رئيسي بين حظر

وول مارت وحظر البضائع الصينية؛ ففي نهاية المطاف، مقاطعة وول مارت تتطلب شيئًا واحدًا فقط: إبقاء يديك على عجلة القيادة وزيادة السرعة متجاوزًا مدخل أماكن ركن السيارات الواسعة الخاصة به. بالمقارنة، تفترش المنتجات الصينية رفوف متاجر التجزئة في جميع أنحاء البلاد، ليس فقط المتاجر الكبرى، ولكن أيضًا المتاجر الصغيرة المعطرة والمحال الخافتة الإضاءة وصفحات المنشور التسويقي التي تشق طريقها إلى ملايين من صناديق بريد الأمريكيين كل يوم. لا يمكن تجنُّب المنتجات الصينية بسهولة.

أبقيت هذه العبارة الأخيرة في نفسي. علاوةً على ذلك، استطعت أن أرى أن حيلة وول مارت قد لمست وترًا حساسًا، فخفَّت التجاعيد حول فم كيفن، وزالت تقطيبة جبينه، فيما ظلت عيناه على الحائط، لكنه كان يستمع إليَّ. كان أي مفاوض على الإفراج عن رهائن سيقول لي إنني أحقق تقدمًا لأنني جذبت انتباهه. وسيخبرني المفاوض أن أجعله يواصل الحديث. كان كيفن مسترخيًا في الطرف الآخر من الأريكة، لكنه وقف في تلك اللحظة ونظر حوله في أرجاء الغرفة. حاولت ألا أتمادى فأُضيع فرصتي في النجاح في إقناعه، فانتظرت منه القيام بالخطوة التالية، فأدار رأسه وركز عينيه عليَّ وتساءل:

«وماذا عن آلة إعداد القهوة؟»

كان يفكر في الآلة المعطلة التي ما زالت قابعةً على منضدة المطبخ، على الرغم من أن آخر فنجان قهوةٍ أعدَّتْه كان منذ شهر. كنا قد اشتريناها من متجر تارجت منذ سنتين. وكان حدثًا لا يُنسى لأنها كانت المرة الأولى التي لاحظنا فيها استحواذ الصين على سوقٍ واحدٍ من الأجهزة المنزلية العادية. وقفنا في ممر المتجر لمدة ٢٠ دقيقة، نُقلب الصناديق وننظر في الملصقات. كانت كل الصناديق من الصين، فهززنا أكتافنا بلامبالاةٍ واخترنا آلة سوداء أنيقة ذات وعاءٍ سعة ثمانية أكواب. أصدرت الآلة صوت طقطقةٍ وتوقفت عن العمل في صباح أحد أيام شهر نوفمبر، ولكننا تركناها هناك على أمل أن تعود للحياة بطريقةٍ ما.

لأسابيع كنا نغلي الماء ونصبه عبر مرشحٍ بلاستيكيٍّ فوق أكواب القهوة. لم أهتم لذلك؛ فهذا يُذكرني برحلات التخييم في الجبال عندما نصنع القهوة على النار. ولكن كان شعور كيفن خلاف ذلك. وفي صباح الأيام الباردة، عندما يصبح مطبخنا شبيهًا بكهفٍ بارد، ونكون في حاجةٍ ماسَّةٍ لشيءٍ ساخن، كنت أستطيع أن أفهم وجهة نظره. وكان بسؤاله عن آلة إعداد القهوة يريد أن يعرف هل ما يزال الإنتاج الصيني صالحًا للدخول ضمن دائرة البحث عن بديل.

قلت: «إننا في السابع والعشرين من ديسمبر. أمامك أربعة أيام.»

حينها أدركت أنه أصبح معي. أدار رأسه وألقى نظرةً على منظر أرضية غرفة المعيشة الفوضوي. كان يُشكِّل قائمة ذهنية بالأشياء الأخرى التي يريد إضافتها إلى منزلنا المزدحم وما يزال لديه وقت. كنت أنظر لنصف الكوب الملآن، لكني واثقة أنه سينظر إلى النصف الفارغ؛ فأطبقت فمي؛ فهذا ليس وقتَ جدل. كان يُشكِّل في ذهنه بالفعل قائمة التسوُّق الخاصة به ويتجه نحو الباب، دون أن ينظر وراءه مطلقًا. تخيلت عاصفةً من لعب الأطفال والجوارب والأحذية الصينية تتبعه قبل أن يُصدر الباب صوت انغلاقه. قلت في قرارة نفسي: «حمدًا لله أنه خرج.» ولكن الفكرة التالية أذهلتني. وللحظةٍ وجيزة، شعرت بالقلق لما نحن بصدده.

فيما بعد، وأنا ألتقط قصاصات ورقٍ وصناديق ممزقة من الأرض، أدركت أنه ستوجد تعقيدات إضافية، وأعني بها أمي، بتعليقاتها الكثيرة على كل شيء.

ففي سن الحادية والسبعين، لم يكن إحساسها بالظلم يقل عن إحساس متخرِّج حديث من قسم الفلسفة؛ وهو ما كانت عليه في عام ١٩٥١، فالمواضيع المفضلة للمناقشة لديها هي العهد القديم، والطيور في فنائها الخلفي، وقواعد اللغة الإنجليزية السليمة، ومعاناة الفقراء، دون ترتيبٍ معين. وقاعدتها المفضلة هي القاعدة الذهبية، وعندما تعلم بخططنا لمقاطعة الصين، سوف تشكُّ في أني أكسرها؛ سوف تعتقد أنني أنتقد مستضعَفًا لوصوله لمستوياتٍ عاليةٍ من النجاح بعد عصورٍ من العيش في القيعان. سوف تجد فرصةً سانحةً للجدال.

سوف تبدأ قائلة: «كيف ستشعرين إذا قاطعكِ شخصٌ ما؟»

ثم ستتوقف لتتساءل عما إذا كنتُ شبيهةً بها على أي حال.

ثم ستسأل بعدها: «هل المقاطعة من أجل حقوق الإنسان؟ هل هي من أجل العمال الصينيين الذين يعانون مثل العبيد في تلك المصانع الشنيعة؟»

والدتي تحب البشر جميعًا، وإحدى طرق حبها لهم هي الجدال معهم؛ ففي عالَمها لا يوجد خصوم غير جديرين بالاهتمام، فلم تلفظ قط عبارة «من يهتم برأيهم؟» إنها تهتم بما يعتقده الجميع، وخصوصًا عندما يعتقدون بأمورٍ خاطئة، وفي هذه الحالة ترى أنه من واجبها مساعدتهم على معرفة خطئهم. ذات مرة، خلال رحلةٍ إلى سانتا مونيكا بيير، وأنا في السابعة أو الثامنة من عمري، شاهدتها في رعبٍ وهي تتجادل مع راكب دراجةٍ ناريةٍ ضخم، لا يرتدي قميصًا، عما إذا كان نجم البحر الذي يمسكه في قبضته يمتلك العدد نفسه من الأطراف مثل نجمة داوود.

صاح الرجل دون توجيه حديثه لشخص بعينه: «نجمة داوود!» ملقيًا الكائن النافق نحو السماء ومسرعًا بتمايُلٍ عابرًا ألواح الرصيف الخشبي.

مشت أمي نحوه وقالت:

«نجمة داوود تمتلك ستة أطراف.»

فزمجر قائلًا: «خمسة أطراف!»

فردت: «ستة.»

فرد عليها: «خمسة!»

بدأ الناس يتجمعون. وبصمت، تمنيت أمرين؛ أولًا: ألا يقتل راكبُ الدراجة النارية والدتي. وثانيًا: أن تتحطم ألواح الخشب الكبيرة من تحت قدميَّ إلى شظايا وأغرق تحت موجات المحيط الهادئ بعشرين قدمًا ولا أظهر مرةً أخرى. كنت نصف محظوظةٍ في هذا اليوم، فقد ابتعد راكب الدراجة النارية عن الرصيف دون أي عنفٍ ضد والدتي، ولكني بقيت متسمِّرةً على الألواح الخشبية.

سأجيب عندما توجِّه والدتي أول نقدٍ لها لمقاطعتي الصين، قائلةً: «لا، ليس من أجل العمال الصينيين.»

«إذن، هل من أجل العمال الأمريكيين؟ من أجل الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم بسبب الصين؟»

«لا، ليس من أجلهم أيضًا.»

«هل هي من أجل التبت؟»

سأقول: «ولا من أجل التبت يا أمي، على الرغم من أنها يمكن أن تكون كذلك. ربما ينبغي أن تكون كذلك. على الأرجح ينبغي أن تكون كذلك، ولكنها ليست مقاطعةً سياسية.»

سوف تسأل: «إذن، ما سببها؟»

سأرد عليها قائلةً: «إنها تجرِبة؛ لمعرفة هل يمكن القيام بها أم لا.»

«وهل يمكن ذلك؟»

«ليس لديَّ فكرة يا أمي. هذا ما أعتزم معرفته.»

سوف تصاب بخيبة أمل. لن تجد ما تقوله. لن تكون قادرةً على إقحام أنفها في هذا الأمر؛ فستضعها كلمة «تجرِبة» في حيرة. أنا أتحدر من عائلةٍ من العلماء والمدرسين؛ علماء ومعلمين متدينين بشدة، فوسط أعضاء عشيرتي، الاعتراضُ على تجرِبة، على السعي وراء الحقيقة والمعرفة، غيرُ محتمَلٍ مثل الاعتراض على شخصٍ يأخذ دروسًا في العزف على

البيانو. لا يمكن لأحد فعله. لا يوجد حافة تتعلق بها وتطلق حملة احتجاج. سوف أوقف أمي قبل أن تتمكن من البدء.

كوَّرتُ ورق التغليف في يدي وألقيته في كيسٍ بلاستيكيٍّ أخذتُه عن الأرض، ثم ألقيتُ جسدي على الأريكة لأستمتع بانتصاري المتخيَّل على والدتي. شعرتُ بالذنب قليلًا؛ لأنه ليس لطيفًا أن تَسحق أمَّك، حتى لو كان ذلك نظريًّا، أو تحرمها من حوارٍ ممتعٍ عن مآسي العالم، خاصةً إذا كانت تعيش على بُعد منطقتين زمنيتين غربًا، ولا تحادثها سوى مرةٍ واحدةٍ في الأسبوع؛ فقررت تأجيل إخبارها عن المقاطعة لأطول فترةٍ ممكنة.

ناداني أحد الطفلين من فوق: انتهى وقت القيلولة. تنهدتُ تنهيدة المحروم من النوم، ودفعت نفسي للوقوف على قدميَّ وتوجهت للدَّرَج، ونحيت والدتي والصين جانبًا لفترةٍ من الوقت.

كانت مدرسة الأطفال مغلقةً لمدة أسبوع؛ لذا قضينا الأيام الأربعة التالية في مطاردتهم في جميع أنحاء المنزل. الجو بارد في الخارج؛ لذلك سمحنا لهم بلعبهم الجامح في الداخل، غضضنا الطرف عن قفز صوفي على السرير وإسراع ويس من غرفةٍ إلى أخرى على دراجةٍ صغيرةٍ حمراءَ معلقٍ في مقبضها جرسٌ هولندي. كان صوت الجرس يقرع بينما كان ويس يدور حول طاولة المطبخ، ويتوجَّه نحو غرفة الطعام. أصدرتُ تهديداتٍ فارغةً عندما انحرف قريبًا للغاية من أصابع قدم شقيقته العارية وتهديداتٍ حقيقيةً عندما داس على أصابع قدمي. أحيانًا أشير لنفسي بأنني أتحوَّل بسرعةٍ لواحدةٍ من هؤلاء الأمهات اللاتي أقسمتُ أنني لن أكون منهن؛ متسامحة أكثر من اللازم ومستعدة لعقد صفقاتٍ مع الأطفال حول الحلوى والتليفزيون إذا كان ذلك سيوفر لي خمس دقائق من السلام.

انحرف ويس بجوار أخته مرة أخرى.

فصرختُ: «انتبه.»

فابتسم ابتسامةً عريضةً وانطلق بسرعةٍ مبتعدًا.

عندما لا يكون راكبًا دراجته، يلعب ويس بجهاز اللاسلكي الصيني الجديد، فيوزع أدوات الإرسال والاستقبال على الجميع، بما في ذلك شقيقته الرضيعة، لكي يستطيع أن يراقب عن كثب تحركاتنا في جميع أنحاء المنزل.

خرج صوته عبر الجهاز عاليًا وخشنًا: «ماذا تفعلين يا أمي؟» وكأنه يتحدث عبر مكبرٍ للصوت تحت الماء، فالتقطتُ جهازي وضغطتُ على زرٍّ بإبهامي المبلل.

«أغسل الأطباق.» وتركت الزر.

أتاني رده الغامض «أوه». ثم بعد خمس ثوانٍ: «ماذا تفعلين الآن؟»

رددت: «أغسل الأطباق.»

وبعد ذلك بقليل، جعل جهازي يطنُّ مرةً أخرى.

«ماذا تفعلين يا أمي؟»

«أُطعم الكلب.»

«ماذا ستفعلين بعد ذلك؟»

«أغسل مزيدًا من الأطباق.»

فقال: «انتهى.»

نادرًا ما نغادر المنزل إلا للذهاب للتسوق، وهو النشاط الذي يبدو مملًّا بعد هذا الوقت القصير من اللهو باللُّعب والملابس في صباح الكريسماس. كانت رحلاتنا إلى المتجر مناسباتٍ مثيرةً للقلق؛ فمن ناحية، شعرت بالقلق من أن ثَمَّةَ أشياء محددة سيُحرَّم علينا شراؤها من السوق لمدة الاثني عَشَرَ شهرًا المقبلة؛ الأمر الذي من شأنه أن يُعرِّض المقاطعة للخطر إذا ضاق كيفن — الذي سرعان ما أطلقتُ عليه الحلقة الأضعف — ذرعًا بالفكرة واستسلم.

من ناحيةٍ أخرى، خشيت أن يكون تخزين الأشياء قبل موعد إطلاق المقاطعة مجرد محاولةٍ سافرةٍ للالتفاف على المقاطعة عن طريق جعْل الامتثال لقيودها سهلًا للغاية. وفي الوقت نفسه، اكتشفتُ أنه يجب عليَّ تأخير قول «لا» لكيفن، وأي شخصٍ آخر في الأسرة، خلال أيامنا الأخيرة من استخدام البضائع الصينية دون قيود. على أية حال، لم نجلب للمنزل أي شيءٍ مبهرٍ أو أي شيءٍ صيني؛ وهو ما أصابني بالدهشة؛ فقد اشتريت بضعةَ صناديق تخزينٍ بلاستيكيةٍ مصنوعةٍ في أوكلاهوما، ومجموعةً من بطاقات الكريسماس مخفضة السعر، مصنوعةً أيضًا في الولايات المتحدة الأمريكية، التي لاحظت أنها أرخص من علبة البطاقات الصينية القابعة بجانبها على الرف. واشترى كيفن سروالين مكسيكيين من الجينز.

تبيَّن أن آلة إعداد القهوة لا تُمثل مشكلة، ولا حاجة لشراء غيرها.

قال كيفن عندما سألته عنها في أحد الأيام: «اعتقدتُ أنكِ أردتِها.»

فرددت: «أنا؟ لا تهمني آلة إعداد القهوة. لقد كنتَ أنت مَن جلبها للمنزل.»

«هذا لأنني اعتقدت أنكِ تريدينها. أحضرتها فقط من أجلك.»

«لا أريدها. لا بأس لديَّ في غلي الماء.»
فقال: «حسنًا، لا أريدها.»
فقلت: «حسنًا.»
فردَّ: «حسنًا.»
سوف يخبرك أنني أنا الشخص العنيد، ولكن هذا غير صحيح.

سألت كيفن أثناء عرض إعلانٍ تجاريٍّ قائلة: «هل تعتقد أننا سننجح في هذا؟»

فقال متسائلًا: «حتى منتصف الليل؟»، ثم أضاف: «أشك في ذلك.»

إنها ليلة رأس السنة، اليوم الأخير من حياتنا كمدمنين للمنتجات الصينية. قدَّمنا أعذارًا زائفة لأصدقائنا عن إصابة صوفي بالبرد لكي نتمكَّن من فعل ما كنا نريد القيام به حقًّا، وهو البقاء في المنزل ومشاهدة التليفزيون ومراقبة هبوط الكرة الكريستالية على ساحة تايمز سكوير. شعرتُ في هذه الليلة بحماسٍ شديد، فكادتْ روحي تخرج من جسدي مترقبةً صباح الغد. لا أستطيع الانتظار لبدء هذا الأمر؛ فأنت لا تقرر كل يومٍ أن تخوض معركةً ضد القوة العظمى الثانية في العالم، واللقطات الكبيرة لحشود الغرباء الضخمة السعيدة تُعضد عزيمتي، ففكرت في نفسي، هاتِي ما عندكِ.

من الواضح أن كيفن ليس متحمسًا مثلي.

قلت له: «أنا لا أتحدث عن هذه الليلة. أقصد هذا العام، دون المنتجات الصينية. هل تعتقد أننا سننجح طوال السنة؟»

هز كيفن كتفيه بلامبالاة وتوجَّه مرة أخرى نحو التليفزيون.

قلت في نفسي: «ها هو الحلقة الأضعف، انتظري وسوف ترَيْن.»

لا ينبغي أن أقسوَ عليه، فلديَّ تاريخ رديء فيما يتعلق بالتمسُّك بقرارات السنة الجديدة؛ فأنا لم ألتزم بقرارٍ سوى مرةٍ واحدة، وهي السنة التي أخذتُ فيها عهدًا على نفسي بصعود الدَّرَج كل صباح إلى مكتبي في الطابق الرابع في مكان عملي في ذلك الوقت. لم يكن قرارًا كبيرًا؛ حيث إنني كنت في العادة أصعد الدرج بدلًا من المصعد على أي حال. لم يكن يمثل صعوبةً خاصة؛ إذ كان يُشبه قرارًا بشرب القهوة أو الاستحمام كل صباح. وفي السنوات الأخرى، عندما وضعتُ نُصْب عينيَّ التدريب من أجل سباق ماراثون أو حتى ترتيب السرير كل يوم، كانت عزيمتي تنهار بحلول منتصف يناير، في أحسن الأحوال.

يوجد شيء آخَر كان يَشغل بالي بينما أنتظر منتصف الليل بالتوقيت الشرقي. استغرق مني اكتشافه بضع دقائق، وعندما فعلت، فوجئت. إنه الندم. لا أستطيع أن أصف الصين

بأنها صديق. مليار شخص، قوة عسكرية ضخمة، حكومة قمعية ذات نوايا غير واضحة. كانوا قديمًا يصفونها بالغموض، ولن يكونوا مخطئين اليوم. لكن الصين تُمثل شيئًا آخر أيضًا: قريب لي.

منذ ثلاثة قرون، أبحر سَلَفِي الصيني إلى ألمانيا؛ حيث ترجَّل من مركبه مع زوجته وابنه الصغير. لم تناسب الرحلة السيدة تشانج، وتُوفِّيت على الفور. كان السيد تشانج أفضل حالًا؛ فحصل على وظيفة حارسٍ لعائلةٍ ألمانية، وأغوى الابنة المراهقة، وأنجب منها طفلًا دون زواج. تصوَّرت الحملة الهامسة عن خلط الأعراق وعدم الشرعية، ولكن تقاليد الأسرة خرساء بشأن هذه المسألة، إضافةً إلى المصير الأهم للسيد تشانج، وابنه، وعشيقته. نجا الطفل، الذي كان فتاة. وحطت سليلتها — جدتي الكبرى — الرِّحال في جزيرة إليس في سبعينيات القرن التاسع عشر وتوجَّهت غربًا نحو نبراسكا.

أشارت أمي إلى السيد تشانج لتفسير غلبة الملامح الآسيوية على أخي الصغير وثنيات جفون جدتها البسيطة. منذ سنوات، أبحرتْ أمي عبر نهر يانجتسي، وأكلتْ في مطاعمَ قديمةٍ متداعية، ولم تشعر بمرضٍ قط. وأكلت بِنهمٍ طبقَ البط الصيني في كل فرصةٍ ممكنة. ولونها المفضل هو الأحمر.

وتُصر قائلة: «إنها الطبيعة، وليست التربية، العامل الفاعل ها هنا.»

عندما كنت طفلة، أحيانًا ما كانت تنمو شعيرات سوداء في رأسي الأشقر. لمحتها في المرآة من على بُعد عدة أقدام، خطوط سوداء سميكة إلى جانب الخصلات الصفراء الباهتة. في المرة الأولى التي رأيت فيها إحداها تساءلت هل سقطتْ من رأس شخصٍ آخر لتتصل بشعري بطريقةٍ ما. اقتلعتها ووضعتها في كفي. كانت لامعة وذات لونٍ أسود داكن، ومستقيمة تمامًا، وبضِعف سُمك شعيراتي الأخرى، التي كانت متموجة وبيضاء تقريبًا. علمتُ على الفور ماهية الأمر: الصين تطالب بي بعد ثلاثة قرون وعبر محيطٍ يفصلني عن الوطن الأم. لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يقنعني بخلاف ذلك.

في بعض الأحيان كنت أتفحص رأسي لاكتشاف مزيدٍ من الشعر الأسود، لكنها كانت قليلة جدًّا وربما اختفت نهائيًّا بوصولي إلى سن المراهقة. كنت أقف في ضوء الحمَّام البرتقالي وأدقق في المرآة بحثًا عن مزيدٍ من العلامات الآسيوية — مثل انحناء الشفة أو العين — ولكن لم يكن هناك شيء. كان الوجه الذي ينظر إليَّ وجهًا من الضواحي على نحوٍ كبيرٍ تمامًا مثل المروج المغطاة بحشائش برمودا. كان ذلك محبطًا؛ فقد أردت مزيدًا من الصين، وليس أقل.

ذكَّرت نفسي الآن أن المسألة ليست شخصية، وأن الأمر كله لن يستمرَّ إلا عامًا واحدًا.

بدأ اليوم الأول من يناير بالنسبة إليَّ مثل اليوم الأول من كل عامٍ جديدٍ خلال العقد الماضي. كنت مرتديةً بيجامتي طوال الصباح ومستلقيةً على الأريكة لمشاهدة مهرجان الورود على شاشة التليفزيون، منتظرةً لقطاتٍ سريعةً لجبال سان برناردينو المغطاة بالثلوج من بعيد. كان كيفن والأطفال يصنعون جلَبة أثناء إعداد الفطائر في المطبخ. أنا أحب المهرجانات، لكنها تجعلني أبكي، ولا يوجد مهرجان يجعلني أبكي مثل هذا المهرجان؛ فيؤلمني أنفي وتغرورق عيناي بالدموع عندما أرى جياد البالومينو، وتلال الزهور المتحركة، وأطفال فرق الغرب الأوسط الممتلئين تتورَّد وجوههم احمرارًا وهم يسيرون في شارع كولورادو بوليفارد.

كما هي عادتي، أتوجَّه إلى قناة إن بي سي للاستماع إلى تعليق آل روكر على الأحداث الجارية، الذي أحبه بعض الشيء. كانت عيناي مغرورقتين بالدموع وأنفي أحمر، ولكنَّ حِسَّ آل الكوميدي منعني من الانهيار التام؛ فلولاه، لَوُجِد احتمال كبير بأن أدخل في نوبة بكاءٍ مفتوحٍ قد يُخيف الأطفال. في هذا الصباح، كان لآل والخيول وأطفال الفرق الموسيقية معنًى خاصٌّ بالنسبة إليَّ. قلت لنفسي إنه بصرف النظر عما ينتظرنا هذا العام، لا يوجد نقص في الأشياء الجميلة البعيدة للأبد عن الصين وفي متناولي، ومهرجان الزهور وباسادينا وآل روكر ثلاثة أمثلةٍ سريعة. آلمني أنفي مرةً أخرى عند ورود هذه الفكرة.

كان المهرجان على وشك الانتهاء عندما رن الهاتف وناداني كيفن للذهاب إلى المطبخ. كانت صديقتي الحميمة، وهي مغتربة أمريكية متزوجة من رجلٍ فرنسي، تتصل من باريس لتتمنى لنا سنة جديدة سعيدة. إننا نتحدث معًا كل أسبوعٍ تقريبًا، وكنت متحمسةً لمشاركة آخر الأخبار معها — من أجل التفاخُر في الواقع — عن مقاطعة الصين. تبادلنا التهنئة الأولية، ثم قلت لها ما نحن بصدده مع مطلع السنة الجديدة.

لم يكن ردُّ فعلها كما كنت أتوقع، إذ بادرتْني بالانتقاد.

قالت ساخرة: «سوف تصبحين عاريةً ومُفلسة. إنكِ تحلمين إذا كنتِ تعتقدين أن بإمكانكِ تلبيةَ احتياجاتك اليومية بالأشياء المصنوعة في أمريكا. هذا شيء من الماضي. إن الأساس الكامل للاقتصاد الأمريكي هو أشخاص يشترون حفنةً من الأشياء، والصين سهلت ذلك بالنسبة إليهم بجعْلها أرخص؛ فالناس يشترون بِنهمٍ كل شيءٍ تصنعه الصين.»

فتدخلتُ لتصحيح فهمها قائلة:

«أنا لا أقول إننا سنشتري المنتجاتِ الأمريكيةَ فقط، بل لن نشتريَ المنتجاتِ الصينيةَ وحسب.»

لم يبدُ أنها انتبهتْ لذلك.

واستطردَتْ: «في كل صيف، عندما أعود لمنزلي في سان دييجو، أشتري كثيرًا من الملابس واللعب للأطفال، وهل تعرفين ما أدفعه مقابل كل هذا؟ لا شيء تقريبًا. ما يقرب من الصفر. إنها رخيصة للغاية. هناك شيء ما خاطئ في كونها رخيصة جدًّا. وتقريبًا كل شيءٍ من الصين. ولكن في يومٍ من الأيام سوف تملُّ الصين من بيع الأشياء بسعرٍ زهيد، وحينها ستنهار الولايات المتحدة لأنها نقلت جميع مصانعها هناك.»

بدا أنها تدافع عن مقاطعة الصين، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع معرفة سبب جدالها معي. وهي لم تنتهِ بعد.

فأضافَتْ: «الصين لا تُقدِّم لكِ أي معروف. انتظري وحسب لتَرَي.»

أنا لا أكون مستعدةً عندما يأتيني شخص مباشرة، طالبًا الشجار. حتى مجموعة الأسئلة الأكثر اعتدالًا يمكن أن تصيبني بالحيرة. قبل بضع سنوات، اقترح صديق آخر أن نترك جميعًا وظائفنا، ونجمع أموالنا، ونشتريَ قطعة أرض في ولاية فيرمونت لإنشاء مزرعةٍ جماعية، تمتلك لجانًا للإشراف على زراعة الخضراوات، والصرف الصحي، وتنظيف الحظيرة. لم أعرف بِمَ أرد. وعندما فُتِحَ هذا الموضوع مرةً ثانية، أصابني الذعر. شعرت بقلقٍ من أننا قد ينتهي بنا الأمر بالعيش في مجمعٍ سكنيٍّ وسط الثلوج، محاصَرين في اجتماعاتٍ لا نهاية لها من الجرارات والماعز. طلبت من كيفن نُصحي بشأن كيفية الرد على هذه الفكرة.

قال مقترحًا: «يمكن أن تقولي له إننا لا نريد ذلك.»

لا أعرف كيف يصل كيفن إلى هذه الردود.

كنتُ تقريبًا خرقاءَ في هذا الصباح مثلما كنتُ عندما تعلق الأمر بالدفاع عن المقاطعة.

قلت لصديقتي: «أعتقد أنه ممكن. ليس أمرًا سهلًا، لكنه ممكن.»

وصلتْ صديقتي إلى قرار نهائي.

فقالت: «لن تنجحوا أبدًا.»

تركنا الأمر عند هذه النقطة، وقضينا الدقائق القليلة التالية في التحدُّث عن أطفالها، ثم أطفالي، ثم أحوال الطقس عندها، ثم عندي. بعد ذلك تمنَّتْ إحدانا للأخرى عامًا جديدًا سعيدًا مرةً أخرى، ثم أنهينا المكالمة.

كانت المحادثة مثبِّطة للعزيمة. كنت أتوقع دعمًا غير مشروط، وهو — رغم كل شيء — ما كنت قد منحتُها إياه على مدار ثلاثة عقودٍ من الصداقة. ربما لا ينبغي أن أتفاجأ؛

فقد كانت الأنثى المسيطِرة في علاقتنا منذ انتقالها إلى شارعنا خلال الصف الرابع وأرست سريعًا فكرة أنها أذكى فتاةٍ في الفصل وصاحبة أفضل شعرٍ بين الفتيات. كان دوري دائمًا هو الصديقة الحميمة الطيِّعة والمسلية، ولكن أشعر بأنه توجد أوقات، مثل الآن، يجب عليها فيها أن تتقبَّل الأمور وتمتنع عن تقديم آرائها الكثيرة والمتنوعة.

وجدت جانبًا مشرقًا في النقاش الحادِّ مع صديقتي؛ فقد أدخلتني في حالةٍ مزاجيةٍ لحفلةٍ في منزل صديقٍ آخر في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم؛ التي كانت عبارةً عن تجمُّع لمشاهدة مباراة «الروز بول» لفرق الجامعات على شاشة التليفزيون. لا أهتم كثيرًا بنتيجة المباراة؛ فلا رأيَ لي في التنافُس بين ميشيجان وتكساس. ولكني أتوق لدخول غرفةٍ مليئةٍ بالأصدقاء؛ مجموعة من الأصدقاء «الأمريكيين» الحقيقيين غير الناقدين يحملون البيرة في أيديهم وكرة القدم في عقولهم، ولم يمضوا العَقدَ الماضيَ في باريس ولم يُصبحوا متغطرسين ومتشككين. بعبارةٍ أخرى، لم يُصبحوا فرنسيي الطباع.

بدأَتِ الأمور تسير كما أريد سريعًا بعد أن وصلنا واستقرَرْنا في حفلة كرة القدم. من السهل الحصول على مديح من هذه المجموعة، التي تضم عددًا من زملائي في العمل وشركاء حياتهم. هذه هي طريقة انتزاعي منهم مساندتَهم للمقاطعة: أنتظر إعلانًا تجاريًّا، ثم أتوجَّه إلى شخصٍ منهم وأسأله، عَرَضًا، وباهتمامٍ مختلَق، إذا ما كان قد اتخذ قرارًا للسنة الجديدة. إنها معادلة مضمونة؛ فهي تنجح سواءٌ أكانوا متحمسين كثيرًا للتنمية الذاتية أم يمقتون هذه الفكرة، على غرار كيفن. وبعد أن انتهَوْا من الكلام، سألتهم قائلة: «والآن هل تريدون معرفة قراري؟» إنهم في وضعٍ لا يمكِّنهم من الرفض.

هنالك أخبرتُهم عن المقاطعة ثم استلقيتُ لتلقِّي مدحَهم. قالوا أشياءَ على غرار: «يا لها من فكرة عظيمة!» و«علينا أن نفعل شيئًا من هذا القبيل.» و«هنيئًا لك.» وعند نهاية الشوط الأول، كنت قد تمكنت من دفع كل من كانوا في الغرفة إلى التركيز على الصين، ومعركتنا الأُسرية التي تلوح في الأفق. وبدأ الجميع في التقاط الأشياء من الأرض والرفوف القريبة وقلبها للتحقُّق من الملصقات. وكما تبيَّن، كان منزل أصدقائنا مليئًا بالمنتجات الصينية مثل منزلنا، ولكن شخصًا ما اكتشف مفاجأة: كانت لعبة أفراس النهر الجائعة البلاستيكية مصنوعةً في الولايات المتحدة الأمريكية. كنت في حالةٍ مزاجيةٍ رائعةٍ وقتَ وصولنا إلى المنزل.

خلال الأيام القليلة التالية، استطعت إثارة موضوع المقاطعة في كل مكانٍ ذهبت إليه تقريبًا.

قالت جارة لنا تسكن في الناحية المقابلة من الشارع، وكنت أعرفها بالكاد: «سيُحب زوجي هذا؛ إنه يستشيط غضبًا عندما يرى أن كل شيءٍ من الصين.»

وقالت صديقة أخرى من خارج المدينة جاءت في زيارة لها: «هذا أمر رائع!» والتفتت إلى زوجها — الذي كان يبدو أكثر حذرًا بشأن احتمالات نجاحنا — بعرضٍ لجعْل الأمور مثيرةً للاهتمام، فسألته: «بكم تراهن على أنه يمكنهم النجاح في ذلك؟»

وبطبيعة الحال، لا يمكن توقُّع الموافقة من الجميع.

وسألتْني امرأة التقيت بها في ورشة عملٍ للكتابة: «ولا حتى الطعام الصيني؟»

فأجبت مفسرة: «لا بأس في الطعام الصيني، ما دام لا يأتي من الصين.»

سخر صديقي داني — بوجهٍ خالٍ من التعبيرات — عندما التقيته صدفةً في حفلة: «من أين أتتْ هذه الكراهية المفاجئة للصينيين؟» ثم أردف قائلًا: «يجب أن تكتبي هذه التجرِبة.»

يجب أن أكتب هذه التجرِبة؟

«يجب أن تكتبي هذه التجرِبة؛ فهناك أشياء مثيرة للاهتمام ستحدث.»

أشياء مثيرة للاهتمام ستحدث؟

فكرر قائلًا: «شيء ما سيحدث.»

داني يُبقي نصائحه لنفسه ولا يُطيق الحمقى. وهو لا يعبث؛ لذلك عندما يقول لك اكتب شيئًا ما، اكتبه. وعندما يخبرك بأن شيئًا ما سيحدث، فإن شيئًا ما سيحدث. تسارعتْ دقات قلبي وأنا أتفكَّر في كلامه.

«شيء ما سيحدث.»

لم يحدث شيء.

حسنًا، ليس بالضبط لا شيء، ولكن تقريبًا لا شيء. بعد بضعة أيامٍ من السنة الجديدة، قاد كيفن سيارته إلى متجر لوز لشراء مفك، فعاد إلى المنزل بمفكٍّ من تايوان. وذكر أنه كان يوجد خياران آخران، واحد من الصين وآخر مصنوع في الولايات المتحدة، إلا أن المفك الأمريكي لم يحتوِ على الميزات التي أرادها.

وقال: «فكرت أنه بما أن تايوان والصين ليستا على وفاق، فإنه لا بد وأن هذا هو القرار المناسب.»

حصلنا على نتائجَ متباينةٍ لاحقًا في هذا الأسبوع عندما قمنا برحلةٍ عائليةٍ إلى هوم ديبوت لكي يستطيع كيفن شراء خطاطيفَ معدنيةٍ لتعليق أدواته على قطعةٍ من الخشب

المثقَّب التي ثبَّتها على جدار ورشته. لم يكن لديه قط مكان لائق للقيام بأعمال النجارة، وكان منزلنا الجديد يضم غرفةً بجوار المرآب يمكنه أن يُنفذ فيها مشاريعه وينظم أدواته. لحقته أنا والأطفال في ممر الأدوات؛ حيث أعطاني كيسًا صغيرًا من الخطاطيف المعدنية.

وقال: «ليس مكتوبًا عليه أين صُنعت.»

قلبت العبوة في يدي. وبعد بضع ثوانٍ، وجدت ما لم يستطع كيفن إيجاده، حروف سوداء صغيرة تُشكِّل عبارة «صنع في الصين».

قلت: «آسفة.» وأعدت العبوة إليه.

توجَّه كيفن مرةً أخرى إلى الممر ليُلقيَ نظرةً أخرى، واصطحبتُ أنا الأطفال نحو قسم أدوات الحدائق لكي يتمكنوا من الجلوس على ماكينات جز العشب الشبيهة بالسيارات والتظاهر بأنهم يقودونها. عاد كيفن بعد بضع دقائق خالي الوفاض وقال:

«لا يوجد خطاطيف غير الخطاطيف الصينية. ولكني رأيت سُلمًا من المكسيك أريد أن أعود لأجله مرةً أخرى.»

لم يبدُ أن الإخفاق الأوَّلي بشأن الخطاطيف ثبَّط معنوياته.

فقال ونحن نتجه إلى السيارة: «ليست مشكلةً كبيرة. لا أرى أن تناثُر الأدوات في الأنحاء لمدة عامٍ آخر سوف يُسبِّب الكثير من المشكلات.»

حدث شيء آخر، أيضًا، أكثر دقةً ومن المستحيل أن تراه إلا إذا نظرت داخل ذهني. بدأت أحب نفسي، من أجل فكرة المقاطعة، حبًّا جمًّا. قد أبدو بالشكل نفسه المعتاد من الخارج، مبتهجةً ومتواضعةً كما دربتْني والدتي أن أكون، ولكن في الداخل، أشعر كأنني نجمةُ سينما شابة. بدأت أصدق دعايتي الخاصة. تكرر صدى مديح الأيام الماضية في أذني مثل أغنية لا أستطيع إخراجها من رأسي. ولم أرغب في إخراجها من رأسي. العبارة التي بقيتْ عالقةً في الحقيقة هناك هي العبارة التي قالتها إحدى معارفي ذات العيون الحالمة، والتي أمالت رأسها جانبًا وقالت لي: «أتمنى لو وُجد عدد أكبر من الأشخاص مثلك.» فكرت «نعم»، وأوصلت عبارتها إلى الاستنتاج المنطقي، كنا سنستطيع أن نُنقِذ العالم، أو على الأقل نُنقِذ عددًا قليلًا من الوظائف الأمريكية.

نظرًا لحالتي الذهنية، صُدمتُ إلى حدٍّ ما حين أدركتُ وأنا مستلقيةٌ على الأريكة غارقة في أحلام يقظةٍ عن نفسي أن فكرة المقاطعة ليست من وحيي الخاص تمامًا. صُعقتُ حين اكتشفتُ أن نواة فكرتي ملك لامرأة غريبة من الغرب الأوسط اسمها بيجي سميدلي.

قرأت عن السيدة سميدلي عشية الكريسماس في مقالة في الصفحة الأولى من صحيفة وول ستريت جورنال. جذب العنوان انتباهي: «حظْر الكريسماس: أمٌّ تحظر المنتجات

الصينية من هدايا العيد» (جوناثان إيج، ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٤). تتناول المقالة جهود السيدة سميدلي من أجل تجنُّب البضائع الصينية وملء قائمة أمنيات العيد الخاصة بأسرتها بالبضائع الأمريكية فقط.

عندما عدت إلى العمل بعد العطلة، بحثت بين كومة من الصحف القديمة وجلست لقراءة المقالة مرةً أخرى. كانت السيدة سميدلي وزوجها ديف قد سئما رؤية الوظائف الأمريكية يُعهد بها إلى الصين. ونقلت المقالة عنها قولها: «أعلم أنه عندما تصعد منبرًا مؤقتًا يعتقد الناس أنك فقدت عقلك. ولكن عليك حقًّا أن تبدأ من مكانٍ ما.» راحت السيدة سميدلي من مركزٍ تجاريٍّ إلى آخر بحثًا عن كرات بيسبول وأحذية وزجاجات مارتيني. فتحت الصناديق، وقارنت الملصقات، وحرقت الكثير من البنزين في الفترة التي تسبق الكريسماس. وفي كثيرٍ من الأحيان فشلت، منها خلال بحثها عن كرة بيسبول أمريكية الصنع. وثَمَّةَ انتصارات أخرى قصيرة الأجل؛ فقد وجدت لعبة «مونوبولي» أمريكية الصنع لكنها أعادتها عندما اكتشفت أنها تحتوي على حجرَي نردٍ صينيين. وانتهى بها الأمر بشراء بطاقة رسوم طريقٍ سريعٍ مدفوعةٍ سابقًا لزوجها، وهي الهدية التي جعلتني أجفل عندما قرأت عنها. أَسَرَتْني القصة، ولكن بعد أن قرأتُها بدا لي أني نسيت كل شيء عنها، حتى هذه اللحظة. اعتقدت أنني قد توصلت إلى فكرة مقاطعة الصين بنفسي تمامًا، ولكن في هذه اللحظة وأنا أقرأ القصةَ مرةً أخرى أدركتُ أن السيدة سميدلي هي التي أرشدتني إليها.

عندما عدتُ إلى المنزل من العمل، قررتُ أن أتصل بها للحصول على نصيحتها. من السهل تتبُّعها من خلال المعلومات، وخلال دقائق كنت أُحدثها على الهاتف. كانت تمتلك صوتًا ودودًا بنبرة أهل الغرب الأوسط المتميزة. لم تقل السيدة سميدلي كلماتٍ مطمئنةً عندما أخبرتُها بما أنا بصدده.

قالت: «سوف تواجهين تحديًا. لقد كان الأمر شاقًّا للغاية.»

ثم سردت على مسامعي قائمة طويلة من المآزق المحتمَلة؛ فبدأت قائمتها بأن دُمَى الحيوانات المحشوة والألعاب والأحذية وجميع أنواع الأشياء البلاستيكية سوف تسبب لي المتاعب. وستكون الأجهزة الإلكترونية منطقة محظورة في معظم الأوقات، وأستطيع أن أنسى أمر شراء أجهزة أي بود. وأخبرتني أن ألعاب الفيديو ستكون نطاقًا ميئوسًا منه.

أضافت: «كل لعبة فيديو مصنوعة في الصين.»

كنت أكتب بسرعةٍ في مفكرتي لمواكبتها.

بعد ذلك أثارت السيدة سميدلي سلسلةً من الأسئلة المحيرة:

«هل ترغبين في شراء السلع الأمريكية فقط؟ أم ستشترين المنتجات من الشركات التي نمارس معها التجارة الحرة والمفتوحة؟ وماذا عن المكونات الصينية؟ إذا كان يوجد شيء به أجزاء مصنوعة في الصين ولكن جُمِّع في مكانٍ آخر، فهل هذا محسوب؟»

وحذرتْني من المواقع التي تَدَّعي أنها تحتوي على منتجات أمريكية.

فكما قالت: «لا يمكن الاعتماد عليها. والمنشور التسويقي ليس أفضل بكثيرٍ في ذلك لأنكِ بحاجةٍ لفحص المنتجات بأُمِّ عينيكِ لمعرفة مكان صناعتها. وفي بعض الأحيان تكون العلبة فقط هي المطبوع عليها «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» والملصقات في الداخل تحمل عبارة «صنع في الصين». ولن يقبل الجميع أن تنظري داخل العلب. لقد كنتُ أخوض مشاجراتٍ مع بائعي المتاجر.»

شعرت بدوار بعدما أنهيتُ المكالمة الهاتفية مع السيدة سميدلي. مكونات صينية؟ لم أفكر في هذه التعقيدات. وما البلدان التي تتعامل معها الولايات المتحدة وَفق مبدأ التجارة الحرة والمفتوحة؟ ذكرت السويد واليابان، ولكني لا أستطيع أن أتذكر آخر مرةٍ رأيت فيها اسمَي هذين البلدين على ملصقات المنتجات داخل منزلنا. كنت معجبةً بجهود السيدة سميدلي من أجل شراء المنتجات الأمريكية فقط، ولكني أخشى ألا نكون قادرين على العيش وَفق هذا المعيار، ليس لمدة ١٢ شهرًا، على أي حال.

كان لدى السيدة سميدلي أيضًا عدد من العوامل التي تعمل لصالحها، بدءًا من تركيزها على الأعياد، وليس عامًا بأكمله. ثم زواجها من زوجها الراضي ديف، السعيد على ما يبدو بالحصول على بطاقة رسوم طريق سريع كتعبير عن الحب من زوجته. على النقيض من ذلك، يجب عليَّ السيطرة على زوجي الذي يمثل الحلقة الأضعف، والذي لن يقتنع ببطاقات رسوم الطريق السريع في الكريسماس، والذي لم أستطع أن أُضعِف معنوياته على مدار سنوات زواجنا الستة عشر. أحاول أن أتخيل وجه كيفن إذا تمكنت من استجماع شجاعتي واقتراح تعديل قرارنا إلى شراء المنتجات الأمريكية فقط.

جلست إلى مكتبي وحدقت في الفراغ، وتسارعت الأفكار في عقلي. ثم اتخذت قرارًا تنفيذيًّا. لن نقلق بشأن الأسواق الحرة والمفتوحة أو العلاقات التجارية الودية. لن نقلق حيال المكونات الصينية، ما لم يُعلَن ذلك على العلبة أو الملصق. لن أنقب في العلب في ممرات المتجر، ولكن إذا اكتشفت شيئًا صينيًّا داخل العلبة بعد وصولي للمنزل، فسوف آخذه

مرةً أخرى إلى المركز التجاري لإعادته؛ فالقرار الذي اتخذناه على الأريكة بعد الكريسماس بيومين سيكون صعبًا بما يكفي.

سوف نتجنَّب شيئًا واحدًا فقط: الملصقات التي تحمل عبارة «صنع في الصين».

كانت أول عقبة تواجهنا عندما قرَّر كيفن صُنع سيارة سباقٍ خشبيةٍ لِويس. عاد الأطفال من المدرسة إلى المنزل لقضاء إجازة يوم ذكرى ميلاد مارتن لوثر كينج الابن، وبدا وكأنه يوم جيد لمشروعٍ للأب وابنه. كان كيفن متشككًا حيال احتمالات نجاحه أثناء توجُّهه إلى الباب.

قال كيفن: «أعرف بالفعل أن العجلات البلاستيكية سوف تكون «مصنوعة في الصين؛ لذا سأصنع عجلاتٍ خشبيةً بدلًا من ذلك، مع مسمار تثبيت سوف أقطعه إلى قطع.»

كانت محطته الأولى متجر أدوات الأعمال الحرفية القريب من منزلنا، المتجر الكبير الذي أعلم من خبرتي الشخصية أنه مكدَّس من الأرض إلى السقف بالبضائع الصينية.

صِحْت قائلةً: «حظًّا سعيدًا.» كنت متأكدةً من أنه سوف يحتاج إلى الحظ السعيد.

أضاف ويس قائلًا: «تذكر يا أبي، لا شيء من الصين.» إنه لا يعرف ما الصين، لكنه انتبه إلى فكرة أنه ينبغي تجنُّبها.

عاد كيفن بعد حوالي ٣٠ دقيقة كاسفًا قليلًا ولكنه ما يزال مبتسمًا. وقدَّم لي وصفًا مفصلًا لرحلته شبه الناجحة. كما كان متوقَّعًا، كانت كل خياراته في متجر الأدوات الحرفية من المحظورات، بما في ذلك مسمار تثبيت صيني يُباع مقابل دولارٍ واحد، فقاد سيارته في المنطقة المجاورة لمتجر الأدوات المحلي، حيث عثر على مسمار تثبيت برازيلي الصنع بسعر ٥ دولارات وبعض المسامير في علبة مفتوحة أكَّد له البائع أنها مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وأضاف: «مع ذلك، بدا لي متسرعًا أكثر من اللازم في إخباري بذلك. أعتقد أنه كان يكذب لأنه أراد إتمام عملية البيع. أعتقد أنه كان كاذبًا.»

واختفى في ورشته.

عندما عاد بعد حوالي ساعة، كانت ابتسامتُه قد تلاشت. كان قد صنع سيارةً لِويس، لا يمكن إنكار ذلك، ولكن كان من غير المرجَّح الحصول على الثناء والتقدير. ألقى ويس نظرة واحدة وأشار إلى أن والده صنع له «سيارة تُشبه القلم الرصاص». أعتقد أنها أشبه بالعصا. لم يَبْدُ ويس متحمسًا كثيرًا، ولكن بعد أن جلسا معًا على أرضية المطبخ

وطليا السيارة بالأزرق، أصبح لها سحر قديم معين. ركَّب كيفن العجلات الخشبية بمفك البراغي، وبعد ذلك جثما ليُجرِّبا حركتها على الأرضية، فتحركت لبضع أقدام ثم مالت إلى أحد جانبَيها ثم توقفت. لم يقل ويس شيئًا. لم يكن عليه أن يقول شيئًا. ولم يعترض حتى عندما توجَّهت صوفي نحوها والتقطتها.

قالت: «كا.»

أحيانًا من الصعب إبهار صبيٍّ من أبناء القرن الحادي والعشرين، لا سيما دون مجموعةٍ من العجلات الصينية.

في اليوم التالي، انقسمت إحدى العجلات إلى نصفين. وعندما لم يكن أحد يراني، التقطت السيارة ووضعتها بعيدًا على الرف فوق جارور المطبخ الذي يحتوي على الأشياء القديمة التي لم نَعُد نستخدمها، وعلى حد علمي لا تزال السيارة قابعةً هناك إلى يومنا هذا.

ثمة إيجابيات في العيش دون منتجاتٍ صينية. في متجر تارجت — وفي ظهيرة أحد الأيام الممطرة — أعاد كيفن على مضضٍ وسادةً من تلك التي تُصدر أصواتًا تُشبه صوت خروج غازات البطن عند الجلوس عليها في قسم المنتجات التي تباع بـ «دولار واحد» بعد إلقاء نظرةٍ خاطفةٍ سريعةٍ على بطاقتها. وتجوَّل في بضعة أقسامٍ أخرى، ثم عاد خاليَ الوفاض. إن جزءًا كبيرًا من السوق الذي يمكن أن يوصف عادةً بالخردوات محظور علينا؛ فلا مزيد من الديناصورات البلاستيكية المسننة، ولا تماثيل عمال البناء التي يبلغ طولها بوصة، ولا ألعاب حوض الاستحمام ذات الألوان الزاهية. سيكون علينا عيش حياتنا بما هو موجود لدينا حاليًّا من هذه الأشياء.

ومع ذلك، توجد مخاطر لفرض حظرٍ على البضائع الصينية، بما في ذلك مشكلات اجتماعية.

اتصلتْ أخت زوجي وهي في حالةٍ من الفزع في إحدى الليالي بعد أن أدركتْ أن الصندوق الملفوف على نحوٍ مبهجٍ الذي تركتْه على عتبتنا بعد خضوع ويس لعمليةٍ جراحيةٍ بسيطةٍ يحتوي على لُعبتَي أطفالٍ عبارة عن دراجتين ناريتين صينيتَي الصُّنع من استيراد شركة ماتيل.

قالت: «لا أدري بماذا كنت أفكر. أنا آسفة للغاية. لم أتحقق من مصدرها. لقد نسيت تمامًا. هل تريدين مني إعادتها وإحضار شيءٍ آخر؟»

وزارتْنا جارتنا حاملةً علبةً من الحلوى متمنيةً له الشفاء العاجل.

وقالت بينما تعطيني العلبة: «إنها من نيو جيرسي. لقد تحققتُ من الملصق.»

شعرت بالهلع. كنت قد اغتررت بالاعتقاد أنني قد احتفظت لنفسي بفخري بما أنجزتُه. ها هو دليلٌ على عكس ذلك. لقد كنتُ مشغولة جدًّا في التفكير فيما كنا نفعله — وهو عدم شراء أشياء صينية — حتى إنني أغفلت ما يُقدِم عليه جميع مَن حولي، وهو شراء الأشياء الصينية. في أثناء وضع القواعد الأساسية لهذا العام، نسيت كل شيءٍ عن الهدايا؛ التي تُمثِّل خطَّ إمدادٍ حيويًّا يصبُّ المنتجات الصينية في منزلنا.

هذه المرة، كنت جاهزة.

قلت لأخت زوجي: «ليس عليك الانتباه إلى بطاقات البضائع؛ فتوقع أن تتجنبي شراء المنتجات الصينية لمجرد أننا نفعل ذلك سيكون أشبه بأن أُصبح نباتيةً وأتوقع من الجميع أن يفعلوا الشيء نفسه. إنه مشروعنا، وليس مشروعك. لن نُمليَ على شخصٍ آخر ما يجب عليه القيام به.»

فردتْ متسائلة: «ولكن ألا تريدين إبعاد المنتجات الصينية عن المنزل؟ دعيني أُعِد الدراجتين الناريتين. سوف أجد شيئًا آخر.»

يا لفمي الثرثار!

قلت: «لست بحاجةٍ إلى فعل أي شيءٍ على نحوٍ مختلف.»

سألَتْني: «هل أنتِ متأكدة؟» كررتُها حوالي خمس مرات. «يمكنني إعادتها، كما تعلمين، فهذه ليست مشكلة. لا أدري بماذا كنت أفكر.»

كررت طمأنتي لها، لكنها كانت مستمرة في الاعتذار بينما كنا نُنهي المكالمة الهاتفية.

قلت لجارتنا الشيء نفسه، لكنها لم تقتنع أيضًا.

ردت: «لا نريد أن نكون الأشخاص الذين أفسدوا تجرِبتك.»

لم أنتهِ من الإساءة إلى الناس؛ فبعد ذلك ببضعة أيام، وأنا أنتظر على المنضدة لدفع ثمن الغداء في مقهًى صغير، أشارت صاحبة المقهى نحو مجموعةٍ جديدةٍ معروضةٍ من المجوهرات ذات طابع احتفالات ماردي جرا. تلمَّستُ صفوف الأقراط والأساور. وأخرجتُ زوجًا من الأقراط من الصف لإلقاء نظرةٍ فاحصة. وقلبتُهما في يدي وحدَّقت في الملصق على دعامتهما الخلفية البلاستيكية.

سألتني المالكة: «أليسا رائعين؟»

أومأت موافقة، ثم فعلت شيئًا أحمق؛ شيئًا أعرف أني أعقَلُ من أن أفعله: فتحت فمي.

قلت بنبرة أسفٍ بينما أُعيدُ القرطين إلى الصف: «من المحزن للغاية أني لن أستطيع شراءهما. أتعلمين! هذا العام لن أشتريَ أي شيءٍ من الصين. هذا قراري للسنة الجديدة. ربما في العام المُقبِل سأشتري بعضها.»

ضيَّقتْ عينيها ناظرةً إليَّ.

«حسنًا، كيف سيبقى كل هؤلاء الأطفال الذين تبلغ أعمارهم ثلاث سنواتٍ في الصين على قيد الحياة إذا لم يساعدهم أمثالك؟»

لم أستطع أن أعرف هل تمزح أم لا. وقرَّرت أني لا أريد معرفة ذلك. ابتسمت لها ابتسامة الموناليزا للإشارة إلى أنني فهمت جوهر ما تقول، على الرغم من أنني لم أفهمه، ثم دفعت بخجلٍ ثمن الغداء ثم انسللت إلى طاولة. لم يخطر ببالي أن أصحاب المحلات التجارية الذين يُتاجِرون في الأشياء الصينية (وأفترض أن جميعهم كذلك) من المستبعَد أن يُقدِّروا مشروعي، بما ينطوي عليه من سيماء الاستعلاء. لا أستطيع تحمُّل أي لهجة استعلاءٍ ضمنية. اعتقدتُ أن لقائي بالسيدة سميدلي عالجني من افتتاني بذاتي، ولكن أرى الآن أن جذوة الغرور توهَّجتْ في داخلي.

تخيَّلت صوت أمي يهمس في أذني وأنا منحنية فوق طبقي قائلًا: «تعرفين ما يحدث قبل السقوط.»

لا تُذكِّريني يا أمي. إنه الكِبْر. لقد تسبَّب في تعثُّري مليون مرة.

«إذنْ ماذا ستفعلين حياله؟» كانت تريد أن تعرف.

سأتعلم إبقاء فمي مغلقًا. سوف أتجنَّب البضائع الصينية وسوف أحتفظ بحقيقة أنني أتجنَّب البضائع الصينية لنفسي. سوف أهتمُّ بشئوني بهدوءٍ كأي مواطن محترم، ولن أُغْضِب أي شخصٍ بهذا الأمر. سوف أُطبِق شفتيَّ، وأُبقيهما هكذا حتى الأول من يناير المقبل.

يقبع متجر المجوهرات الذي زرناه عند غروب الشمس في يوم جمعةٍ ممطرٍ في مركزٍ للتسوق مُطلٌّ على طريقٍ سريع مزدحم على مشارف المدينة. كان من يتولَّى إدارة المتجر فريقًا من زوجٍ وزوجةٍ من المهاجرين الفيتناميين. وكان المتجر يبيع مجوهراتٍ مليئةً بالتفاصيل الدقيقة، كثير منها مَحَليُّ الصُّنع، ونُسَخ مقلدة من محافظ نقود جوتشي، ودراجات نارية مصغَّرة أعتقد أنه من غير القانوني قيادتها في الشوارع. لم يكن متجرَ مجوهراتٍ تحديدًا؛

إذ كان منفذًا لبيع الذهب وحقائب اليد والدراجات النارية. كانت زيارتي الأولى إلى المكان، وقد أحببته على الفور.

لم نَكُنْ في السوق لشراء المجوهرات أو المحافظ أو أشكال غير تقليدية من وسائل النقل؛ إنما كنا في مهمةٍ مملةٍ لاستبدال بطاريات ثلاث ساعات يد. قلت مرحبًا لصاحب المتجر، ثم أعطيته الساعات وسألته هل يمكن أن يستبدل البطاريات، فاختفى في الغرفة الخلفية.

ثم سألني عندما عاد بعد دقائق قليلة: «هل تحتاجين إلى حزام ساعة جديد؟» كان يحمل ساعتي، التي انقسم حزامها الجلدي قسمين. وأشار نحو صندوق عرض في واجهة المحل وتوجَّهت لإلقاء نظرة، ففتح الصندوق حتى أستطيع أن أرى على نحوٍ أفضل، فالتقطتُ حزامًا بديلًا لكن حينها مرَّ كيفن بجانبي وتنحنح.

فسألني: «هل نظرتِ إلى مكان صُنْعها؟»

نظرت إليه أنا وصاحب المتجر نظرةً فارغة، ثم تجهَّمت وأدرت الصندوق الذي يحتوي الحزام. أجفلت حين قرأت عبارة «صنع في الصين». ثم نظرت إلى صاحب المتجر، الذي ابتسم في وجهي بعينين حنونتين وقلقتين. تجمَّدتُ في مكاني، ومرتْ بضع ثوانٍ. بعد ذلك قدَّمت اعترافًا وأخبرت صاحب المتجر بأمر المقاطعة. كنا قد وصلنا إلى مرحلة متأخرة من عملية البيع، ولم أستطع أن أفكر في أي شيءٍ آخر أفعله؛ فبدأ في الضحك.

وقال: «نعم، أنتِ مُحِقَّة، كل شيءٍ يأتي من الصين.» ثم أخبرَنا كيف أنه لاحظ أن فيتنام أيضًا مشبَعة بالسلع الصينية.

وقال مضيفًا: «عندما أعود إلى وطني، تكون في كل مكانٍ أنظر إليه؛ الصين، الصين، الصين.»

دفعنا ثمن البطاريات وخرجنا نحو المطر. وبينما كنا نشقُّ طريقنا عبر موقف السيارات المبتل، اعتذر كيفن عن تدخُّله.

قال: «كل ما في الأمر أنني اعتقدت أنه من الأفضل أن تتحقَّقي من الحزام.»

فرددت قائلة: «هل تمزح؟ أنا سعيدة لأنك ذكَّرتَني. كان الأمر سيصبح أسوأ لو اضْطُرِرْنا إلى قيادة السيارة في وقتٍ لاحق وشرح السبب في إعادته.»

جلسنا في السيارة وخرج كيفن من منطقة انتظار السيارات. ثم فكَّرت في شيء آخر، وسألته: «هل صادف أن سألت عن مصدر بطاريات الساعات؟»

هز كيفن رأسه نفيًا.

واستطرد قائلًا: «فكرت في ذلك، ولكني لم أُرِدْ أن أبدوَ أحمق.»

فكَّرت أن ذلك لا يهم. سوف أتصل بالمتجر في وقتٍ لاحق، بعد أن أتوصَّل إلى طريقةٍ لا تبدو سخيفةً للسؤال عن أصل البطاريات. ربما يتطلب ذلك جهدًا، ولكنني سوف أتوصَّل إلى شيء. وربما نكون محظوظين؛ فربما تكون من بولندا أو المكسيك أو حتى أمريكا. قلت في نفسي إن البطاريات تبدو أمريكيةً مثلما تبدو ألعاب الفيديو صينية. لا داعي للقلق. سوف أستكشف هذا الأمر لاحقًا.

بينما أسرعَ كيفن في القيادة وسط حركة السير، ألقيتُ نظرةً على جانب وجهه. كان وسيمًا كنجمٍ سينمائيٍّ ومخلصًا لمقاطعة الصين. ماذا أطلب أكثر من ذلك؟ كانت قسوةً مني أن أخلع عليه لقب الحلقة الأضعف، حتى لو احتفظتُ بذلك لنفسي.

جلست في مقعدي وحوَّلت ناظرَيَّ نحو الشوارع اللامعة تحت المطر. لم أكن أعرف سبب قلقي البالغ ذاك. بدت مقاطعة الصين حدثًا جللًا قبل أن نبدأها، ولكنها ليست مستحيلة، حقًّا: تتفحَّص الملصقات، وتقول لا، ثم شكرًا لك، فيبتسم الجميع ويومئون لك. انتهى شهر واحد، وبقي أحدَ عشَرَ شهرًا.

يا له من أمرٍ يسير.

الفصل الثاني

الحذاء الصيني

بدأت اليوم بسؤال أخرق:

«ماذا يحدث هنا بحقِّ السماء؟»

إنها السابعة صباحًا من أحد أيام الإثنين وأنا جاثية أمام الأريكة محاوِلةً حشر قدم ابني ويس في حذائه الرياضي بينما يشاهد «كليفورد الكلب الأحمر الكبير» بمظهر الموتى الأحياء مفتوحي الفم قليلًا. كنا متأخِّرين بسبب سلسلةٍ متوقَّعةٍ من الأحداث، بما في ذلك حاجتي إلى مطاردة الطفلة عبر العديد من الغرف قبل أن أتمكَّن من إمساكها وإلباسها جوربًا طويلًا وفستانًا. لم أُكلِّف نفسي عناء إلباسها حذاءها؛ لأنني أعرف أنها سوف تخلعه في السيارة أثناء الرحلة إلى المدرسة. كان إدخال قدمَيْ ويس في حذائه الرياضي هو عقبتي الأخيرةَ قبل الاندفاع نحو الباب.

كان سؤالي أحمق لأنني أعرف بالضبط ما يحدث. لا يوجد لغز هنا. لقد نَمَتْ قدم ويس وكبرتْ للغاية على حذائه.

انتهيت من إقحام قدمه في حذائه وحاولت تحديد نهاية أصابع قدميه بإبهامي. كان يوجد حوالي نصف بوصة من المساحة الخالية عندما تحقَّقت في المرة الأخيرة، التي يبدو أنها منذ بضعة أسابيع فقط. وحتى في يومِ أَمْسِ لم يكن لديَّ أي مشكلة في إلباسه حذاءه. مع ذلك، هذا الصباح لم يكن هناك أكثر من مجرد ثُمُنِ بوصة فارغ بين إصبع قدمه الكبيرة ونهاية حذائه، حتى عندما يكون جالسًا. واستنتجتُ أنه بحلول وقت الغداء، وبعد تناول وجبة خفيفة وثلاث ساعات أخرى من النمو، سوف تضغط أصابع قدميه على طرف حذائه الذي ألبستُه إياه بالقوة. ثم تبدأ حينها عملية تشوُّه القدم.

اضطربتْ أمعائي خوفًا. لم أكن أتوقَّع حدوث هذا، ليس قريبًا على أي حال. اعتقدت أن يوم الانتقام بإحكام قبضة الصين على أقدام أطفال أمريكا ما زالت على بُعد أشهر. تنهَّدت وأقحمت قدم ويس الأخرى بالقوة في فردة الحذاء المتبقية. ليس لديَّ أي خيار آخر؛ فخزانة أحذيته تُختزَل بالكامل في هذا الزوج الواحد من أحذية التنس الصينية البيضاء.

طرحت سؤالًا أحمق آخر وأنا أربط رباط الحذاء.

«متى حدث هذا؟»

كان ويس سارحًا في وهج التليفزيون الأزرق ولم يَرُد. دخل كيفن قادمًا من المطبخ حاملًا فنجانًا من القهوة وجلس على الأريكة بين الأطفال.

قلت بصوتٍ حاد: «حذاء ويس أصبح صغيرًا جدًّا.»

أومأ كيفن موافقًا وصرَّح بما هو بديهي.

فقال: «حذاء جديد.» ثم التفتَ إلى التليفزيون.

تمنَّيتُ لو رأيت لمحةً من شعورٍ بالذعر من جانب كيفن، ولكن كوني لم أرَها ليس أمرًا مُستغرَبًا؛ فالعجز عن الشعور بالذعر أحد صفات كيفن الجميلة؛ فهو يَثبُت مكانه أمام تهديدات الكلاب. وذات مرةٍ حاصره ثلاثةٌ من قُطَّاع الطرق في مركز تسوُّق مهجور وحاولوا سرقة ساعته، فتحدَّث إليهم بلامبالاةٍ مخبرًا إياهم أنها لا تساوي الكثير، وهو موقف دفاعي ميزته أنه حقيقي. ثم هناك تلك المرة التي هاجمنا فيها كبش الجبال الصخرية الذي ظهر من العدم بينما كنا نتنزَّه مشيًا على الأقدام وحيدَيْن في جبال روكي. قفز الكبش من بين الأشجار مباشرةً نحونا، ثم توقَّف على بُعد بضع أقدام. راحت عيناه الصفراوان تُقيِّمان كيفن، الذي أمسك بعصًا غليظةٍ من الأرض واتخذ وضعية كونج فو، ممسكًا العصا بكلتا يديه مع ثني ركبتيه. وفجأة، ظهرتْ مجموعة من راكبي الدرجات النارية في المناطق الجبلية على الدرب الممتد أسفلنا، ففَزِع الكبش وانسحب منسلًّا مرةً أخرى نحو غطاء الأشجار.

لا أدَّعي أنني شخص بالغ الشجاعة — ففي حين واجه كيفن الكبش كنت أحاول دون جدوى تسلُّق شجرة صنوبر — وأعترف أن الشجاعة سمة رائعة. ولكني أؤكِّد أيضًا أنه توجد مواقف يكون الذعر فيها ردَّ فعل مقبولًا، مثل هذا الموقف، هنا في غرفة معيشتنا، عندما اكتشفتُ أن قدم ويس على وشك أن تتحوَّل إلى قطعة من اللحم ليست ملائمةً إلا لقضاء حياة مترهلة على الأريكة مع مشاهدة التليفزيون وطلب كوبٍ من الشوكولاتة

باللبن من حينٍ لآخر. وأقول إن الذعر ردُّ فعل في محله لأن علاج هذا التطوُّر المروِّع الذي حدث في ذلك الصباح هو حذاء رياضي جديد. وصادف أنني أعلم — على النقيض من كيفن الهادئ — أنه في العصر الحالي، أحذية الأطفال الرياضية دائمًا تقريبًا، وربما دائمًا بالمطلق، تأتي من الصين.

أصدرتُ إعلانًا متسرعًا:

«سوف أجد لِويس حذاءً رياضيًّا جديدًا؛ حذاءً رياضيًّا جديدًا غير صيني. وسوف أجده «اليوم».»

كان وقت ما بعد الظهيرة من ذلك اليوم سيئًا. توقَّفتُ عن العمل عند الظهر وتوجَّهت إلى مركز التسوُّق المتواضع الذي اشترينا منه كثيرًا من أحذية الأطفال، وجميعها أحذية صينية.

وقفتُ بعصبيةٍ عند سلسلة متاجر أحذية الأطفال، وقسم الأحذية في اثنين من المتاجر الهادئة على نحوٍ مخيف، ومتجر أحذيةٍ يبيع بالخصم حيث تصل صفوف الأحذية التي تباع بسعر ٩ دولارات تقريبًا إلى السقف. ألقيت نظراتٍ على البطاقات داخل ما لا يقل عن ٥٠ زوجًا من أحذية الأولاد الصينية، بما في ذلك الأحذية التي تحمل رسوماتٍ تُصوِّر شخصيات فيلم شريك، وأحذية رياضية ذات أضواء وامضة في النعل من شأنها أن تجعل ويس يرقص فرحًا. يوجد مفاجأة في هذا المزيج، زوج من أحذية التنس مصنوع في إندونيسيا، ولكن ليس هناك واحد بمقاس ويس. استسلمتُ في بقية هذا اليوم عندما أدركتُ أني أرى نُسَخًا مختلفة من الأحذية الصينية نفسها في كل مكانٍ أذهب إليه.

توجَّهت إلى السيارة مكتئبةً وحائرةً بشأن محاولاتي التالية. شعرت أن خطواتي غير منتظمة على نحوٍ غريب بينما كان حذائي ينقر فوق الأرضية المصقولة للممر الرئيسي الكبير في المركز التجاري. كنت متوترةً وقلقة، ليس على قدم ويس وحسب، ولكن أيضًا حيال المشكلات الكبرى التي تتضمَّن الأحذية؛ فبدا لي أنه من الخطير تسليم قطاع الأحذية في البلاد إلى الصين، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أُحدِّد بالضبط سبب حدوث هذا. بالتأكيد لم يبدُ زملائي المتسوقون قلقين، فقد راقبتهم سرًّا بينما أتوجَّه مسرعةً نحو المخرج؛ فبدَوْا راضِينَ مثل أبقارٍ ترعى في العشب. كان معظمهم يحمل أكياسًا بلاستيكية مليئة بالبضائع؛ التي كان الكثير منها صينيًّا بلا شك. لم يبدُ أنهم قلقون بشأن استحواذ الصين على قطاع صناعة الأحذية في البلاد، أو أي قطاعٍ آخر، أو ربما حتى على العالم.

أثناء عودتي إلى المنزل مررتُ بمركز تسوُّق صغير راقٍ كنت قد اشتريت منه حذاءً لِويس قبل سنوات. أوضحَتِ المرأة التي كانت تُدير المكان من لحظة رؤيتها لنا أن لديها شكوكًا أن بمقدورنا شراء الأحذية الألمانية والفرنسية ذات الأسعار المرتفعة إلى حد السفه في متجرها. انتهى بِيَ الأمر بإنفاق ٦٥ دولارًا مقابل حذاء طفل لإثبات أن تلك المرأة لن تنتصر عليَّ، وهذا بالضبط هو ما فَعَلْتُه. بعد ذلك بوقتٍ طويل، عندما فكرت في النظر في البطاقة الملصقة داخل الحذاء، اكتشفت أنه كان مصنوعًا في إندونيسيا. كان ألمانيًّا بالاسم فقط. بعد تلك الحادثة، أسقطتُ من اعتباري أحذية الأطفال؛ ومن ثَمَّ لم يرتدوا سوى الأحذية الصينية.

كانت ذكرى زيارتي لمتجر الأحذية الفاخرة ذاك هي الجانب المشرق الوحيد خلال ذلك الوقت من بعد الظهيرة. وأنا أمرُّ به، ألقيت نظرةً سريعة من نافذة السيارة ورأيت المتجر مظلمًا، متوقفًا عن العمل، وقد اختفت علامته المبهجة للأبد. كانت والدتي تُخبرني أن التهلُّل لمصائب الآخرين ليس أمرًا لطيفًا، وهي نفسها لا تنغمس أبدًا في هذه المتعة الخاصة، ولكني أحيانًا لا أستطيع أن أمنع نفسي. تخيَّلت صورة ثلاثية الأبعاد للمرأة بجانبي في السيارة، وقلت لها: «نلتِ ما تستحقين!»

اكتشفتُ تمردًا متزايدًا حول لعب الأطفال الصينية بعد بضع ليالٍ، بعد العشاء. دخلت غرفة المعيشة ووجدت ويس يجلس بائسًا على الأريكة، عاقدًا ذراعيه وماطًّا شفتيه. وكان يتوق إلى الشجار. ربما بدأتْ قدماه تؤلمانِه، أو الأسوأ أنه شرع في تكوير أصابع قدمَيه.

سمعت كيفن يقول لِويس: «سيكون عليك محادثة والدتك عن ذلك.» لم أُحبَّ وقع ذلك. جلست على مسند الأريكة ومرَّرْتُ أصابعي بين شعر ويس.

وسألته: «ما الخطب؟»

هز رأسه مُبعِدَه عن أصابعي والتفتَ محدقًا في وجهي.

ثم قال: «أريد البدء في شراء الأشياء الصينية. أريد لعبة «طبيب أسنان التمساح» (أليجيتور دينتيست)، لكن أبي يقول إنها صينية، ولا يمكنني الحصول عليها.»

تتضمَّن لعبة طبيب أسنان التمساح الضغط باستمرارٍ على أسنان تمساحٍ بلاستيكي، سنٍّ واحدة في كل مرة، حتى يغلق فمه فجأة. والفكرة هي إخراج أصابعك من الفم قبل أن تقضمها الأسنان. إن مَن يلعبها مرةً يُدمِن لعبها؛ فقد لعبتُ اثنتي عشْرةَ جولةً منها

بنفسي قبل أسابيع في منزل أحد الأصدقاء. وتحقَّقت من الجانب السفلي للتمساح، من أجل الاحتمالية الضعيفة بأن تكون من مكانٍ غير الصين. لكنها كانت صينية.

لمحت بطرف عيني كيفن يراقبني. وشعرت بالتحدِّي في نظرته. إنه يتوق لرؤية كيف سأتعامل مع هذا، أو ربما لا أتعامل معه. التفتُّ للنظر في عينَيْ ويس، اللتين تورَّمتا وانتفختا منذ العشاء.

ثم أخبرته: «هذا العام يمكننا شراء أشياء ألمانية وأشياء أمريكية وأشياء يابانية، وأشياء من أماكن أخرى من جميع أنحاء العالم، ولكن لا يمكننا شراء أشياء صينية. وبما أن لعبة طبيب أسنان التمساح صينية، فلن يمكننا الحصول عليها هذا العام. يمكننا الحصول عليها في العام المقبل، إذا كنت تُحسِن التصرُّف.»

فرد متسائلًا: «متى يحل العام المقبل؟»

قلت: «بعد وقتٍ طويلٍ من الآن.»

«ولكن ماذا نفعل الآن؟»

قلت «ننتظر»، ثم أضفت: «ونلعب باللعب التي لدينا بالفعل. لم يمرَّ على الكريسماس سوى ستة أسابيع فحسب، وخزانة ألعابك ممتلئة عن آخرها.»

أشرت إلى منجم ألعاب الليجو والسيارات والحيوانات البلاستيكية الحادة المبعثَرة على أرضية غرفة المعيشة. التفتَ ويس لرؤية المنظر، ثم نظر مرةً أخرى إليَّ كما لو أنه لم يرَ شيئًا. لم يُعجِبه جوابي ولكنه لم يجد ما يقوله.

كان هذا سهلًا، على ما أعتقد. كان سهلًا للغاية. وفي لمحةٍ من الوضوح عرَفتُ السبب. كان الوقت مبكرًا للغاية بالنسبة إلى ويس أيضًا، فلم يكن قد وضع برنامجه للتمرد المضاد المؤيِّد للصين بالكامل. سألته مُغيِّرةً للموضوع:

«هل تريد أن تذهب إلى حديقة الحيوان غدًا؟»

فابتسم وهز رأسه موافقًا. إن كيفن ما يزال يراقبني. كنت على شفا الهاوية، ولكني تفاديت حرب الألعاب لبعض الوقت.

ذهبنا إلى حديقة الحيوان يوم السبت ثم إلى السيرك يوم الأحد.

قال ويس مشيرًا إلى مجموعةٍ من العِصِيِّ المضيئة والقُبعات والقمصان المزخرفة: «انظري إليها يا أمي.» كانت عيناه تحملان نظرةً حالمة. «سيف.»

بقيت خمس دقائق حتى وقت العرض، وكان علينا أن نعثر على القسم المنشود. لقد اشتريت تذكرتين للسيرك حتى أستطيع أنا وَويس مشاهدة مشهد الفِيَلة والمهرِّجين

وسيارة جيب تسير فوق رجلٍ قويٍّ اسمه هرقل، لكن الأدوات الصينية التافهة انتزعت اهتمام ويس حتى قبل أن ننجح في الوصول إلى الساحة للبحث عن مقعدَينا. تزاحمت معنا مجموعة من الأطفال الشرسين الذين يتناولون كمياتٍ مفرطةً من السكريات، ويحمل أكثرهم هدايا تذكارية متوهجة طنَّانة وأقماعًا وردية مجعَّدة من حلوى غَزْل البنات. أشار صوت قادم من نظام الاتصال الداخلي للحشد بدخول الساحة والجلوس في أماكنهم لكي يبدأ العرض.

سألني ويس: «من فضلك، هل يمكنني الحصول عليه يا أمي؟» وشدَّ ذراعي بيدٍ واحدة، وأشار إلى الجزء الخلفي من مكان بيع الهدايا التذكارية باليد الأخرى. «هل رأيتِه؟ إنه سيف. سيف حقيقي. من فضلك، من فضلك، من فضلك، من فضلك؟»

تتبَّعت إصبع ويس حتى رأيت سيفًا أخضر زاهيًا في غمدٍ بلاستيكي. ثَمَّةَ ورقة مكتوبة بخط اليد ملصقة على الرف تقول ١٥ دولارًا.

لا تفهموني خطأً. إنني متعاطفة مع مشاعر الصبي تجاه السيف، خاصةً السيف الذي يأتي في غمدٍ خاصٍّ به. وخصوصًا عندما يكون الصبي المليء بالتوق مرتديًا حذاءً صغيرًا للغاية. ولكني لن أدفع ١٥ دولارًا مقابل قطعة واهية من البلاستيك الأخضر، ولست بحاجةٍ لرفع السيف عن الرف والتحقُّق منه تحت ضوء مصابيح الفلورسنت لكي أعرف مصدره؛ فأنا لست طفلةً ساذجة؛ فهذا السيف يكاد ينطق بأنه صيني. مع ذلك، أنا الشخص الذي ينزعج من الأشياء المصنوعة في الصين، وليس ويس. ويس لم يوافق قطُّ على دعم المقاطعة. إنه لا يعرف أصلًا ما المقاطعة. ولا حتى يعرف ما الصين.

أحتاج إلى التفكير بسرعة. جثمتُ إلى مستوى عينَي ويس من أجل التفاوض معه.

«لا أستطيع أن أشتريَ لك السيف لأنني هذا العام لا أشتري الأشياء الصينية. ولكن إذا كنت تريده حقًّا، فسوف أشتريه ويمكنك أن تدفع لي ثمنه عندما نصل إلى المنزل، من مال عيد ميلادك؛ وبهذه الطريقة ستكون أنت مَن اشتريتَه، وليس أنا.»

عبس ويس. لم يكن متأكدًا من أنه يحب سير الحديث، خصوصًا عندما أضفت أن حصَّالته ستكون فارغةً بعد صفقتنا.

أخبرته قائلة: «لديك ستة عشر دولارًا في حصالتك، وثمن السيف خمسة عشر بالإضافة إلى الضرائب، وهذا يعني أنك ستظل بلا أموال حتى عيد ميلادك القادم، على الأقل.»

شاهدت ويس يضعف تحت وابل الحقائق المالية القاسية الفاترة. ثم فكّرت في قدميه المسكينتين المحشورتين في حذاء التنس، وقرَّرتُ أنه ربما ليس من العدل أن أضع مثل

هذا القرار الكبير على كاهل هذا الفتى الصغير؛ لذلك جمَّلت الصفقة. في الواقع، جعلتُها لا تُقاوَم. قلت له إنني سوف أشتري له لعبة من مكانٍ آخر، أي لعبة من أي مكانٍ غير الصين، إذا تخلى عن السيف الصيني.

ثم أضفت: «وحينها يمكنك الاحتفاظ بمالك.»

ابتهج وجهه؛ فهو أيضًا ليس طفلًا غِرًّا. ألقى نظرة سريعة أخرى على السيف، ولكن كان باستطاعتي أن أراه ينسلُّ من قبضته. كان يفكر بالفعل في شيءٍ آخر، فأمسكت يده وأسرعنا الخُطَى نحو الساحة، بالضبط في الوقت الذي خفتت فيه الأنوار وبدأ عزف الموسيقى.

في اليوم التالي، ناداني صوت طفلةٍ باسمي وأنا أتمشَّى عبْر حَيِّنَا بعد العشاء. بحثت عن مصدره فرأيت ابنة جيراننا البالغة من العمر ١٢ عامًا تُلوِّح لي من فوق سياج فناء منزلها.

قالت لي عندما اقتربتُ مسافةً أستطيع السماع منها: «ذهب والدي إلى وول مارت اليوم.» تحدثتْ بأنفاسٍ مسموعة ولهجةٍ تآمرية وبسعادةٍ غامرة بالوشاية بالكبار. «هل تعرفين ماذا فعل هناك؟ اشترى حذاءً لآيك.»

توقفت عن الحديث لبرهة مُحدِثَة تأثيرًا تشويقيًّا.

ثم أسرَّت إليَّ بصوت هامس لكنه مسموع: «من الصين.»

ظهر والدها من وسط الظلام قائلًا مرحبًا، في الوقت الذي سمع فيه آخر ما قالته لي. وبدا عليه الخجل، واعتذر قبل أن تُتاح لي فرصة لأقول له إنه لا حاجة به للاعتذار، لا لي ولا لأي شخصٍ آخر.

ثم قال: «لا أشعر بالرضا عن ذلك. ولكنها الحقيقة.»

لدى جارنا رهن عقاري وثلاثة أطفال. إنه رجل قوي ذو ماضٍ عصيب، وأستاذ رسم يرسم صورًا جميلة للطيور. وعلى غرار كيفن، يستمتع بالمحادثة التي نتفق فيها جميعًا على أن الأمة تتجه مباشرةً نحو وقتٍ عصيب، ويزيد سرعة ذلك إدمان الشراء من وول مارت على المستوى الوطني. كان قد منحني موافقته مشجعًا عندما سمع عن مقاطعة الصين، ثم أخبرني أنه سيتخلى عن وول مارت طوال هذا العام. والآن يعترف لي بكل شيءٍ عن استسلامه للنداءات المغرية من «الأسعار المنخفضة» لأنه لم يستطع تحمُّل شراء حذاء الجري البالغ ثمنه ٧٠ دولارًا الذي وجده في متجر الأدوات الرياضية المَحلِّي في نهاية الشارع.

«لم أستطع أن أفعل ذلك وحسب، ليس لطفل يبلغ من العمر ثماني سنوات؛ لذلك قدت سيارتي حتى وول مارت واشتريت حذاءً من هناك، والآن أشعر بالسوء.»

كان قانطًا، كما لو أنه ارتكب فعلًا رهيبًا. لم أستطع أن أفكر في شيءٍ أقوله؛ لذا وقفت هناك، على أمل أن تنشقَّ الأرض وتبلعني، أو أن أستطيع التفكير على الأقل في شيءٍ مضحكٍ أقوله لكسر التوتر.

واستطرد قائلًا: «اعتقدت فقط أنه يجب أن تعرفي.» ثم التفَّ متقهقرًا عائدًا نحو المنزل.

نظرتْ إليه ابنته، بانتصار. وقفتُ هناك لبضع لحظاتٍ في الشفق، وشعرت بالذُّعر من فكرة أنني الآن أصبحت مثل كاهن الاعتراف بالنسبة إلى جاري. لاحقًا في تلك الليلة، طرأ على ذهني أنه كان بإمكاني أن أعترف بذنبي. كان ينبغي أن أناديَه في الظلام وأخبرَه أني أُشوِّه القدمين الغضَّتين لابني البكر بحذاءٍ أصغر من قدمه؛ لذا مَن أكون أنا لأطلق أحكامًا على متسوِّقي وول مارت؟

استغرق إيجاد حذاءٍ لِويس أسبوعين لكنني وجدته في النهاية. كان للحذاء مظهر فضائي؛ فقد حَلَّت الأحزمة وشريط الفيلكرو اللاصق محل الأربطة، وكان مصنوعًا في إيطاليا. ووصل السعر بعد مصاريف الشحن ٦٨ دولارًا، وهو ما يعادل دخل عائلة في أفغانستان في شهر. وهنا تكمن المشكلة.

إني عرضة للإصابة بنوبات التخشُّب الموتي الاستهلاكي؛ فبرنامجٌ تليفزيونيٌّ عن أفريقيا مُسبِّب للاكتئاب، أو قصةٌ في صحيفة عن الأطفال الذين يموتون جوعًا؛ يمكنهما إيقاف إنفاقي الطائش لأسابيع. تَفكَّرْ في تأثير خريطة ناشونال جيوجرافيك لأفغانستان؛ الخريطة مغطاة بنقاط وخطوط مموَّجة، مثل أي خريطة أخرى، وتشمل مربعاتٍ صغيرةً تحتوي على تفاصيل عن شعب أفغانستان وجيرانها. أول مرة ألقيت فيها نظرة على الخريطة قضيت الجزء الأكبر من تلك الساعة في قراءة وإعادة قراءة هذه المعلومات في تلك المربعات. كانت مجموعة مركَّزة من البؤس البشري الذي ظل عالقًا في رأسي منذ ذلك الحين، ويظهر في معظم الأوقات غير المناسبة.

أستطيع أن أخبرك، على سبيل المثال، أن متوسط عمر الأفغاني يصل إلى ٤٦ عامًا، في حين أن الطاجاكستانيين في الشمال يبلغ متوسط عمرهم ٦٤ عامًا. وفقط ٣ من كل ١٠ أفغانيين يستطيعون القراءة، مقارنةً بمحبي القراءة في طاجاكستان؛ حيث ٩٨ بالمائة من

الناس يعرفون القراءة والكتابة. ولكن أرقام الفقر هي التي تُوقِفني حقًّا. يبلغ متوسط دخل الفرد في طاجاكستان ١١٠٠ دولار في السنة، أما في أفغانستان، فإن متوسط دخل المواطن العادي يبلغ ٨٠٠ دولار فقط. وقد اكتسبتُ عادةً غريبة؛ عندما أواجه شيئًا مثيرًا للاهتمام في منشور تسويقي أو واجهة متجر، أُجري مقارنة سريعة لسعره مع نصيب الفرد من الدخل في أفغانستان. سروال من الجينز بقيمة ٦٠ دولارًا؟ ما يقرب من راتب شهري في أفغانستان. ولحاف بمبلغ ١٥٠ دولارًا؟ راتب شهرين. وماذا عن الشطيرة التي طلبتها للتوِّ لوجبة الغداء؟ أُفضِّل عدم التفكير في ذلك. تُعَدُّ عادتي رائعة بالنسبة إلى مهاراتي الحسابية ولكنها تصيبني بالشلل في المركز التجاري. أجد أنني أفقد شهيتي لإشباع الوحش المادي الشرس القابع في داخلي.

وبطبيعة الحال، ألوم أمي.

شرحت لإحدى صديقاتي ذات ليلة بينما كنا نتناول مشروبًا: «ذلك لأنها تتحمَّس دائمًا للفقراء. وهذا جعلني ضعيفة أمام المربعات الصغيرة الموجودة على الخريطة. أشعر بأنني مُدلَّلة للغاية ومنغمسة في الملذات، حتى إنني لا أستطيع أن أحمل نفسي على شراء لحاف. إننا حقًّا في حاجة إلى لحاف؛ فغرفة النوم تبدو مروِّعة.»

تفحصَّتْني صديقتي بموضوعية تجدر بطبيبة من فوق كأس النبيذ. عرَفتُ من عينيها ما تفكر فيه: أنني أفقد عقلي، وأن هذا لا يمكن أن يكون صحيًّا.

تساءلَت: «هل أنتِ بخير؟»

فأخبرتها قائلةً: «إنها حالة مؤقتة. سأتعافى منها.»

دائمًا ما أفعل: أبتعد عن تلك الأرقام الكئيبة وأعود إلى أيام نزواتي واندفاعي. ربما أستغرق شهرين من أجل شراء لحاف بمائة دولار أو ١٢ بالمائة من الدخل السنوي في أفغانستان، ولكن في نهاية المطاف أعود مرةً أخرى لكوني مستهلكةً أمريكية عادية.

لذا ليس مفاجئًا حقًّا أن أفكر في أفغانستان مرةً أخرى في ظهيرة هذا اليوم، وأنا أجلس في مكتبي وأحدق في الصورة اللامعة للحذاء الرياضي الإيطالي الذي يمكنه إنقاذ قدمَيْ ويس الغاليتين؛ فأنا لست متحمسة لإطالة أمد معاناة الأسبوعين الماضيين. لقد زرت مواقع إلكترونية لا تُعدُّ ولا تُحصى، وأرسلت رسائل بريد إلكترونية لغرباء تجاهلَني معظمهم، واتصلت هاتفيًّا بمحلات أحذية من مونتانا حتى بنسلفانيا. اكتشفت أن بعض شركات صناعة الأحذية الأمريكية الشهيرة لم تَعُدْ حقًّا أمريكية، على الأقل إذا كنت تبحث عن مكان صنع أحذيتها، وجميعها في معظم الأوقات تقريبًا تصنعها في الصين. جلست في

بعض الأيام أمام الكمبيوتر لفترةٍ طويلة حتى تخدَّر أسفل ظهري. بل دارت محادثة نزقة بيني وبين أحد صانعي الأحذية في مين عندما اتصلت بمَقرِّه للسؤال عن مكان تصنيع أحذيته.

زمجرت امرأة في قسم التسويق سائلة: «لماذا تريدين أن تعرفي ذلك؟ ولماذا تسألينني؟»

قلت لها: «حوِّلَني عامل الهاتف لك.»

فقالت: «إنها مصنوعة في الصين، ولكنني لا أعرف لماذا أنتِ بحاجة إلى معرفة ذلك.» ثم أغلقت الخط فجأة.

أنتِ مذنبة، مذنبة، مذنبة.

هذا لا يعني أنني لم أستطع العثور على أي أحذية أطفال مصنوعة خارج الصين، لكنها لم تكن من النوع المناسب قط. وجدت حذاءً جلديًّا أسود لأفراد الفرق الموسيقية الجوالة حائزًا على براءة اختراع مصنوع في ميسوري، ولكن ويس صغير للغاية بالنسبة إلى أفراد فرقة موسيقية جوالة. ووجدت صنادل فتيات مصنوعة في تكساس، ولكن ويس ليس فتاة. ووجدت قباقيب خشبية مصنوعة في السويد، ولكن سيقتلني كيفن إذا وضعت قدمَيْ ويس فيه. كان ما أحتاجه هو حذاءَ تنس عاديًّا قديمَ الطراز من مكانٍ غير الصين، ولكنني علمت أني وضعت نُصْبَ عينيَّ ما كان بمنزلة جائزة مستحيلة. وتضمَّن مسعاي تبادلًا لرسائل البريد الإلكتروني مع صاحب محل لبيع الأحذية في أيوا جاء رده وكأنه تأبين لصناعة ميتة، فقال لي إنه لا أحد تقريبًا يصنع أحذية رياضية للأطفال في الولايات المتحدة منذ ستينيات القرن العشرين، وإنهم جميعًا انتقلوا للصين منذ ذلك الحين.

كان كيفن يُخبرني يوميًّا: «أنتِ تبالغين في هذا قليلًا.» ولكن شبح قدم ويس المعوَجَّة دفعني للاستمرار.

يمكنني أن أضع حدًّا لعملية البحث في وقتٍ بعد الظهيرة من هذا اليوم، بمكالمة هاتفية سريعة لرقم خدمة العملاء الموجود في الجزء السفلي من صفحة المنشور التسويقي. ومع ذلك، جلست في مكتبي، ألتقط سماعة الهاتف، ثم أضعها مرةً أخرى. عبست في وجه الصفحة وحاولت السيطرة على أعصابي، منزعجةً من والدتي وناشونال جيوجرافيك لتذكيري بعيشتي المُرَغَّدَة.

التقطتُ شيئًا بطرف عيني. كانت سيدة جادة من حَيِّنَا خارجة للتمشية في منتصف النهار. قمت من مقعدي مندفعة، وانطلقت نحو الباب الأمامي ونزلت على الدَّرَج، وناديتها

عند البوابة الأمامية، فاقتربت مني بحذر. أخبرتها أني بحاجة إلى تقييمها الصريح لفكرة إنفاقي ٦٨ دولارًا على حذاء إيطالي لويس.

سألتها: «هل تجدين أن هذا مضيعة للمال مثيرة للاشمئزاز؟ تذكَّري أنه يبلغ من العمر أربع سنوات وأنه صبي.»

كان الأمر كما لو أنها تنتظر طوال اليوم شخصًا يسألها هذا السؤال بالذات.

أشاحت بيدها في رفض قائلة: «هذا لا شيء.» ثم حكت لي عن صديقة لها تنفق مئات الدولارات كل شهر على كريمات البشرة؛ كي لا تُصاب بالتجاعيد نتيجة التدخين. أسكرتْني هذه المعلومات اللذيذة على الفور، ونسيت كل شيءٍ عن الحذاء.

قلت على نحوٍ واضح: «هل تعتقدين أنها يمكن أن تتوقف عن «التدخين» فحسب؟»

قالت: «حسنًا، نعم، ربما تعتقدين ذلك. لكنها لن تتخلى عن التدخين وتريد أن تكون جميلة.»

خرج حديثنا عن مساره. حاولت استخلاص المزيد من التفاصيل عن صديقتها، ولكن رأيت أن حماسي غير اللائق حيال هذا الموضوع جعل السيدة تندم على عدم تحفُّظها. لم أمانع قطع الحديث عند هذه المرحلة؛ فقد أصبح لديَّ ما أحتاجه. ودَّعتها وصعدت درجات السلم الأمامية، مدعومة بشعورٍ من الفضيلة المفاجئة.

وعند العودة إلى الداخل، رفعت سماعة الهاتف وطلبت الحذاء. ترددتُ مرةً واحدة فقط خلال هذه الصفقة، عندما قررت أن أطلب حذاءً أكبر بمقاس واحد على الأقل من مقاس قدم ويس؛ فلم أرغب في تكرار قصة الحذاء الطويلة في أي وقتٍ قريب. وبهذه الطريقة سيبدو أنه أقل تكلفة؛ لأنه سوف يرتديه لضعف الفترة، وأستطيع أن أشعر بأني نصف مذنبة.

كانت الشاحنة في حالة سيئة، فقد علا الصدأ طلاءها الأبيض حول مكان العجلة، وكانت نوافذها مرقَّعة بملصقاتٍ باهتة. قرأت الملصق الموضوع على مُمتصِّ الصدمات في نهايتها المهترئة وأنا أبطئ سرعتي للوقوف في مكانٍ بجانبها في موقف السيارات الزلق الخاص بصيدلية حَيِّنَا. كانت عبارته هي «قاطعوا فرنسا.»

لن توافق والدتي على فكرتي الأولى، وهي أن صاحب هذه الشاحنة لم يكن يشتري كثيرًا من خمر بورجوندي وجبنة بري حتى قبل أن تعارض فرنسا حربنا في العراق. بحثتُ حولي عن السائق الذي تَصوَّرته كرجل ضخم أحمر الوجه ويعاني ألمًا في معدته. ربما

كان في الداخل يشتري مضاداتٍ للحموضة. كان مجرد تخمين، ولكنه ليس تخمينًا لطيفًا، ولكني أتصوَّر أنَّ أقرب تعامل له مع الفرنسيين هو طلب البطاطس المقلية الفرنسية في مطعم ماكدونالدز. أقصد «بطاطس الحرية»؛ الاسم الذي أُطلِق على البطاطس المقلية الفرنسية بعد رفضها الحرب الأمريكية على العراق.

جعلني ملصق مُمتصِّ الصدمات أنخرط في التفكير. عندما وصلت إلى المنزل جلست أمام الكمبيوتر لإجراء بحثٍ على الإنترنت عن «المقاطعة» و«الصين» لأرى ما سأحصل عليه. حصلت على نتائج كثيرة. ثَمَّةَ مواقع تُشجِّع على استقلال التبت ومواقع تنادي بحرية ممارسي برنامج فالون جونج ومواقع عديدة مخصصة للمخاوف المتعلقة بحقوق الإنسان وحملات «اشترِ المنتجات الأمريكية». وتُعَدُّ المواقع مزيجًا من النقد اللاذع والتحفُّظ. والموقع الذي يُقدِّم ملصقات «قاطعوا الصين» مجانية يبدو معتمِدًا بإفراطٍ على كلمة «الرعاع» للتعبير عن رفضه للمسئولين الصينيين، في حين يحذر موقع آخر من أن الصين قد أطلقت على كل مدينة في الولايات المتحدة اسمًا صينيًّا، مقترحًا أن نقل مقرِّ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني من بكين إلى نيويورك ليس سوى مسألة وقت. وعلى موقع آخر، تصف امرأة محاولاتها المضنية لتحديد الشركات التي تستخدم عمالة من السجون الصينية في عملياتها التصنيعية لكي تستطيع تجنُّب شراء منتجاتها. وكتبت أن الناس يُسيئون فهمها إذا افترضوا أنها تقاطع الصين؛ فهي تقاطع الصين السيئة فحسب.

بعد ذلك أدخلت كلمتَي «مقاطعة» و«فرنسا». وهنا وجدت المادة الخام للكراهية. إن مجموعة مقاطعي الصين ودودون بالمقارنة بمهاجمي فرنسا. كان هناك مدير لأحد المواقع ذات الأسماء الفاحشة يقود التعبيرات المتدفقة والحروف الكبيرة وعلامات التعجُّب. ويعتنق استخدام هذه الأمور الثلاثة مع عدم وجود ضبط للنفس؛ الأمر الذي من شأنه أن يزعج والدتي؛ فكتب على صفحة تُصوِّر العم سام مستخدمًا إصبع يده الوسطى لتوضيح رأيه في فرنسا، كتب يقول: «الخيانة تُغضبني!» رحتُ أتنقَّل عبر صفحاتٍ من أفكاره الدنسة، كان معظمها يشير إلى استنكار قوي للسيد شيراك وأمثاله، وعلى ما يبدو، كان أمثاله هم الشعب الفرنسي. «إلى الحمقى الفرنسيين الرائعين وشيراك: اذهبوا إلى الجحيم!» ووجدت عددًا قليلًا من المواقع التي تبيع ملصقات «قاطعوا فرنسا»، وموقعًا يُقدِّم قائمة بالشركات الفرنسية، أو التي ربما تكون فرنسية، أو التي على الأقل لديها مقر في فرنسا، وتحث الزوار على تجنُّبها، تحسُّبًا لأي شيء.

أكَّد بحثي شيئًا كنت أعرفه سابقًا عن نفسي. أنا لست شخصًا ممن يعتلون المنابر، ولست شخصًا ممن يضعون الملصقات على مُمتصِّ الصدمات. الملصق الوحيد على مُمتصِّ الصدمات في سيارتنا التويوتا هو ملصق يشير إلى عضويتنا المنتهية الصلاحية في حديقة الحيوان. كما أنني لست شخصًا ممن يناصرون المقاطعات، على الأقل ليس إذا كانت المشاركة تستلزم استخدام ملصقات مُمتصِّ الصدمات، أو علامات التعجُّب، أو إساءة استعمال الحروف الكبيرة للمشاركة في المقاطعة؛ فهي جميعًا تجيب عن سؤالٍ لم يُطرح من الأساس: ما الذي أفعله بالضبط؟

حلمت بحلمي الأول عن المقاطعة. كنت في منطقةٍ بعيدة في عطلة نهاية الأسبوع في بلدةٍ جبلية يغلب على طابعها القِدَم. كان شخص ما يتزوَّج وذهبت لشراء شيءٍ أرتديه في حفل الزفاف، فتجوَّلت في متجرٍ زاهٍ مليء بالملابس الصيفية الحديثة. لم يكن هناك إلا أنا والبائعة، التي كانت امرأة شابة لافتة للنظر ذات رأسٍ مليءٍ بالشعر المجعَّد الداكن وتتحدَّث بلُكْنة مميَّزة خفيفة. كانت مرِحةً وغريبة، وسرعان ما جعلتْني أقيس جميع أنواع الأشياء. كان من الواضح أنني في مزاجٍ ملائم للشراء. جمعت كومة كبيرة من الثياب؛ أشياء فاتحة شفافة ربما لا أستطيع ارتداءها في هذا العمر وربما تُظهر جزءًا كبيرًا من كتفيَّ وساقيَّ، ولكني لم أستطع مقاومة رغبتي في قياسها رغم رفض عقلي لها. وعندما بدأت الفتاة تحسب مشترياتي، كانت هناك كومة كبيرة من الملابس على المنضدة.

حينها أدركت أنني لم أفحص أي بطاقة لمعرفة مكان صُنْع الثياب؛ فمددت يدي لإحداها ونظرت داخل الياقة. ورأيت ما كنت أخشى أن أراه، عبارة «صنع في الصين». مددت يدي وأمسكت ثوبًا آخر، ورأيت الشيء نفسه. سَرَتْ في جسدي قُشَعريرة خوف. فات أوان التراجُع عن المعاملة؛ فهذا ليس عادلًا بالنسبة إلى الفتاة التي قضت نصف الساعة الماضية في خدمتي. ماذا أقول لها؟ إنني لا أستطيع شراء الثياب لأنها مصنوعة في الصين؟ لا أستطيع قولها. ولن أقولها. ولكنني لا أستطيع كسر المقاطعة أيضًا. كانت تقترب من قاع كومة الملابس، غير مدركة أنني على وشك الخروج من المحل وعدم العودة إليه مطلقًا، إذا تمكنتُ فقط من تحريك ساقيَّ، أو ارتجال كذبة هائلة وإخبارها بأنني تركت بطاقة الائتمان الخاصة بي في السيارة، وسأعود على الفور؛ الادِّعاء الذي سيبدو خادعًا وكاذبًا حتى لو كان لديَّ الجرأة لمحاولة القيام به.

أيقظني شيء ما عند هذه اللحظة، وهكذا خرجت من المأزق. رقدت في الظلام واستمعت إلى دقات قلبي القوية حتى عدت إلى النوم.

أشار حُلمي إلى ازدواجيتي حيال مقاطعة الصين، ولكن الحقيقة هي أننا كنا سعداء الحظ في الآونة الأخيرة؛ إذ كان يمكن اعتبار شراء السلع غير الصينية حظًّا سعيدًا. وجدت جوارب ليتوانية للطفلة. وقدَّم ويس لأصدقائه في المدرسة بطاقات أمريكية الصنع في عيد الحب. واشتريت لكيفن شواية مصنوعة في بلاتاين بإلينوي للاحتفال بهذه المناسبة، وقدَّم هو لي نسخة من كتاب «شركة الصين»، وهو كتاب مطبوع في الولايات المتحدة ومليء بإحصاءات مذهلة عن الصين السريعة النهوض (تجمدتُ من الذهول بسبب الغلاف الخلفي، الذي يقول إن الصين تبني مدينة بحجم مدينة هيوستن كل شهر). اشترى كيفن حذاءً من ذات الطراز العسكري إسرائيليَّ الصنع من متجر أحذية في ولاية أيوا يبيع أحذية غير جلدية. وحصل ويس على لعبة «فرس النهر الجائع» الأمريكية الصنع مقابل تضحيته بالسيف الصيني في السيرك، كما أَحبَّ حذاءه الرياضي الإيطالي الكبير للغاية. ولم نتمكَّن من العثور على دميةٍ غير صينية لصوفي، التي بدأت في إطعام حبوب الإفطار تشيريوس لدميتها الدب، لكن أحضر كيفن في إحدى الليالي للمنزل دراجة ألمانية ثلاثية العجلات يمكنها أن تنعطف بزاوية ضيقة. لن أقول إننا بدأنا نغتَرُّ، لكننا بدأنا ندرك أن الصين ربما لا تحكم عالمنا رغم كل شيء؛ لذلك ربما تخليت قليلًا عن حذري، وربما فسَّر هذا سبب الحدث المؤسف الذي وقع في آخر هذا الشهر.

ذات مساء، وأنا أُحمِّم صوفي في الطابق العلوي، ناداني كيفن للنزول. كان واقفًا عند أول الدَّرَج حاملًا علبة صفيح صغيرة، وكان يبدو تمامًا مثل قطٍّ ابتلع فأرًا لتوِّه. كان معجبًا بنفسه كثيرًا. شعرت أن هذا لن ينتهيَ على نحوٍ جيد بالنسبة إليَّ.

فقال بصوتٍ عالٍ: «يجب أن تكوني أكثر حذرًا حيال ما تشترين.»

ضيَّقت عينيَّ، وسألت بقليلٍ من الغضب:

«ماذا يُفترض أن يعنيَ كلامك؟»

فوجَّه العلبة نحوي وقال:

«اليوسفي. هل تساءلتِ من قبلُ عن مصدره؟»

هكذا إذن، بعد مُضِيِّ أقل من شهرين فحسب على تجربتنا أخطأتُ المسار وخرجتُ عن الجسر وسقطت في مياه النهر المظلمة. لقد أوقعتْني علبة من الفاكهة الصينية للأطفال في الفخ. «اليوسفي.» هذا واضح جدًّا. كنت أشتري بضع علب في الأسبوع على مدار سنوات. من كان يعلم أن السيطرة على العالم ربما تعلن عن نفسها بعلبةٍ من

مشروب الفاكهة المُحلَّى؟ مَن كان يعرف أنني كان يتعيَّن أن أظل منتبهةً في ممر المعلبات في المتجر؟

لعنت نفسي، وعدت مسرعةً إلى الحمَّام لجلب الطفلة المنقوعة في الماء وعقدت العزم على بذل مزيدٍ من الجهد. وعقدت العزم على شيءٍ آخر: أن أوقع انتقامي على الحلقة الأضعف، في الوقت الذي أختاره.

الفصل الثالث

النهضة والصين

بدأ شهر مارس بدونالد رامسفيلد. التقيت به بطريقة لقائي نفسها بمايك جاجر ومعمر القذافي؛ في أحلامي.

في حلمي، كنت في منزل والديَّ مرتديةً رداء الحمَّام، أملأ حوض الاستحمام بالماء، عندما قرع أحدهم الباب وقال لي إن رامسفيلد قد وصل لإجراء مقابلة. لم أكن أتوقَّع مجيئه وكنت واعيةً بأنني أرتدي رداء الحمَّام، ولكني اكتشفت أن هذه هي فرصتي الوحيدة لإجراء مقابلةٍ مع وزير الدفاع؛ لذلك هُرِعْتُ إلى غرفة نوم طفولتي، التي سُتجرى فيها المقابلة. دخل رامسفيلد الحجرة، وتلاه مسئول فيدرالي غامض يُدعى جيمس ويب وزمرة من المساعدين الصارمين. كان الجميع يرتدون حُللًا داكنة. لم يسألني أحد عن رداء الحمَّام. بعد سلسلةٍ من المقدمات الرسمية، شرعت في طرح سؤال.

فجأة، أصبح الوضع صاخبًا حقًّا لأننا لم نَعُدْ في غرفة نومي القديمة، ولكن في المساحة الواسعة المفتوحة لمبنى وصول خالي في أحد المطارات. كان مبنى الوصول مفتوحًا من الناحية التي تواجه مَدْرَج المطار بينما تدور محركات الطائرات النفاثة الصاخبة دون حركةٍ على بُعد عدة ياردات فقط من مكان جلوسنا. حاولت أن أرفع صوتي فوق الضوضاء، لكن رامسفيلد وَويب أطبقا شفاههما ولم ينبسا بكلمة. ولم يستطيعا سماع أي شيء. ثم أوقفَت الطائرات محركاتها وخيَّم الصمت علينا. كان صوتي عاليًا للغاية في هذه اللحظة وأنا أُكرِّر سؤالي: هل من الجيد أم السيئ بالنسبة إلى العمال الأمريكيين أن نشتريَ الكثير من الأشياء الصينية؟

قال ويب: «هذا ليس من قبيل الصدفة. إنه قرار اتخذناه نحن الأمريكيين.» فكتبتُ هذا. ثم دخل شخص غريب في ملابس داكنة واصطحب ويب بعيدًا، وبقيت أنا ورامسفيلد فحسب. وأشار إلى أن وقت رحيله قد حان أيضًا، فعرضتُ مرافقته حتى طائرته.

عندما ابتعد رامسفيلد تفحَّصتُ مظهره ولاحظت أنه أكبر سنًّا بكثيرٍ مما يبدو عليه في التليفزيون. كما لاحظت أنه كان يبدو شرقَ أوسطيٍّ على نحوٍ غامض، وأنه صبغ شعره بلون أسود غير طبيعي. وقد تحوَّل إلى أنور السادات؛ الرئيس المصري الذي قُتل على يد الإرهابيين منذ سنوات.

عندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي، كان أول شيءٍ فعلتُه هو كتابة ما قاله ويب. وبينما كنا نحتسي القهوة، أخبرت كيفن عن حُلمي، ناقلةً كلمات ويب بجدية مناسبة، فأغفل الحلقةُ الأضعفُ الهدفَ من الكلمات.

قال بابتسامةٍ متكلَّفة: «دونالد رامسفيلد؟ إنه لا يبدو من النوع المفضَّل لديك.»

كان ينبغي أن أعرف أنه لن يأخذ الأمر على محمل الجد.

بدأت لاحقًا في التحقُّق من هوية جيمس ويب. لخَّص ويب في الحُلم بدقةٍ علاقةَ بلادنا بالصين، وكنت أودُّ أن أنسب فضل ملاحظته الذكية إلى نفسي، ولكن هل هي حقًّا ملاحظتي، أم أنها تعود إليه؟ أعتقد حقًّا أن لي حق امتلاك أي شيءٍ يقوله أي شخص في أحد أحلامي، ولكن ماذا لو كنت قد قرأت تعليقات لجيمس ويب الحقيقي عن الصين في مقالة إخبارية ما، وطفت على السطح في حلم برامسفيلد؟

لم يكن من الصعب العثور على جيمس ويب الحقيقي؛ فقد كان يملك موقعه الخاص على شبكة الإنترنت. كان وزيرًا سابقًا للبحرية، وبطلًا في حرب فيتنام، ومؤلف وصلتْ كُتُبه إلى قوائم الكتب الأكثر بيعًا، على الرغم من أنني لم أقرأ أيًّا من كتبه. في حُلمي، كان شاحبًا، يعاني من سوء التغذية، غارقًا في سترته، منحنيًا تحت ثقل حقيبته. أما جيمس ويب الحقيقي فكان له رأس مليء بالشعر ونظرة قوية، وكأنه يمكن أن يسقطك إلى الأرض بضربةٍ واحدة من يده الغليظة. يقول الموقع الإلكتروني إنه ملاكم سابق، وهذا يتلاءم مع مظهره.

يُقدِّم جيمس ويب الحقيقي تعليقاتٍ كثيرةً عن الحرب بوجهٍ عام وحرب فيتنام على وجه الخصوص، ولكن بقدر ما أرى، فإنه لم ينبس ببنت شفة فيما يتعلق بإدمان الأمريكيين للواردات الصينية؛ فخلصت إلى أن تعليقه في حُلمي هو تعليقي، أو على الأقل أن جيمس ويب الذي رأيته في حُلمي هو شخصية من ابتكاري الخاص، والحالتان سواء.

في البداية، كنت راضية تمامًا عن ملخَّص ويب الواضح الرؤية — في الحلم — عن النزعة الوطنية نحو الأشياء الصينية. كيف صاغ الأمر؟ ليس من قبيل الصدفة، ولكنه قرار اتخذناه نحن الأمريكيين. وهي عبارة تبدو من النوع الذي يمكن أن تسمعه في

برنامج حواري في صباح يوم الأحد. ولكن كلما فكرت في العبارة أكثر، أزعجتني وجهة نظر ويب في الحلم للعالم على نحو أكبر. نعم، كثير من الأمريكيين — الغالبية العظمى، على حد علمي — لا يستطيعون التوقُّف عن شراء ما تبيعه الصين، ولكن هل هو حقًّا قرار يتخذونه أم أنه استسلام عام غائم العينين لإغراءات اللعب وأجهزة التليفزيون الرخيصة؟

وما نوع الإجابة التي قدَّمها ويب لي على أي حال؟ فعندما سألته عما إذا كانت الواردات الصينية جيدةً بالنسبة إلى العمال في بلدنا، أجابني بعبارةٍ غير مرتبطة بالسؤال لإخراجي عن مساري. بدا ذكيًّا للغاية حين سمعتُه للمرة الأولى، ولكن كلما فكرت فيه استطعت أن أرى أنه ضعيف ويعاني سوء التغذية، فاشل عالق منذ شهور في المذكرات البيروقراطية التي أثقلت حقيبته. وهو لا يُعبِّر عن رأيي، لم يَعُدْ كذلك على أي حال. ربما يكون الجميع يقتاتون على المنتجات الصينية، ولكني هذا العام اتخذت قرارًا آخر، وسألتزم به، وليكنْ ما يكون.

لذا تَقبَّل ذلك يا جيمس ويب؛ جيمس ويب الذي رأيته في حلمي، هكذا هي الحال.

بعد ١٦ عامًا من الزواج، تعتقدين أنكِ تعرفين زوجك. ثم تعلمين أن لديه أوجُهَ قصور، فتعلمين أنه مخادع، وكثير النسيان أيضًا، وأنه لا يتورَّع عن التستُّر والمداراة. على الأقل هذا ما علمتُه عن كيفن ذات سبتٍ ربيعيِّ الطقس.

بدأ الأمر ببراءةٍ تامة. كنت أقف خارج المنزل في الجزء الخلفي، أفتش في كيسٍ من أكياس متجر هوم ديبوت البلاستيكية وأراقب الأطفال في صندوق الرمل المخصص للعب. أسفرت رحلة كيفن لهوم ديبوت في وقت سابق من صباح ذلك اليوم عن كيسٍ من الأشياء المحبطة: خرطوم أمريكي، وفوهة خرطوم تايوانية، ومجموعة من فُرَش التلوين الرخيصة للأطفال. لاحظت أن الفرش تبدو تمامًا مثل الفرش الصينية القديمة التي رأيتها في المرآب منذ بضعة أيام، فالتقطتُ واحدة من الفرش الجديدة ورأيت أن جزءًا من بطاقتها التجارية ممزق؛ الجزء الذي يشير إلى مكان صناعتها. مددت يدي لأخرى، ولكن لم تكن بطاقتها ملصقة عليها، والحال نفسها في الفُرشة التالية. رفعت عيني محدقةً في اللون الأخضر الممتد بطول الفناء وتساءلت لماذا يُكلِّف شخصٌ ما نفسَه عناء إزالة ملصقات مجموعة من فُرَش التلوين الرخيصة.

حدث ذلك عندما ظهر كيفن على مرأى بصري حاملًا كيسًا مملوءًا بالسماد يزن ٢٠ رطلًا على كتفه، وكان فمه يرسم خطًّا مجعَّدًا من العزم الرجولي. كان يقفز في خطواته

بالرغم من الوزن الذي يحمله. إنه يحب طقوس التسميد الربيعي. فتح الأكياس بطعنةٍ من المجرفة وكأنه يقتل عدوًّا بحربة. وأصدر الأوامر للأطفال بالابتعاد عن طريقه بينما يفرغ الأكياس ويوزع السماد طوال بقية اليوم، مستبدًّا بالفناء مثل جنرال في الجيش.

جذبت انتباهه ورفعت فرشاة في الهواء.

وقلت له بصوتٍ عالٍ: «هل صادف أن لاحظت مكان صنع هذه الفرش؟»

كان لكلماتي تأثير فوري على ركبتَي كيفن، اللتين انثنيَتَا. بعد ذلك عانت كتفاه من مشكلة، فارتخيَتَا وأوقعَتَا كيس السماد على العشب محدثًا صوتًا مكتومًا. بدأ جسده يهتز وانحنى واضعًا يديه على ركبتيه. واعتقدت للحظةٍ أنه مريض، ولكن بعد ذلك رفع وجهه، وفتح فمه، وابتسم ابتسامة عريضة.

ثم قال دون تفكير: «الصين» كان يضحك بشدةٍ حتى إنه لم يستطع التحدُّث، وحدقت أنا به من مكان وقوفي.

قال لي بعد بضع دقائق وهو يفرك عينيه بأصابعه: «كنت سأعترف. ولكني فكرت أنك ستجعلينني أعيدها.»

وقال إنه لم يفكر في منشأ الفُرَش إلا عندما كان خارجًا في موقف سيارات هوم ديبوت بينما كانت صوفي تبكي بشدةٍ في المقعد الخلفي للسيارة. عندها فحص الملصقات واكتشف أن الفُرَش صينية، فقرَّر أنه لن يصطحب طفلة سيئة المزاج مرةً أخرى إلى المتجر أبدًا من أجل إعادة الفُرَش التي تُكلِّف ٥٩ سنتًا لكلٍّ منها؛ لذلك وقف بجانب السيارة وأزال الملصقات، واحدًا تلو الآخر، وصوفي تصرخ بصوتٍ يعلو تدريجيًّا.

«كنت آمل ألا تلاحظي.»

فرددت: «بالطبع كنت سألاحظ.»

كان الضحك قد انتهى، وبدا القلق عليه.

«ماذا يُفترض أن أفعل الآن؟ هل ستجعلينني أعود إلى المتجر؟»

قلت: «لن أجعلك تفعل أي شيء. سيكون عليك التعايش فحسب مع ضميرك. لا تَدَعْ ذلك يحدث مرةً أخرى.»

أومأ برأسه دونما اقتناع، ورفع كيس السماد مرةً أخرى على كتفه، وتوجَّه نحو الزهور، ثم بدأ يُصفِّر.

لا ألوم كيفن على مواجهته المستمرة بالمنتجات الصينية، فقد واجهتُ سيلًا من المفاجآت الصينية في الأيام الأخيرة: وجدت شوكولاتة صينية على شكل باربي تحتل

٩٠ بالمائة من رف الصيدلية. واكتشفت أن منشورًا تسويقيًّا لشركة جيه كرو يبيع فساتين زفاف صينية. وكل بيض عيد الفصح البلاستيكي والأرانب المحشوَّة في ممر هدايا العيد في محل البقالة يحمل ملصق «صنع في الصين». أعلم ذلك لأنني تحقَّقت منها جميعًا.

مع ذلك، ضَحِكُ كيفن المحيط بفُرَش التلوين الصينية مثيرٌ للقلق لأن الشعور بالذنب ربما يكون أفضل سلاحٍ لديَّ في محاولة إبقائه ملتزمًا لبقية العام؛ فالتذمُّر المستمر لن ينجح بالتأكيد. وإذا ضغطتُ عليه بقوة شديدة، فسوف يقاوم كيفن بقوة أكبر. إنني لا أجرؤ على إفساد مقاطعة شخصٍ ما للصين، ولكن كيفن قد يفعل. في الواقع، لقد فعل ذلك للتو؛ فإذا بالغت في أفعالي فلن تنتهيَ المشكلة، وستزداد عمليات شراء المنتجات الصينية غير المشروعة. على الناحية الأخرى، إذا تساهلتُ معه كثيرًا، ولم توجد أي عواقب لسوء سلوكه، فربما يُغوَى بغِشِّي مرةً أخرى. كنت أتمنى لو أنه كان يخاف قليلًا مني، لكنني لست متأكدةً من كيفية تحقيق هذا حتى بعد الوصول إلى هذه المرحلة، بعد مرور ١٦ عامًا على زواجنا. قرَّرت أن أبدأ فحص الملصقات الموجودة على مشترياته سرًّا، بالطريقة نفسها التي تتفحَّص بها بعض الزوجات ياقات أزواجهن بحثًا عن أحمر شفاه.

قلت لكيفن: «قل لي إنك تختلق هذا. قل لي إن هذه مجرد مزحة سيئة.»

رد كيفن: «لماذا؟ أنا لا أشعر بالحرج. أنا واسع الحيلة.»

قلت: «أنت تبدو سخيفًا.»

فقال: «أنا أبدو رائعًا.»

بعد ظهر يومٍ حارٍّ في منتصف مارس، عاد كيفن إلى البيت من العمل مختلفًا. ما تغيَّر كان وجهَه، الذي حشر عليه بالقوة نظارة شمسية للأطفال. ليست نظارة شمسية للأطفال فحسب؛ إنما نظارة شمسية لفتاة صغيرة. كان لونها ورديًّا صارخًا وأسود، وكانت كلمة «براتز» Bratz محفورةً فوق إحدى العدستين، في إشارة إلى الدمى ذات الابتسامات المتكلَّفة المصنوعة في الصين وبرنامج الأطفال المبني عليها. لا بد أن رأس كيفن كان يقتله ألمًا جرَّاء ضغط إطار النظارة على صُدْغَيه، ولكنه مال إلى العصيان عندما اقترحتُ أن يخلع النظارة فورًا ويرميَها في سلة المهملات. أسوأ ما في الأمر ليس النظارة؛ إنما إخباره لي أين وجدها: في سلة المفقودات في مدرسة الأطفال التمهيدية، إلى جانب ورقة تسجيل الدخول الخاصة بالآباء.

فسألته: «إذنْ سرقتها؟»

فقال: «لقد كنت أراقبها. لقد كانت في هذا المكان لعدة أشهر، ربما لعام. إنها ليست نظارة شمسية ضائعة. إنها لا تخصُّ أحدًا.»

بدأ سقوط كيفن في الجرائم الصغيرة بفقدان نظارته الشمسية الإيطالية الأسبوعَ الماضي. شعر باكتئابٍ لعدة أيام بعد أن اكتشف أنها مفقودة. كان يمتلكها لمدة عَشْر سنوات، وكان يَدَّعي أنها تجعله يبدو مثل توم كروز في فيلم «توب جَن». كان يعلم أن الاستعاضة عنها بأي شيءٍ غير النظارات الشمسية الصينية سيكلفه كثيرًا على الأرجح، وكنا نعاني نقصًا في المال في الآونة الأخيرة. وتهلَّلتْ أساريره في الأيام القليلة الماضية بعد أن بدأ صديق في العمل تقديم نصيحة فلسفية عن مأزقه. صديق كيفن أخبره أن الناس لا يفقدون نظاراتهم الشمسية، بل يضعونها في حقيبةٍ مجازية للأشياء الضائعة تمتد في جميع أنحاء العالم. لم يفقد كيفن نظارته الشمسية الإيطالية، ولكنه ببساطةٍ تبرَّع بها للحقيبة، كما يقول صديقه. سوف تظهر نظارة أخرى — نظارة تبرَّع بها شخص آخر — قريبًا. وأصرَّ صديقه أنه عندما يحدث ذلك، يجب ألا يتردد كيفن في أخذها.

أكَّد صديقه له قائلًا: «أحد طلابك سيترك نظارة شمسية في صفك. هذه ستكون نظارتك الشمسية التالية.»

والنتيجة النهائية لهذا التفكير المشبوه هي البشاعة التي تقف أمامي في ظهيرة هذا اليوم في المطبخ؛ رجل يبلغ من العمر ٤٦ عامًا يرتدي نظارة شمسية تُناسب رأس طفل رضيع.

قلت: «دعني أَرَها.»

راودَتِ الشكوكُ الرجلَ من وراء النظارة.

سألني كيفن قائلًا: «لن تكسريها، أليس كذلك؟»

فأعطاني إياها على مضضٍ ونظرت نظرة سريعة داخل الإطار. إنها صينية، كما كنت أظن، لكن كيفن يعرف القواعد، فالهدايا والنُّفايات والأشياء المستعمَلة المقدّمة من الآخرين الصينية الصنع لا بأس بها، فأعطيته إياها مرةً أخرى.

ثم قلت: «آمل ألا ترتديَها علنًا. على الأقل يمكنك أن تفعل ذلك من أجلي.»

ردَّ كيفن: «بالطبع سألبسها في العلن. ليس لديَّ أي نظارة شمسية أخرى. في هذه اللحظة هذه هي نظارتي الشمسية.» وذكَّرني أنه بِناءً على أوامر الطبيب فإنه يرتدي النظارة الشمسية كلما كان في الخارج لأنه يعاني من ورمٍ في عينه، نتيجة قضاء وقت طويل في الشمس في طفولته.

قال بينما يدفع النظارة للخلف فوق أنفه: «إنني فعلًا «بحاجة» إلى نظارة شمسية.»
وبعد يومين كنا في المطبخ وكان موضوع المحادثة مرةً أخرى هو النظارةَ الشمسية.
قلت له: «قل لي إنك لم تتعارك مع كارولين حول تلك النظارة الغبية.»
قال كيفن: «لم يكن عراكًا. إنما كان جدالًا. وعلى أي حال، لقد ربحتُ.»
فصحت في وجهه معترضة:
«بالطبع، ربحتَ؛ فكارولين تبلغ من العمر أربع سنوات.»
كارولين إحدى زميلات ابننا ويس في المدرسة التمهيدية، وهي شقراء عنيدة تمتلك حوالي مليون شريط في شعرها ومثلها من الآراء. واليوم عندما انضمَّ كيفن إلى ويس في الكافيتريا لتناول الغداء، كان الرأي الذي شاركتْه كارولين مع جميع الجالسين إلى المنضدة أن والد ويس هو سارق النظارة الشمسية. كان كيفن وضع النظارة الشمسية الوردية والسوداء في جيب قميصه بينما ينحني على صحن قطع الدجاج وكوكتيل الفواكه، والسبب في ذلك كما قال لي لاحقًا «تحسُّبًا من أن يتعرَّف عليها شخص ما» إلا أن كارولين كان لها عينا نسر.
صاحت بصوتٍ عالٍ: «هذه هي نظارة كاثرين الضخمة.»
قال كيفن: «لا، إنها ليست نظارتها.»
قالت: «كلا، إنها نظارتها.»
فرد متكررًا: «لا، إنها ليست كذلك.»
فأشارت بإصبعها نحوه من الجهة المقابلة على المنضدة قائلة: «يجب ألا تسرق يا سيد كيفن.»
فقال كاذبًا: «أنا لم أسرق.»
فردت: «كلا، فعلت. لقد سرقت نظارة كاثرين الضخمة الشمسية.»
«لم أفعل.»
«بل فعلت.»
فقاطعتُ كيفن رافعة يدي في وجهه: «توقف. لا أستطيع تحمُّل سماع المزيد عن هذا.»
بدا كيفن كما لو أنه يستطيع تحمُّل المزيد من هذا. أكثر بكثير، فكان يبدو سعيدًا للغاية بنفسه. ثم فكرت في شيءٍ ما وبدأ رأسي يدور. كنت مضطرةً إلى الميل نحو الطاولة من أجل الاستناد عليها. لقد تذكَّرت للتو كاثرين الضخمة. كانت ضخمة الحجم؛ لذا غادرت المدرسة التمهيدية في العام الماضي للذهاب إلى روضة الأطفال، وهذا يفسر لماذا

قبعت النظارة الشمسية الوردية والسوداء في سلة المفقودات ولم يطالب بها أحد لعدة أشهر.

إذنْ كانت كارولين مُحِقَّة؛ والد ويس سرق بالفعل نظارة كاثرين الضخمة الشمسية.

لا يوجد مكان يُسمَّى «صين ما وراء المحيطات» و«صين عبر المحيطات»؛ فقد بحثت عن هذين المصطلحين في كتاب «حقائق العالم» الذي تُصدِره وكالة المخابرات المركزية، فقط للتأكُّد، لكنهما وهميتان مثل الساحر أوز. ومع ذلك، وجد كيفن عشراتٍ من النظارات الشمسية الرخيصة في محل البقالة تزعم ملصقاتُها أنها مصنوعة في هذين المكانين على وجه التحديد.

وقال لي: «أدركت أنها كانت مجرد أسماء خيالية للصين. لا يمكنهم خداعي.»

أشعر بالفخر بكيفن لأنه قاوم النظارات الشمسية؛ حيث كان بإمكانه القول إن شراء شيءٍ من صين ما وراء المحيطات أو صين عبر المحيطات لا يتعارض من الناحية الفنية مع مقاطعة الصين. كانت قوة إرادته مثيرةً للدهشة؛ لأنه كان في أَمَسِّ الحاجة إلى نظارة شمسية مرةً أخرى بعد التنازل عن النظارة الوردية السوداء غير الشرعية؛ فقد تدمَّرت ذاتيًّا، بعد يوم واحد من عراكه مع كارولين؛ إذ انكسرت النظارة الشمسية لأنها لم تكن ملائمة للرأس الضخم للرجل البالغ الذي كان يرتديها. أمسكت لساني عندما وضع كيفن القطع المكسورة بازدراء على طاولة المطبخ.

ثم سألني: «هل أنتِ سعيدة الآن؟»

فرددت في نفسي، نعم، سعيدة للغاية.

وجدت حلًّا قصير الأجل لمعضلة نظارات كيفن في صندوق في العِلِّيَّة: نظارة جليد كان قد اشتراها قبل سنواتٍ عندما كنا نضع خططًا لنصبح متسلقي جبال. لم تتخطَّ طموحات تسلق الجبال لدينا قط شراء نظارات الجليد وأحذية التسلق القوية، ولكن النظارة اكتشاف مفيد الآن، تحت سماء مارس البيضاء التي تلسع مثل الحامض في العين غير المحمية. تتكوَّن نظارة الجليد من عدستين مستديرتين ضخمتين لونهما أسود غير شفاف وغمامتين جلديتين على الجانبين. عندما ارتداها كيفن، كان يشبه حصان جر العربات القديمة الطراز. وابتهج عندما أدرك أنه يجذب إليه أنظارًا فزعة عندما يرتديها وهو يركض حول البحيرة في منطقتنا.

«يظنني الناس أعمى؛ لذا تدهشهم رؤيتي وأنا أجري. وعندما أعرف أنهم ينظرون إليَّ، أسرع في الجري.»

مع ذلك، لم تكن نظارة الجليد بديلًا مثاليًّا للنظارة الإيطالية المفقودة؛ فهي ثقيلة للغاية حتى إنها سبَّبتْ ألمًا في رأس كيفن بعد ٢٠ دقيقة. كما أن الغمامتين الجلديتين تعوقان رؤيته المحيطية؛ ما يُسبِّب الخطر عند قيادة السيارة؛ إذ يجب عليه أن يلتف برأسه لفة كبيرة من جانبٍ إلى آخر للتأكُّد من أنه لا يغير حارته المرورية أمام شاحنة كبيرة أو يقطع الطريق على شخصٍ ما. لم تكن لدى كيفن مشكلة في أن يُشبه الحصان، ولكن لا يمكن الالتفاف حول حقيقة أن هذه النظارة مخصصة للسير في المناطق الجليدية، وليس في ضواحي المدن.

لذلك قمت بواجبي كزوجة، وعمدت إلى إنقاذ عينَي كيفن. قُدتُ سيارتي إلى المركز التجاري للبحث في رفوف الإكسسوارات، وهي الرحلة التي تحوَّلت إلى مناسبة أخرى للأفكار المزعجة عن سيطرة الصين على العالم، أو على الأقل على المركز التجاري. تفحَّصت أكثر من ٦٠ نظارة شمسية، ولكنها جميعًا كانت صينية. وعندما عُدتُ إلى المنزل، وجدت كثيرًا من النظارات الشمسية الأمريكية والإيطالية المتاحة للبيع عبر الإنترنت، لكني أجفلت من الأسعار، التي بدا أنها تبدأ من ١٥٠ دولارًا. عندما اشترينا النظارة الشمسية الإيطالية لكيفن كنا صغارًا وطائشين، وليس لدينا أحد نقلق عليه سوى أنفسنا. لسنا أكثر ذكاءً الآن، ولكن الرسائل المزعجة من الدائنين تنسلُّ من فتحة البريد كل يوم؛ مما يوهن طموحاتنا في العيش حياةً رغدة. ليس الأمر أننا لم نَعُدْ نطمح لارتداء نظارات شمسية إيطالية، ولكن ما يمكننا تحمُّل تكلفته هو النظارات الصينية. رأيت أن وجهة نظر صديق كيفن في العمل ربما ليست سيئةً في النهاية، وأنه ربما ينبغي أن ينتظر كيفن ظهور نظارة أخرى من حقيبة الأشياء الضائعة العالمية حتى يتمكَّن من مساعدة نفسه، دون تكلفة.

سكرتيرة قسم كيفن أنقذته؛ ففي صباح أحد الأيام دلف إلى مكتبه في الجامعة ووجد نظارتين شمسيتين قابعتين على مكتبه.

قال تحسبًا لتفكيري في الاعتراض: «إنهما صينيتان، ولكنهما هدية. اشترتهما السكرتيرة بدولار للواحدة من متجر يبيع كل شيءٍ بدولار واحد بعد أن سئمت من الاستماع إلى تذمُّري.»

إنني ممتنة أنها قررت إنفاق دولارين؛ ففي أحد الأيام لم أتمكَّن من العثور على نظارتي الشمسية الإيطالية، التي كانت باهظة الثمن مثل نظارة كيفن. وبحثت في حقيبتي والسيارة ثم في حقيبتي مرةً أخرى، ولكنها ضاعت، على ما يبدو إلى الأبد. وجدت النظارة

الإضافية بثمن دولار واحد التي اشترتها سكرتيرة قسم كيفن على طاولة المطبخ، وارتديتها على وجهي. وتفحَّصت انعكاس صورتي على نافذة المطبخ. كانت العدسات كبيرةً على نحوٍ غير أنيقٍ والإطار مخلخلًا؛ فتكاد النظارة تسقط عن وجهي إذا قمت بأدنى حركة برأسي، فخلعتها ووضعتها من جديد على الطاولة. قرَّرت أنْ أسير مغمِضةً نصف عينَيَّ خلال فصل الربيع، وآمل أن تجلب لي تلك الحقيبة العالمية للنظارات الشمسية المفقودة نظارة لطيفة كبديل، قريبًا.

انسلَّ شيء صيني إلى المنزل في إحدى ليالي أواخر مارس. كان على الأقل يبدو وكأنه شيء من الصين. كنت جالسةً على حافة حوض الاستحمام أُجفِّف شعر صوفي، عندما لاحظت خصلة داكنة أعلى رأسها، ففركتها بالمنشفة؛ مما تسبَّب في موجةٍ من الاعتراض. ثم ألقيت نظرةً أخرى.

كانت في فروة رأسها الوردية شعرة سوداء تحيط بها خصلات بلاتينية اللون. فركتُ الشعرة السوداء مرةً أخرى، فقط للتأكُّد من أنها متعلقة حقًّا في رأسها. ثم ناديت كيفن ليَحضُر على عجل ويُلقيَ نظرة على الطفلة، التي اعترضت على هذا التدقيق في رأسها. جاء كيفن على مَهَل، غير مُبالٍ.

قلت مكررة: «أترى هذا؟ أترى هذا؟» بينما أتصارع مع الطفلة التي تتلوَّى.

فضيَّق عينيه وأومأ برأسه. ظهر ويس عند الباب فلوَّح كيفن له ليأتي، ثم أفسح المجال أمامه للحصول على رؤيةٍ أوضح.

فقال لويس: «إن الصين تنبت في رأس أختك.»

حدَّقنا جميعًا في فروة رأس صوفي لعدة ثوانٍ. ثم اكتفى رجلا الأسرة وخرجا من الحمَّام. لا يمكنني التعافي من الصدمة بهذه السرعة. تركت صوفي تذهب عارية حتى أتمكَّن من الجلوس على حافة حوض الاستحمام لبُرهة. لقد كنت أبذل جهدي لإخراج الصين من المنزل ولكن ها هي الصين، على ما يبدو وجدت طريقًا للدخول مرةً أخرى، مُذكرةً إياي بامتلاكها بضع قطرات من الدم الذي يجري في عروقي، وفي عروق صوفي أيضًا. بدا أن الصين تقول لي: «يمكنك حظري من أكياس التسوق البلاستيكية، ولكن لي الحق في الوجود هنا. لا يمكنك التخلُّص مني بهذه السهولة.»

لم يسبق لي أن آمنت بالعلامات أو الأشباح أو النذر، لكنني أتساءل الآن إن كان ينبغي إعادة النظر في موقفي بشأن هذه الأمور أم لا.

في صباح اليوم التالي، هاتفت أخي الأكبر، وهو عالِم أحياء. سألته هل يعتقد أن الشعرة السوداء صينية من الناحية الوراثية أكثر من شعرات الطفلة الأخرى. سمعته يأخذ نفسًا عميقًا.

ثم قال متنهدًا: «جميع شعراتها لها الشفرة الوراثية نفسها، بصرف النظر عن لونها؛ فاللون لا علاقة له بالأمر.»

«إذن، ما الذي جعلها تُنبت هذه الشعرة السوداء من لا شيء؟»

رد قائلًا: «يمكن أن تكون شعرة متحوِّلة جينيًّا، ولكن ربما لا يكون لهذا أي علاقة بسَلَفٍ صيني. ربما هذا ما هي عليه؛ شعرة متحوِّلة جينيًّا.»

كان يتحدَّث بثقة، ولكنني لست متأكدةً من أنه على حق. وذكَّرت نفسي أنه عالِم أحياء «بحرية»، ذو اهتمامٍ خاص بالشِّعاب المرجانية البحرية، والشَّعر خارج مجال تخصُّصه. كما أنني لست متأكدةً أيضًا من أنني أحببت طريقة إطلاقه كلمة «متحوِّلة» في مناقشة أمر ابنة أخته. وقد أصابني التشتُّت بسبب معضلةٍ أكبر تتعلق بشعرة صوفي الصينية؛ لأن هذا هو ما حدَّدته، رغم رأي أخي المخالف لذلك. كنت بحاجةٍ لأقرر ما إذا كنت سأقتلعها أم لا، فإذا ما تركتها حيث هي فربما تسقط أثناء مشاجرةٍ مع طفل آخر في الملعب ولن يعتقد أحد أنها كانت متصلةً برأس صوفي في أي وقت.

مع ذلك، كانت رؤية الشعر الأسود ينمو وسط خصلات صوفي الشاحبة من الأشياء التي تتوقَّع عادةً أن تجدها فقط في كتابٍ طِبي أو كتاب «جينيس للأرقام القياسية العالمية». وإزالتها من بيئتها الطبيعية يبدو أمرًا مؤسفًا. قررت اتخاذ مسار آخر وأنا أُشكِّل رأيًا عن نتْفها؛ سوف أجمع شهودًا.

قالت جارتي بعد أن اصطحبتُ صوفي إلى منزلها وأريتُها رأس الطفلة: «هذا مذهل. بالتأكيد يجب عليك اقتلاعها.»

وقالت أخت زوجي التي كانت محطَّتَنا التالية: «لم أرَ قط شيئًا مثل هذا. يجب عليكِ تركها.»

قالت والدتي بعد وصولها من كاليفورنيا لزيارتنا: «لا أستطيع أن أرى أي شيء.» كانت تجلس على الأريكة واضعةً صوفي في حِجرها ومباعدةً بين شعيراتها بإصبعها، وكانت عيناها متضخِّمتين بسبب النَّظَّارة. «أعتقد أنكِ تختلقين الأمر.»

جعلتْني أمي أتسرَّع في قراري؛ فقررت نتْفها. وبعد سحبةٍ سريعة، وضعتُ الشعرة في كيسٍ بلاستيكي وحشرتُها في رفِّ كُتُبٍ في مكتبي. إنه شعور مروِّع وسخيف، وبالتأكيد

لست معتادةً على القيام بهذا الأمر، ولكني قلت لنفسي إنه من نوع الأشياء التي تُفعَل مرةً واحدةً في الحياة ومن الغرائب العلمية، فضلًا عن كونه أمرًا من سخرية القدر في ضوء مقاطعتنا. بدا السيد تشانج دائمًا جزءًا غامضًا من التاريخ القديم، ولكن ها هو بشحمه ولحمه — إذا جاز التعبير — يُنبت نفسه من فروة رأس صوفي بهتاف فرحٍ أخير. لن نرى أي شيءٍ من هذا القبيل مرةً أخرى.

بعد بضعة أيام، وجدتُ شعرة صينية أخرى في شعر صوفي، سوداء وواضحة كالأولى؛ فقرَّرت ترْكها وشأنها. لقد حصلتُ على دليلي. هذه المرة، يمكن للسيد تشانج أن يحظى بمُتعته.

ثَمَّةَ فوائد للعيش دون المنتجات الصينية؛ فقد مرَّت أسابيع دون الشعور بعذاب الخطو على لعبةٍ صينية ذات حوافَّ صُلبة بِقَدَمِي عارية، وهو الإحساس الذي كنتُ أشعر به عادةً مرةً واحدة على الأقل في الأسبوع وأنا أمشي بسرعةٍ عبر غرفة المعيشة. ثَمَّةَ فوضى أقل في المنزل؛ حيث إنه بعد أن جمعتُ اللعب القديمة والملابس ووضعتها في سلة التبرعات لم أُعبِّئ المكان مرةً أخرى بالبضائع الصينية الجديدة. وشعرت بالقوة عندما اكتشفت أنني لست مقيَّدة تمامًا عن شراء المنتجات من أجل التمتُّع بعيد الفصح؛ فاشتريت بيضًا مكسيكيًّا مليئًا بقصاصات النثار ويأتي في صندوقٍ مغطًّى بعباراتٍ مشجِّعة مثل «قل لا للمخدرات»، و«قل نعم للتعليم». كان لدينا لعبةُ مطاردة بيض عيد الفصح ببيض مكسيكي وبعض من البيض البلاستيكي الصيني المتبقي من العام السابق. كان عيد الفصح — أول عطلة دون منتجاتٍ صينية في هذا العام — ناجحًا.

مع ذلك، واجهتُ مشكلةً جديدة تتعلق بالمقاطعة؛ إذ لم أكن أستطيع الرؤية في الليل عندما كنت أعمل في مكتبي؛ فقد انطفأ مصباح مكتبي القديم، وبسبب نقص المصابيح في منزلنا، لم يكن لديَّ مصباح بديل لنقله من غرفةٍ أخرى ليأخذ مكانه؛ لذا ظَلِلْتُ جالسةً في الظلام في الليل بينما أسعى جاهدةً للوفاء بموعد نهائي وأعتمد على وهج شاشة الكمبيوتر في تسليط الضوء على أوراقي. جرَّبتُ سلسلة من الحلول، منها التركيز المكثَّف بعيني وإسناد مصباح يدوي إلى بعض الكتب بحيث يُلقي شعاعه على دفتري، ولكن هذه الحلول غير مُرضية على الإطلاق. أحتاج إلى مصباح، والمصابيح مصنوعة في الصين، أو هكذا عرَفتُ بعد بضع جولاتٍ كئيبة في المتاجر المحلية في وقت ما بعد الظهيرة.

ثم حدثت معجزة صغيرة وأنا أُقلِّب بِكَسَلٍ صفحات منشور تسويقي في صباح أحد الأيام؛ إذ لمحتُ مصباحًا لطيف المظهر ذا سعرٍ معقول. كان وصفه يفتقد الكلمة الواشية «مستورد»، التي تعلمت أنها كلمة المنشور التسويقي المرادفة لعبارة «صنع في الصين»، فطلبتُ رقم خدمة العملاء وسألتُ عن بلد منشأ المصباح.

أخبرني مندوب خدمة العملاء: «الولايات المتحدة الأمريكية.»

كادت سماعة الهاتف تقع من يدي.

ثم قلت: «سوف أشتريه.»

المصباح عادةً ليس سببًا للاحتفال، ولكني قفزت من كرسي مكتبي وتوجهت مسرعةً إلى الباب الأمامي بعد بضعة أيام عندما دخلتْ شاحنة بُنِّيَّة تابعة لهيئة البريد الأمريكية إلى مكان إيقاف السيارات أمام منزلنا. وفي الداخل، مزقت الصندوق لفتحه ونثرت حبوب الستيروفوم في جميع أنحاء أرضية غرفة المعيشة. ولكن الشيء التالي الذي رأيته أوقفني فجأة. كان يوجد داخل الجزء العلوي من الصندوق كيس بلاستيكي شفاف يحتوي على قطعة رقيقة من المعدن المنحني. وعلى الجانب الخارجي من الكيس، كان مكتوبًا بحروف سوداء كبيرة عبارة «صنع في الصين». أُحْبِطت قليلًا. بل أُحبِطت جدًّا.

جثمت للتحقُّق من الجانب الخارجي للصندوق. كان مكتوبًا «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية». حسنًا، ليس تمامًا، على ما أعتقد. وبقلبٍ مُثقَل زحفت في أرجاء أرضية غرفة المعيشة لجمع قطع الستيروفوم حتى أستطيع أن أُعيد تغليف الصندوق. وكتبت على قسيمة الارتجاع أنني أعيد المصباح لأنه لا يُطابِق الوصف؛ إذ إنه وُصِف بأنه أمريكي. ثم دفعت الصندوق بجانب الباب الأمامي حتى أستطيع أن أعيد إرساله في وقت لاحق من هذا الأسبوع، فلست أملك القوة لإعادته في هذه اللحظة.

مرت بضعة أيام. وبقي الصندوق في مكانه بجوار الباب. وأصبح مكانًا مناسبًا لرمي البريد غير المفتوح وسُترات الأطفال. كنت أقول لنفسي إنني ليس لديَّ وقت لإعادته، ولكن الحقيقة هي أنني كنت أتساءل إن كان ينبغي إبقاء هذا الشيء. ربما كان استخدام الأجزاء الصينية هو السبيل الوحيد أمام الشركة التي صنعت المصباح — أو معظم المصباح على أي حال — لتستطيع تقليل التكاليف والاستمرار في العمل. ربما من دون قليل من العناصر الصينية هنا وهناك ستُفلس الشركة تمامًا، أو تنتقل إلى الصين وتقيم مشاريعها التجارية هناك، مثلما يفعل الآخرون جميعًا.

«احتفظي به!» قالها كيفن الذي كان يستمع بنفاد صبرٍ إلى حديثي.

لا يمكنه التأثير على قراري، لكنني أعرف مَن يستطيع. بحثت عن رقم هاتف صانع المصباح في لوس أنجلوس، وطلبته لأشرح مأزقي. تشكَّك الرجل في الشركة التي صَنَّعَت المصباح في البداية، لكنه بعد ذلك تحمَّس وأعطاني درسًا سريعًا في المصابيح، فقال لي إنه كان يوجد مئات من صُنَّاع المصابيح الأمريكيين منذ عقد أو نحو ذلك، منهم ٤٠ أو أكثر في جنوب كاليفورنيا وحدها. واليوم، لا يمكنه ذكر سوى أربعة أو خمسة في البلد بأكمله، هذا وَفْقَ قوله.

وأضاف: «يرجع السبب إلى الصين بنسبة ١٠٠ بالمائة تقريبًا.»

وبقيتْ شركتُه لأن أسرة كانت تملكها — وليس مساهمين منتظرين للأرباح — ولأنها متخصصة في المصابيح الكبيرة التي لا يمكن نقلها بسهولةٍ في حاويات البضائع. وقدَّم لي تقرير حالة عن شركات المصابيح المتبقية في الولايات المتحدة، مشيرًا إلى أن شركة راقية في ميامي «أُكِلَت حِصَّتُها السوقية عن طريق الصينيين» الذين يُعَدون ماهرين في النُّسَخ المقلدة الرخيصة. وسألتُه عن الجزء الصيني في صندوق مصباحي، فأخبرني بأن ذلك يرجع إلى العدد الكبير من المصانع التي أُغلِقَت؛ إذ لم تعودي قادرةً على الحصول على مكوناتٍ أمريكية الصنع. وأشار أنه على سبيل المثال لم تَعُد مفاتيح الإضاءة تُصنَّع في الولايات المتحدة على الإطلاق.

وأضاف: «عند مرحلةٍ معينة ستُضطرين لابتياع القطع من الخارج.»

أنهينا المكالمة، وجلست أفكِّر في المصابيح. ربما ما سأقوله ليس كشفًا بالغ الأهمية، ولكن من الغريب التفكير في أنه لم يَعُد يوجد مصباح أمريكي الصُّنع، على الأقل ليس بالمعنى الدقيق للكلمة. ربما كان المصباح القابع في الصندوق بجوار الباب على الأرجح مصباحًا أمريكيًّا إلى أقصى درجة ممكنة في الوقت الراهن، ولكنه — كما هي حال ابنتي صوفي — منتج مختلط؛ حيث تسهم الصين بأجزاء أساسية فيه. وشعرت بالشعور الحزين نفسه عندما أدركت أن أحذية التنس الأمريكية أصبحت من الماضي. شعرت بشيءٍ ينسلُّ من بين يديَّ، لكنني لست متأكدة من ماهيته.

احتفظتُ بالمصباح. وقرَّرت أن عبارة «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» على الصندوق الخارجي تتفوَّق على عبارة «صنع في الصين» الموجودة في الداخل. وهو ليس قرارًا مُرضيًا تمامًا. كنت أتمنى لو كان لديَّ كتاب لقواعد المقاطعة أسترشد به؛ لأن إحدى مشكلات وضع القواعد ارتجالًا أثناء خوض المقاطعة تتمثَّل في أنك لا تتأكد أبدًا مما إذا كنت تتخذ القرار بسبب ملاءمته للموقف أم بسبب قناعاتك. وفي كلتا الحالتين،

لا يوجد وقت لأُسهب في التفكير عن المصباح؛ فكيفن يُهدِّد بالتمرُّد بعد فقدان النظارة الشمسية البديلة التي أحضرتْها سكرتيرته. وقدَّم إعلانًا يُنذِر بالخطر؛ فأشار إلى أنه يريد شراء حوض سباحة قابل للنفخ يوضع في الفناء الخلفي للأطفال. إنه لم يقل فحسب إنه «يريد» شراء حوض سباحة لهم، ولكنه «سيشتري» حوض سباحة لهم، وهي عبارة لا تُحمَد عقباها إذا كنت تعلم — مثلي — مِن أين تأتي أحواض السباحة القابلة للنفخ هذه الأيام.

الفصل الرابع

رفض المنتجات الصينية

أتذكَّر اللحظة التي عرَفتُ فيها أنني أردت أن أتزوَّج كيفن. كنت أعرفه منذ بضعة أشهر. كنا جالسَين على الشاطئ في وايكيكي مع صديقة مشتركة، وكان كيفن يُلاعب طفلًا كان قد جاء يتمشَّى عبْر الرمال من عند دثارٍ مجاور لنا مفروش على الشاطئ. كان كيفن والولد الصغير يلتقطان المحار من الرمال ويُقرِّران إذا ما كانت جيدة بما فيه الكفاية للاحتفاظ بها، وفي هذه الحالة يضعانها على الكومة، أم مقززة، وفي هذه الحالة يُلقيان بها إلى البحر.

كانت صديقتي تتحدَّث بصوتٍ رتيبٍ عن مشكلاتها مع صديقها بقصةٍ مليئة بالحسرة، ولكنني اكتشفت أنني لا يمكنني التركيز على ما كانت تقول لي. كنت مشغولةً بسلوك كيفن الودود مع الطفل، الذي كان يُطلِق صرخةَ فرحٍ في كل مرةٍ يعلن فيها كيفن أن المحارة «مقززة» ويقذفها بإثارةٍ كبيرة إلى الأمواج. كنت بالفعل قد ألقيت نظرة فاحصة على كيفن. كان لديه ضحكة تجعل الغرباء في المطاعم يجفلون، وحس دعابة مزعج، وافتقاد للوعي الذاتي سمح له بالسير في الحياة بتواضُع، وكانت جميع ملابسه قمصانًا باهتة من متجر الملابس المستعملة. وليس هذا وحسب، فقد كان يُشبه ستيف ماكوين، إلا إنه كان أفضل منه؛ لأنه كان يمتلك عينين خضراوين وطبيعة طيبة.

لم أكن أبحث عن الحب عندما وصلتْني دعوة في آخر لحظة من كيفن وصديقتنا المشتركة للانضمام إليهما في رحلة منخفضة التكاليف إلى هاواي. كنت أُعوِّل على أسبوع طائش أستمتع فيه بأشعة الشمس والمشروبات التي تحتوي أكوابُها على مظلات. في هذا الوقت، وأنا أجلس على منشفتي وأتظاهر بالاستماع إلى صديقتي الحزينة، طرأ على ذهني أن شيئًا خطيرًا كان يحدث. أدركت أن الرجل الذي يمكن أن يمنحني حياة سعيدة — شخص لا أكاد أعرفه — كان يثب فرحًا على الرمال على بُعد بضع أقدامٍ مني. كانت

المشكلة هي أن كيفن لم يكن يعرف أن بوسعي منحه حياةً سعيدةً أيضًا. ومن مكاني هذا على الرمال عزمت على الشروع في إقناعه بذلك. استغرق الأمر ما بدا لي وكأنه عُمرٌ كامل حتى يعود إلى رشده ويطلب مني الزواج منه؛ لقد استغرق أسبوعين. سامحتُه على استغراق هذا الوقت الطويل، ثم تزوجنا، ولم أنظر إلى الوراء قط.

من الصعب التوفيق بين ذكرى كيفن باعتباره شبيه ستيف ماكوين صاحب حس الدعابة الرائع على الشاطئ والرجل الغاضب الواقف أمامي في ممر أدوات السباحة في متجر تارجت. لا، ليس هذا صعبًا، بل إنه مستحيل. ظل جبين ستيف ماكوين موجودًا، ولكن الفكاهة والصبر في ذلك اليوم على البحر اختفت مثل حلقةٍ من الدخان بدَّدتْها الرياح. كانت نظرة كيفن في وجهي في صباح ذلك السبت مليئةً بالنكد؛ فبدا على الأرجح أنه سيرمي الصدف «على» الأطفال وليس معهم. ليس ذلك وحسب؛ فقد لاحظت أن لديه حَوَلًا فظيعًا في عينيه. من الممكن حقًّا أن تفيده نظارة شمسية جديدة، كما كان يشير لي في حِدَّةٍ كل صباح على مدى الأسابيع القليلة الماضية.

أومأ بنفاد صبرٍ تجاه صندوق كبير من الورق المقوَّى مزين بصورة لعائلة أنيقة تجلس باحتشام في حوض سباحة قابل للنفخ. كنت قد تمنيت لو نسي أمر حوض السباحة الصيني للأطفال، ولكن ذاكرة كيفن تشبه ذاكرة الفيل.

سأل: «هل يمكننا الحصول على هذا؟»

كان سؤاله أشبه بسؤال طفل؛ لذلك أعطيته جوابًا يليق بطفل.

رددت: «سوف نتحدَّث عن ذلك لاحقًا.»

طالَبَ بأن يعرف: «لماذا ليس الآن؟»

إنه سؤال غير منصف ذو إجابة واضحة.

قلت: «أنت تعرف لماذا. لا تجعلني أَقُل لك لماذا.»

أَطبَق فكَّيه وعقد ذراعيه، موضحًا لي أنه مستعد للانتظار كل الوقت الذي قد يستغرقه إخباري إياه السبب. توقفتُ حتى تخطَّتْنا أمٌّ وطفلها قبل أن أهمس له بِردِّي: «لأنه من الصين، كما تعلم بالفعل.»

غيَّرت الموضوع وأمسكت بيدَيِ الطفلين. لم تكن صوفي واعيةً بالتوتر المحيط بنا، ولكن ويس كان يُراقبنا باهتمام. كان يعلم مَن هو الشخص الشرير ومَن هو الشخص الطيب في هذه المعركة، ولست متأكدةً من أنني أحببت دوري.

سحبت الأطفال بعيدًا وقلت: «دعونا نُلقِ نظرة على اللُّعَب.»

مرَرْنا في طريقنا بكرات شاطئ صينية وقوارب صينية، ولعب استحمام صينية ودِلاء رمل صينية، وأدوات غطس صينية، ومظلات شاطئ صينية. كنت أدرك أن الصيف موسم صيني صِرف. بقي كيفن يتسكَّع في ممر أدوات السباحة، ناظرًا في حزنٍ إلى صورة الأسرة المتجمعة معًا في حلقة الفينيل الصينية.

قسم الألعاب ليس مكانًا جيدًا لقضاء بعض الوقت خلال مقاطعة المنتجات الصينية، ولكننا جئنا هنا بحكم الضرورة. تَلَقَّى ويس دعوة إلى حفل عيد ميلاد تبدأ في غضون ساعات قليلة. انقبض قلبي عندما لمحت المظروف في خزانته في المدرسة، ولكنني كنت أتوقَّع هذا النوع من المتاعب. تُعَد حفلات أعياد الميلاد مشكلة لأنها تقتضي شراء اللعب، واللعب تأتي من الصين، فأجَّلت البحث عن لعبة لأَبعدِ وقت ممكن، خوفًا من الهزيمة شبه المؤكدة التي كنت أعرف أنها تنتظرني. إنها حفلة في الفناء الخلفي للمنزل، وظَلِلْت متابعةً لتقارير الطقس، على أمل أن يُنقذني المطر.

عندما أقول إن اللُّعَب من الصين فإنني لا أقصد أن بعض اللعب أو حتى معظم اللعب من الصين. أعني أنه في ذلك الصباح، في قسم ألعاب الأطفال في متجر تارجت، كانت كل شاحنة وبندقية وراديو ودراجة نارية وتنين وديناصور ومجسم لبطل خارق؛ جميعها صينية. سمحت للأطفال أن يلعبوا باللُّعَب الصينية الرديئة الجودة وأنا أُقلِّب الصناديق وأقرأ الملصقات بأسرع ما يمكن. أصابني الإرهاق بعد ١٥ دقيقة. وتطلَّع ويس في وجهي، قلقًا.

وسألني: «هل جميعها من الصين؟»

رددت عليه: «كلها من الصين.» وشاهدته يبتئس، فكذبتُ قليلًا لرفع معنوياته: «لا داعي للقلق. لقد بدأنا للتو. لا يمكن أن تكون جميعها صينية.»

جربنا الممرَّ التالي، وحالفَنا الحظ؛ فعندما التففنا عند الزاوية قابلْنا جدارًا مليئًا بألعاب من إنتاج ليجو؛ شاحنات ورافعات وسيارات إسعاف وفرسان مدرعة وروبوتات وقوارب وسيارات شرطة من إنتاج ليجو. ليس ألعاب ليجو المستطيلة المملة التي عرفتُها في فترة طفولتي، ولكن مجموعات ألعاب ذات موضوعات بُطُولية، بل عنيفة تتضمَّن ديناصورات وسيارات الكثبان الرملية التي تجعل قلب أي صبيٍّ يَخفق بشدة. ليجو «الدنماركية» الشهيرة. على الأقل اعتقدتُ أنها كانت دنماركية. التقطت صندوقًا يحمل صورة لشاحنة إنقاذ من الخارج ونظرت إلى الحروف الصغيرة المطبوعة عليه. حينها علمت أن ألعاب ليجو ليست دنماركية كما كنت أعتقد.

«الأجزاء مصنوعة في سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية والدنمارك» قرأتها بصوتٍ عالٍ لكيفن، الذي تخلى عن غضبه بسبب حوض السباحة الصيني وتجوَّل في المكان لفحص الصناديق معنا. هززتُ كتفي في لامبالاة.

وقلت: «حسنًا، على الأقل ليست صينية.»

تجهم كيفن بعد فحص البطاقة الملصقة على صندوق آخر.

وقال: «لن تحبي هذا. أجزاء مصنوعة في الدنمارك ... والصين.»

لقد حصلنا بالفعل على شاحنة الإنقاذ السويسرية الأمريكية الدنماركية؛ لذا ملصق الدانماركية-الصينية لا يمثل كارثة، ولكنه ليس أخبارًا جيدة أيضًا، فقفزت إلى استنتاجٍ متسرع من عبارة الملصق الخاصة بالمكونات الصينية: بمجرد أن يجرب هؤلاء الدنماركيون طعم إنتاج ألعاب ليجو على أيدي العمال الصينيين السريعي الحركة الذين لا يطالِبون بأجورٍ لائقة وعطلة لستة أسابيع كل صيف، فإنهم سيتخلَّوْن عن مصانعهم الأوروبية، ويبنون سريعًا بعض المصانع الصينية الجديدة، وسيتركونني وحيدة في البرد والعراء. تملَّكني الذُّعر. ماذا لو نَقلتْ ليجو فجأة إنتاجها بالكامل إلى الصين في الأشهر المقبلة في خطوة مفاجئة لخفض التكاليف؟ هل يجب أن أمتلك مخزونًا من ألعاب ليجو السويسرية الأمريكية الدنماركية للاستعداد لدعوات حفلات أعياد الميلاد المحتملة في المستقبل التي ستظهر في خزانة ويس في الأشهر المقبلة؟ هل سأُضْطَرُّ إلى استخدام المصنوعات المنزلية كهدايا عيد ميلاد لأصدقاء ويس؟ هل يوجد رف في متجر في مأمن من قبضة الصين؟ وماذا عن الدنماركيين؛ هل سيُلقون بإنتاجهم إلى غياهب النسيان مثلنا نحن الأمريكيين؟

ثم أوقفتُ نفسي، وعدت إلى الواقع، وتبدَّد ذعري بنفس السرعة التي ظهر بها. طرأتْ على ذهني فكرة أنه سيتوافر لديَّ دائمًا خيارات أخرى حتى لو انتقلتْ مجموعة ليجو فجأةً للصين. على سبيل المثال، أستطيع إضاعة دعوة حفل عيد ميلاد أو أدَّعي أننا لم نحصل عليها من الأساس، أو يمكننا أن نُقدِّم لأصدقاء ويس بطاقات هدايا مدفوعة مقدمًا كهدية، وهي هدية تافهة بالنسبة إلى طفل يبلغ من العمر خمسة أعوام — لا شك في ذلك — لكن من الناحية الفنية لا تزال هدية، وهدية ليست صينية. ثم هناك الكتب، وهي هدية أخرى عديمة القيمة في عيون أي صبي يبلغ من العمر خمسة أعوام — رغم أنها هدية قيِّمة — ولا تزال تُطبَع في الكثير من الأماكن إلى جانب الصين وتُمثِّل بديلًا مناسبًا إذا احتجنا إليها. لا يوجد سبب للقلق.

لذا وضعت الشاحنة السويسرية الأمريكية الدنماركية في سلة مشترياتنا، وغمرني شعور بالسعادة والنشاط. ربما لا يحالفني الحظ في الأيام القادمة، لكنني الآن فررت بنجاح من قبضة الصين المُحكَمة على صناعة الألعاب في العالم. كانت لحظة مثيرة؛ فمنذ دقائق قليلة كنت مشوَّشة الذهن بسبب شعوري بالذعر، وفجأةً إحساسي بالرضا عن نفسي يدير رأسي. والتفتُّ إلى الأطفال بإعلانٍ مفاجئ.

قلت لِويس: «يمكنك اختيار أي لعبة تريد كهدية خاصة. ما دامت ليست من الصين.»

ثم توقفت. وأضاءت ابتسامة ويس في وجهي.

ثم أضفت: «أقترح عليك أن تفكر في لعبة من إنتاج ليجو.»

فأشار إلى صندوق يحوي شاحنة إنقاذ، اللعبة نفسها التي أحضرناها لصديقه.

ثم قلت بزهو: «والآن شيء لأختك.» وتوجهنا إلى قسم ألعاب البنات.

تبدَّد حظي في مَمرِّ ألعاب البنات؛ إذ كانت ألعاب المهر الصغير، وكعكة الفراولة الصغيرة، والعصا التي ينتهي طرفها الأعلى برأس حصان والتي يمكن ركوبها في أرجاء المنزل، وعشرات من دمى الأطفال، وحتى ألوان كرايولا المائية — التي تبدو بطريقةٍ ما أمريكية — كلها صينية. وحتى الدنماركيون خذلوا صوفي؛ فهي تمتلك بالفعل العدد القليل من لعب ليجو للأطفال التي رأيتها في مَمرِّ ليجو، وتراجعت عن شراء المجموعات الأخرى، التي تأتي بتحذيرات عن خطر الاختناق للأطفال دون سن ثلاث سنوات. تخلَّيْنا عن شراء لعبة لصوفي وتوجَّهنا نحو أمين الصندوق لدفع الحساب. شعرت بالسوء حيالها، ولكنها لم تكن تدري أنها تفتقد أي شيء، وكانت تقرقر بسعادة، وتشير بإصبعها نحو كل شيء، كما لو أننا في نزهةٍ ما غريبةٍ وأنها لا يمكن أن تُصدِّق حظها في أنها دُعيَت لهذه الرحلة. وعندما نصل إلى المنزل فإنها سوف تواصل من حيث توقفت، وهو اللعب بحفنةٍ من العِصِيِّ الخشنة والمتربة التي جاء بها ويس من موقع بناء في الشارع.

قرأت قبل أيام أن الصين قد أضافت ثمانية ملايين وظيفة تصنيع جديدة في السنوات الأربع الماضية، في حين أن الملايين من الأمريكيين والأوروبيين فقدوا وظائفهم. وبعد رحلتنا إلى قسم الألعاب، من الصعب تصديق أنها ثمانية ملايين فقط.

وقفت في الهواء المعطَّر البارد في قسم ملابس السيدات، في محاولة يائسة لأنْ أشعر بالسوء حيال ما وجدتُه كامنًا بين رفوف الثياب: استحواذ صيني على صناعة الغزْل والنسيج في العالم. من المفترض أن يكون هذا اكتشافًا خطيرًا، ولكن رغم محاولتي القوية فإنني لم

أستطع أن أشعر بالسوء، على الرغم من أن القلق كان هو الدافع وراء هذه الرحلة إلى المركز التجاري في المقام الأول. لقد كنت قلِقةً بشأن المقالات التي انتشرت على صفحات الأعمال في المجلات في الآونة الأخيرة: عمال الغزْل والنسيج من كارولينا الشمالية إلى إيطاليا حتى أفريقيا يفقدون وظائفهم، بينما تسحق الصين مصانع الخياطة في العالم وتدفن المنافسين. أعضاء الكونجرس يتذمَّرون، وأوروبا تشجب وتدين، والعمال الأفارقة — الذين يكادون يتضوَّرون جوعًا حتى في الأوقات الجيدة — يواجهون خطر فقدان المبلغ الزهيد الذي يكسبونه من خياطة القمصان والملابس الداخلية للرجال.

والصين لا تكتفي بالاستحواذ على صناعات الجوارب والملابس الداخلية وقمصان البولو؛ فقد قرأت أن الصين تتحرَّك بسرعةٍ نحو الدخول إلى عالم تصنيع الملابس ذات العلامات التجارية الشهيرة. ملابس ذات علامات تجارية شهيرة صينية؟ قلت لنفسي عندما قرأت عن هذا الأمر إن هذا ما كان ينبغي أن أراه، وهو ما يُفسِّر مجيئي إلى قسم ملابس السيدات. أنا لست هنا للتسوُّق؛ أنا هنا في مهمة لتقصِّي الحقائق، لجمع الأدلة عن استيلاء الصين على قطعةٍ أخرى من عالمي، ومن العالم.

وجدت كثيرًا من الأشياء التي أخافتني؛ أربعة من أصل أول خمسة أشياء تفقَّدتها مصنوعةٌ في الصين، من بينها قطعتان بتصميم قديم من سترات شانيل بسعر ٢٥٠ دولارًا للواحدة، فألقيت نظرة فاحصة على الغُرزات، بحثًا عن دلائل على العمل المزيَّف، ولكن لم يكن يوجد خطأ في هذه السترات؛ فبدت كأنها شيء يمكن أن ترتديَه جوينيث بالترو أثناء نزهة في أكتوبر في أرجاء سنترال بارك. كانت هناك تنانير حريرية صينية، وسراويل صينية متغضنة، وبلوزات قطنية صينية خفيفة كالهواء. قلت في نفسي إن هذه هي مشكلة المزيد والمزيد من الأشياء التي تضعها الصين في طريقنا، وأنا أتحسَّس كُمَّ البلوزة الصينية الخفيفة بإصبعي. لا يوجد خطأ فيها.

بعد ذلك توقَّفت للنظر إلى معطفٍ واقٍ من المطر أرجواني اللون من تصميم رالف لورين، يبلغ ثمن هذه القطعة من العمل اليدوي الصيني ١٧٨ دولارًا. يجب أن أشعر بالغضب من السيد لورين لجرأته على طلب هذا المبلغ الكبير مقابل سترة مخيطة بأيدٍ صينية متعَبة ربما لا ترى ١٧٨ دولارًا في الشهر. ولكن هناك هذا العطر الرقيق في الهواء والموسيقى الناعمة التي تنبعث من مكبرات الصوت الخفية، فوجدت صعوبةً في الشعور بالغضب من أي شيء. لا يمكنني أبدًا أن أُقرِّر هل مراكز التسوُّق أماكن تبثُّ السعادة أم الإحباط، ولكني اليوم وصلت على نحو حاسم للجانب السعيد. انسلَّ القماش الأرجواني

من بين أصابعي، ناعمًا مثل الحرير. تعيش اليدان اللتان صنعتا هذه السترة على بُعْد آلاف الأميال. وفجأة، لم أعد أتذكَّر سبب استياء الإيطاليين، أو كَمْ من آلاف الأمريكيين فقدوا وظائفهم في مجال الخياطة منذ يناير، على الرغم من أنني كنت أستطيع ذِكْر هذا العدد على الفور حتى أمس. من الصعب تخيُّل البؤس عندما تتحسَّس أصابعك أقمشة فاتحة الألوان لامحًا نفسك في المرايا المضاءة بإضاءات خافتة. حاولت تأنيب نفسي على هذا الاستمتاع الكبير، ولكني لم أكن قادرةً على هذا.

لم تنتهِ الصين من مهمة السيطرة على قطاع الملابس في العالم. شققتُ طريقي عبْر الرفوف ودوَّنت ملاحظات حول مَن يصنع ماذا. كانت عبارة «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» تظهر بين الملابس بانتظام، جنبًا إلى جنبٍ مع ملصقات من سنغافورة وتركيا والمكسيك. ولم أستطع أن أُقرِّر هل ينبغي أن أعتبر ملابس «صنع في هونج كونج» صينيةً أم لا. أتذكر اختفاء المنتجات البريطانية من المكان قبل بضع سنوات، ولكني لست متأكدةً مما حدث بعد ذلك. ثَمَّةَ تنانير وفساتين من تايوان، التي بالتأكيد ليست جزءًا من الصين، وفقًا للتايوانيين، ولكنها بكل تأكيد جزء من الصين إذا طرحت السؤال على الصينيين. وتوجد رفوف من الكنزات الصوفية من جزر ماريانا الشمالية تُعلِمك بطاقاتها بأدبٍ أنها تتبع الولايات المتحدة.

بعض البطاقات غير مُفْصِحَة؛ فَثَمَّةَ بطاقة مُلصَقة على إحدى التنانير تقول: «مجمعة في الولايات المتحدة الأمريكية» تاركةً لي تخمين مصدر النسيج. وتُقدِّم ملصقات أخرى إشاراتٍ متضاربةً عن منشئها؛ فيقول الملصق الموجود على سترةٍ ما إنها «مُحاكة في منغوليا» و«متمَّمَة في الصين»؛ فأين إذن صُنعت هذه السترة؟ ماذا تعني كلمة «مصنوعة» على أي حال؟

في كل مرةٍ أرى فيها بطاقة تجارية من مكانٍ آخر غير الصين، أتساءل: هل العامل الذي خَيَّط البطاقة في مكانها من الياقة أو في منطقة الحزام فقد وظيفته بسبب منافس صيني في الأسابيع أو الأشهر التي مضت منذ غادرتْ قطعة الملابس المصنع؟ إنها فكرة مؤسفة ومعقولة، وفقًا لما فهمتُه من قراءتي للصحف في الآونة الأخيرة.

ألقيت نظرة خاطفة على امرأة ضخمة الحجم تقلب في الرفوف على بُعد بضع أقدامٍ مني. وكانت تُحرِّك الشماعات على طول الرف بوتيرةٍ متقطعة وتفرقع العلكة بقوةٍ بينما تتفقَّد البضائع. بدت لي من النوع الجاد، واعتقدتُ أنني أعرف ما ستقوله لي لو كنت جريئةً بما فيه الكفاية للنقر بإصبعي على كتفها، وألتمس معذرتها، وأسألها عما

تعتقده حيال كل هذه الملابس الصينية، وهل تُبشِّر بالخير أم بالشر فيما يخص مستقبلنا الأمريكي الجمعي.

كنت أودُّ أن أسألها: «ألا تقلقين بشأن ما يتجه نحوه كل شيء؟ إلى أين تعتقدين أن الصينيين سوف يتوجهون بعد ذلك؛ إلى إنتاج السيارات؟ تصنيع الطائرات؟ ما الذي سيتركونه لبقيتنا؟ هل سبق لكِ أن قلقتِ من أن تستيقظي في صباح أحد الأيام ولديكِ خزانة مليئة بملابس ذات علامات تجارية صينية شهيرة ورخيصة ومائة زوج من الأحذية الصينية ولكن دون عمل، ولا مستقبل، ولا آفاق مستقبلية؟»

أولًا ستتوقَّف عن مضغ العلكة، ثم تنظر إليَّ من أعلى لأسفل بالفطنة الباردة نفسها التي كانت تُعاين بها في هذه اللحظة رفَّ تنانير دونا كاران، في محاولةٍ لتقرير هل ينبغي عليها استدعاء رجال أمن المتجر أم لا. وسرعان ما ستدرك أنني لا أمثل خطرًا وتتعامل معي دون استدعاء الدعم.

كانت ستقول: «أنتِ تقلقين أكثر مما ينبغي.»

وربما يُلقي إليها ذلك الجزء بداخلي، الذي يجادل من أجل الجدل فحسب، بعبارةٍ سريعةٍ مضادة مفادها أنها ربما تقلق أقل مما ينبغي.

تركت المتجر دون شراء أي شيء.

بعض الملاحظات عن مخاطر مقاطعة الصين:

ظل درج الخردة في المطبخ عالقًا ولا يُفتح لعدة أشهر. واعترف كيفن بأنه اشترى قطعة غيار صينية لإصلاحه ثم فقد هذا الجزء قبل أن تسنح له الفرصة لإصلاح الدرج. وعلى الفور، شعر بالندم على صراحته.

فقال بحزنٍ شديد: «أعتقد أنني لم يكن ينبغي عليَّ أن أقول لكِ هذا؛ إذ إنكِ من الآن فصاعدًا ستعلمين ما إذا أحضرتُ قطعة غيار صينية أخرى لمحاولة إصلاحه مرةً أخرى.»

كنا لا نزال نغلي الماء لتناوُل القهوة في الصباح، وظلت آلة إعداد القهوة الصينية المعطَّلة قابعةً على الطاولة، وقد تراكم الغبار على وعائها.

كنت أشعر بالذنب كلما أمسك طالب دراسات عليا صيني — والد صبي صغير في صف صوفي — الباب لي في مدرسة طفلَيْنا عندما أوصِّل الطفلين في الصباح. كنا نتبادل الابتسامات المهذبة، وكنت أقاوم رغبةً لديَّ في أن أقول له دون مقدماتٍ إنني أقاطع البضائع الصينية لمدة عام، لكن الأمر لا ينطوي على شيءٍ شخصيٍّ تجاهه.

بعد الإخفاق في شراء لعبة في متجر تارجت، اشتريت قماش تول أمريكيًّا وشريطًا مكسيكيًّا وخَيْط تنورة قصيرة زرقاء زاهية لصوفي. إنني لست خياطة خبيرة، ولكن العملية برُمَّتها استغرقت عشر دقائق من البداية حتى النهاية، ويجب أن أقول إنها كانت رائعة. عندما أمسكت التنورة القصيرة لقياسها على صوفي، انطلقتْ كالسهم سريعًا خارجةً من الغرفة، فطاردتُها ولفَفْتُها حولها.

«انزعي هذا عنها.» أمرني كيفن بعُبوسٍ عندما تتبَّع صوت صرخات الطفلة إلى غرفة النوم؛ حيث كانت صوفي تتلوَّى على الأرض وتحاول خلع التنورة القصيرة. أفترض أنها اعترضتْ على ارتداء التنورة القصيرة للسبب نفسه الذي رفضَتْ من أجله إبقاء شريط قماشي في شعرها: لأنني — والدتها — كنت أريد ذلك. في الظروف العادية، كان كيفن سيُشجِّع صوفي على الإعجاب بعملي اليدوي ويرجوها أن ترتديَ التنورة القصيرة لبضع دقائق احترامًا لي. وهذه ليست ظروفًا عادية؛ فقد كان ينظر إلى التنورة القصيرة على أنها بديل ضعيف للعبة حقيقية — لعبة صينية من متجر تارجت — ويرى أن تمرُّد الطفلة له ما يُبرِّره. خلعتُ عنها التنورة القصيرة. وبعد بضعة أيام، أعطيتُها لابنة صديقتي البالغة من العمر ثلاث سنوات. وعادت صوفي للعب بالعِصِيِّ.

في أحد الأيام في فترة الظهيرة في مركزٍ تجاري، تفحَّصت المعروض في متجر إكسسوارات، وهو المكان الذي بدا صينيًّا منذ لحظةِ وطأتْه قدماي، فوجدت على الرفوف أكواب مشروب صغيرة صينية رائعة، وحليات صينية للهاتف الخلوي على شكل تمثال بوذا، وحقائب صينية عليها صور بالأبيض والأسود لإلفيس، وظل عيون صيني، وأقراطًا دائرية صينية ضخمة بفضة وذهب زائفين، وخواتم لإصبع القدم صينية، وخواتم صينية تُغيِّر لونها وفق مشاعر مرتديها، وأوشحة صينية، وأحزمة جلدية صينية غير أصلية، وإطارات صور صينية. يُعَدُّ المتجر صندوق كنز من الخردوات الصينية، معظمها سيئ الذوق، ولكنها لا تُقاوَم تقريبًا بالنسبة إلى أي شخصٍ لا يشارك في مقاطعةٍ للصين لأن كل شيء رخيص إلى درجةٍ غير معقولة. لم أستطع أن أجد أي شيءٍ من أي مكانٍ غير الصين، سوى زجاجات طلاء أظافر أمريكي صغيرة بالألوان الأزرق والأخضر والأرجواني.

وَدِدْتُ قضاء مزيدٍ من الوقت في المتجر لتفحُّص المنتجات الصينية، لكنني أدركت أن البائعة تتطلَّع إليَّ في ارتياب. أعتقد أنه بدا لها من غير الطبيعي أن يظل شخص ما فترةً طويلة في مكانٍ مثل هذا دون شراء أي شيء؛ فرغم كل شيء، عندما يتقاضى متجر ثلاثة دولارات مقابل زوج من الأقراط الدائرية الصينية، فإنك لا تستغرق وقتًا للتفكير

فيما إذا كنت بحاجةٍ إلى زوج آخر من الأقراط أم لا، بل تشتريها فورًا؛ فأي عمل آخر لا يمكن فهمه. أعتقد أن البائعة ظنَّتْني سارقة معروضات في منتصف العمر، أنتظر الوقت المناسب لأُخفيَ شيئًا ما في حقيبتي؛ فكيف إذنْ يمكن تفسير سبب فشلي في ملء سلة المشتريات بأكواب المشروب وإطارات الصور؟ أو كيف تغاضيت عن زوجٍ من الأقراط بثلاثة دولارات؟

تركت المتجر، محاوِلةً أن أبدوَ رابطة الجأش، وهو المظهر الذي ينبغي أن أبدوَ عليه؛ نظرًا لأنني لم أفعل شيئًا خاطئًا. أبقيت خطواتي بطيئة ومدروسة حتى خرجت من الباب. وشعرت بعينَي البائعة ترمقانني بنظراتهما في كل خطوة أخطوها حتى خروجي من المتجر.

انضمَّ ويس إلى كيفن في مضايقتي من أجل حوض السباحة القابل للنفخ؛ فأشار إلى أن حوض شقيقته الصيني الذي اشترته من الصيف الماضي على شكل أرنب ومخصص للأطفال. همس كيفن لي أن علينا إحضار حوضٍ لِويس.

فقال بصوتٍ خفيض: «على جثتي أن يقضيَ الصبي الصيف دون حوض سباحة.»

توقعتُ أن الصين رائدة عالميًّا في الأزرار — فالأزرار صغيرة الحجم وغير مكلفة وبلاستيكية، ويمكنك وضع ملايين منها في حاوية شحنٍ واحدة — مع ذلك، لسبب غير مفهوم لم أجد عبوة واحدة من الأزرار الصينية خلال زيارتي لمتجر أدوات الخياطة. دفعت دولارًا واحدًا مقابل ثلاثة أزرار وردية مصنوعة في إيطاليا، التي هيمنت — إلى جانب فرنسا — على قسم الأزرار الموجود في متجر أدوات الخياطة ذي الأسعار المخفَّضة الذي كنت أزوره ذات أربعاء حار في أبريل. وتساءلتُ إلى متى ستحتفظ كلٌّ من إيطاليا وفرنسا بمكانتهما على القمة — على الأقل في هذا المكان — قبل أن تُنزلهما الصين بضعة مراكز.

في ظهيرة أحد الأيام أزال ويس ملصقًا من الجزء السفلي من إحدى ألعابه، ولصقه على ظهر يده، وجرى نحو الفناء الخلفي لِيُريَني إياه.

وقال وهو يريني يده: «أنا مصنوع في الصين.»

سألته: «هل كانت تلك فكرتَك؟»

فرد: «فكرة أبي.»

في معظم الأوقات، عندما يتذكَّر ويس المقاطعة، فإن روح الدعابة تنخفض لديه.

سأل ويس ذات ليلةٍ وهو في حوض الاستحمام: «هل يمكننا الحصول على واحدٍ آخر من هذا؟» وكان ممسكًا بقاربٍ بلاستيكيٍّ أخضر. ليس من المستغرب أنه مصنوع في الصين.

فأجاب كيفن، الذي كان يجلس على حافة حوض الاستحمام: «في العام المقبل. علينا أن ننتظر حتى بعد الكريسماس، حينها سنتمكن من شراء أشياء من الصين مرةً أخرى.»

قال ويس: «لقد اعتدنا شراء أشياء من الصين عندما كنا نعيش في منزلنا القديم.»

ردَّ كيفن: «وفي العام التالي، يمكننا شراؤها مرةً أخرى.» ورمقني بنظرة غيظ. وحاولت ألا ألاحظها.

أضاف ويس: «وبعد ذلك، لن نمتنع أبدًا، حسنًا؟»

كنت أعتقد أنني يمكن أن أُعوِّل على تعاطف والدتي، لكنها شخص لا يمكنك التنبؤ بتصرفاته أبدًا في أي موضوع، بما في ذلك سياسات مقاطعة الصين.

حين شكوت إليها من أن إيجاد بديل غير صينيٍّ جديد لنظارة كيفن الشمسية سيكلفني مبلغًا طائلًا على الأرجح، سألتني قائلةً: «ماذا كنتِ تتوقعين؟ لا يمكنكِ توقُّع أشياء مجانية في هذا العالم، خصوصًا إذا لم يَعُد عالمك يشمل الصين بعد الآن.»

كم شهرًا علينا عيشه دون منتجاتٍ صينية؟ ثمانية. ولكن مَن الذي يَعُد؟ سأقول لكم مَن: الجميع باستثناء صوفي والكلب.

اشتريت ورق تغليف شفافًا صينيًّا. كان خطأً بريئًا، وغامضًا، في البداية. عندما تفحَّصت عبوة ورق التغليف في المتجر كان مكتوبًا عليها «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية». بعد نصف ساعة، وأنا واقفة بجانب طاولة المطبخ، كانت العبارة المكتوبة بحروف صغيرة هي «صنع في الصين». وقفت في ذهول لعدة دقائق. ثم مددت يدي نحو حقيبة التسوُّق البلاستيكية، وأخرجت عبوة ورق التغليف الثانية، وأمسكتها لأعلى قريبًا من مصدر الضوء.

كان مكتوبًا على العبوة الثانية «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية».

أمسكت العبوتين إحداهما بجانب الأخرى. بدتا متطابقتين. الفتيات المبتسمة نفسها على الجانب، حافلة المدرسة الكرتونية الصفراء نفسها، وختم إثبات صحة الشراء نفسه. لا بد أنني تحقَّقت في المتجر من الملصق الموجود على العبوة الأمريكية الأولى، ثم سحبت العبوة الثانية، معتقدةً أنها أيضًا مصنوعة في الولايات المتحدة. وبعد عشر دقائق كنت في

المتجر، أبحث في عمق صفوف عبوات ورق التغليف البلاستيكي الشفاف المتربة. لم أكن أعرف كيف سأشرح للموظف أنني أرغب في استبدال عبوة بأخرى تبدوان متطابقتين في الظاهر. كنت آمل أن تطرأ على ذهني فكرة ما بينما أسير نحو الخزينة؛ كنت أبحث عن فكرةٍ مضحكة. المشكلة هي أنني لا أشعر بأنني مضحكة، إنما أشعر بالقلق؛ لأن كل عبوة أغلفة شفافة في هذا المتجر تبدو صينية. وأخيرًا وجدت عبوة أمريكية وحيدة في الجزء الخلفي في آخر الرف. كان تاريخ انتهاء صلاحيتها منذ شهرين ماضيين. قررت أن أُجرِّب حظي.

اقتربت من الخزينة بخوف. شعرت باحمرار وجهي عندما سألني الموظف — وهو صبي ممتلئ الجسم في العشرينيات من عمره يرتدي ثوبًا أبيض ضيقًا من البوليستر — عن مشكلة العبوة الأولى. لم أستطع التفكير في تفسيرٍ معقول لتبديل العبوتين؛ لذلك قدَّمت اعترافًا كاملًا. وأبقيت صوتي منخفضًا.

«أخذت عهدًا على نفسي بعدم شراء أي شيء مصنوع في الصين.» ثم أشرت إلى إحدى العبوتين وقلت: «هذه صينية؛ لذلك أودُّ استبدال هذه العبوة الأمريكية بها.»

كان شابًّا طيبًا. ابتسم وأومأ برأسه موافقًا وقال:

«رائع! استمري في هذا.»

لم أنتهِ من الاعتماد على طيبة الموظفين ذوي الوجوه الطفولية؛ فبعد بضعة أيامٍ اشتريت فرشاة أسنان صينية بدولار واحد من متجر بقالة. كرَّرت الأمر نفسه مثلما فعلت مع الأغطية البلاستيكية الشفافة الصينية. أدركت خطئي وأنا أُفرغ الأكياس في المطبخ، فجذبت مفاتيحي، وغادرت المنزل عائدةً إلى متجر البقالة. عند منضدة خدمة العملاء، أعطتْني فتاة مراهقة لا يعلو وجهَها أيُّ تعبيراتٍ استمارةَ إرجاع منتجات. كانت معظم الأسئلة روتينية — الاسم والمُنتَج وطريقة الدفع — ولكنني تسمَّرت عند السؤال الأخير: «سبب إرجاع المنتج؟» توجد بالاستمارة عدة سطور للتفسير في حال كنت ترغب في الإسهاب فيه. وضعت سن قلمي على الورقة، ولكن لسبب ما لم أستطع جعْله يكتب السبب: «لأن هذه الفرشاة مصنوعة في الصين.» تركت هذا الجزء خاليًا وسلمت الاستمارة مرةً أخرى للفتاة، على أمل أنها لن تلاحظ. ووضعت إيصال استلام البقالة الطويل بجانب الاستمارة على المنضدة.

كانت هذه الفتاة تأخذ عملها بجدية تامة؛ فمن موقع رؤيتي المقلوبة رأيتها تملأ الجزء الخاص بالتفسير بدلًا مني، فكتبت: «لا تريدها.»

ولا أعرف هل ينبغي أن أشعر بالقلق أم بالدهشة حيال افتقارها للفضول عن قراري بإعادة فرشاة الأسنان التي يبلغ سعرها دولارًا واحدًا. من ناحيةٍ شعرت بالامتنان لعدم وجوب تصريحي بالسبب الحقيقي لإعادة الفرشاة، ومن جهةٍ أخرى يجب أن يبدوَ طلبي لها غريبًا؛ لأنه غريب. إنه عجيب تمامًا؛ فأنا لديَّ «أسنان»، فم ملآن بها. والأشخاص الذين لديهم أسنان لا يعيدون فرشاة الأسنان. لقد أنفقت للتو ١٠٠ دولار على البقالة؛ هل من الممكن أن أكون في حاجةٍ ماسَّة إلى ذلك الدولار؟ ألا ينبغي على الأقل أن تنظر إليَّ نظرة ازدراءٍ أو تقلب عينيها لأعلى تعبيرًا عن الانزعاج حين أُشيح بنظري عنها، متسائلةً عما يتجه إليه هذا العالم؟

بدلًا من ذلك، فرقعت علكتها، وأعادت لبطاقة الائتمان الخاصة بي ١,٠٨ دولار، وأعطتني إيصالًا جديدًا دون أن تنبس بكلمةٍ واحدة.

حذرتْني السيدة سميدلي من المواقع الإلكترونية قبل أشهر.

قالت: «لا يمكن الاعتماد عليها. لا يمكن الوثوق بها.»

كنت واثقةً من أنها على حق، ولكن نظرات كيفن المستنكِرَة وعينَيه المصابتَين جرَّاء الشمس جعلتني في حاجةٍ ماسَّة للعثور على نظارة شمسية غير صينية له. مرت أسابيع منذ أن فقدَ نظارته الإيطالية. وقد خاب أملنا في الحقيبة العالمية للنظارات الشمسية الضائعة؛ فقد منحتنا النظارة الوردية المشئومة والنظارة الصينية الكبيرة الحجم، ولكنَّ كلتيهما فشلتْ حتى في أن تكون بديلًا مؤقتًا؛ لذلك لم أستطع مقاومة القيام ببحثٍ سريع على الإنترنت عن نظارات شمسية غير صينية. كانت محطتي الأولى هي موقع يدَّعي أنه لا يُدرج سوى منتجات أمريكية الصنع، ولكن بعد بضع نقرات وصلت بطريقةٍ ما إلى لوحة تعليقات تحتوي على آراء مجنونة، لا يُلقي أيٌّ منها الضوء على موضوعَيِ النظارات الشمسية أو الصين.

يقول شخص يُدعى شيري: «بعد قراءة أن اتحاد عمال صناعة السيارات حظر ركن مشاة البحرية سياراتهم في مواقف السيارات الخاصة به، وأنهم يُصوِّتون للحزب الديمقراطي، شعرت بالندم على شراء سيارتي الأمريكية.»

وكتب آيس فلاير: «سيارتي النيسان صُنعت في سميرنا بتينيسي؛ فلا أشعر بالذنب على الإطلاق.»

وكتب بايسكل ريبير: «البُلَهاء الذين يوجدون في الإدارة العليا لمنظمةٍ ما ليسوا من نفس نوعية الأشخاص الذين يزعمون أنهم يمثلونهم، تمامًا مثلما لا تمثل الرابطة الوطنية للتعليم حماتي؛ تلك المعلمة الرائعة.»

وكتب آيس فلاير: «أحاول بكل قوتي ألا أشتريَ أشياء صينية. اشتريت جهاز راديو بوز يحتوي على مشغِّل أقراص مدمجة عندما اكتشفت أنه مصنوع في الولايات المتحدة الأمريكية.»

أغضب هذا شخصًا ما يُدعى «ستاندينج يونايتد»، فكتب:

«هل أنت جاد؟ تُصنع قطع غيار السيارات في المكسيك الآن، وسيارتي بويك لاكروس تُصنع الآن في الصين. وهكذا تسير الأمور يومًا بعد يوم.»

يدخل لوجيك في التعليقات: «إنني أشتري السيارات الكورية، لماذا؟ لأنني لن أمنح سنتًا واحدًا من أموالي لغوغاء اتحاد العمال وبلطجية الاتحاد الشيوعي ما دام الأمر بيدي.»

أوقفتُ نفسي هنا. كان من المغري مواصلة القراءة لرؤية مدى السخافة التي ستصل إليها المحادثة، ولكن الضوضاء التي أحدثها كيفن في المطبخ — أعتقد أنه كان يجذب مقبض الدُّرج العالق بعنفٍ مرةً أخرى — ذكَّرني بمهمتي؛ إيجاد نظارة شمسية للرجل الغاضب في المطبخ.

قادتْني محاولتي التالية إلى مزيدٍ من الهراء، فأدخلتُ عبارتَيْ «نظارات شمسية» و«صنع في الولايات المتحدة الأمريكية»، فوصلتُ إلى موقعٍ يبيع منتجات مصنوعة في أمريكا كان يبيع جبن الماعز، وحاملات أصص الزرع، ورسن للكلاب، ومساند رأس محمولة، وألبومات موسيقية قديمة، كلها على ما يبدو مصنوعة في الولايات المتحدة ولكن لا شيء منها يرتبط ولو من بعيدٍ بالنظارات. بعد ذلك توقفتُ عند صفحة معلومات سياحية صينية تُوصي بنظارةٍ شمسية ومعطفٍ خفيف واقٍ من المطر من أجل زيارة سور الصين العظيم في إجازة الربيع. جربتُ موقع إي باي، ولكنَّ بائعيه لم يُقدِّموا أي شيء أفضل مما رأيته في الأماكن الأخرى: نظارات شمسية إيطالية وأمريكية باهظة الثمن أو صينية رخيصة الثمن. في نهاية المطاف، وجدت صانعًا أمريكيًّا للنظارات الشمسية، لكنها ضخمة وزاهية الألوان، وليست من النوع الذي يرتديه توم كروز أو كيفن — الذي يَدَّعي أنه يشبه توم كروز — إذا كان لهما أي رأي في هذه المسألة.

استسلمتُ ودلفتُ إلى المطبخ، حيث جلست على الطاولة أحسب المبلغ الذي أستطيع إنفاقه على نظارةٍ شمسية إيطالية أو أمريكية.

تبدَّل حظي في ذلك المساء. كنت أُفتِّش في حقيبتي، باحثةً عن مفاتيحي، عندما لمست أصابعي معدنًا رقيقًا باردًا في قاع الفوضى الموجودة داخلها. أخرجتُ نظارتي الشمسية الإيطالية المفقودة من أعماق حقيبتي؛ من المكان الذي كنت قد بحثت فيه عنها ربما ست مرات، فارتديتها. كانت مَثنية قليلًا من الوسط، وثَمّةَ عدسة مفكوكة من السلك البلاستيكي الذي يُثبِّتها على الإطار. لم تكن جميلة مثلما كانت في اليوم الذي اشتريتُها فيه، لكنها كانت سليمةً إلى حدٍّ ما.

وقفت ومشيت عبر الغرفة للبحث على الطاولة عن قصاصة الورق التي دوَّنت فيها تقديري للمبلغ الذي يمكنني إنفاقه على شراء نظارة شمسية جديدة لكيفن، فمسحت الرقم القديم وكتبت رقمًا جديدًا أكبر. بما أنني استعدت للتو نظارتي الشمسية المفقودة، أدركت أنني أستطيع إنفاق مبلغ أكبر على شراء أخرى جديدة لكيفن. بعد ذلك جلست إلى الطاولة وابتسمت لنفسي. ولكني لم أعد أفكر في النظارات الشمسية. بل كنت أبتسم لأنني وضعت للتو خطة لإعادة زوجي إلى شخصيته المرحة السابقة من خلال الحصول على حوض سباحة قابل للنفخ صيني المنشأ.

الفصل الخامس

اقتراح بسيط

بدت أخت زوجي حائرة.

قالت متسائلة: «ماذا تريدينني أن أفعل؟»

كررتُ طلبي في الهاتف.

قلت لها: «اعتقدت أنك ربما تستطيعين تقديم حوض سباحة قابل للنفخ لكيفن في عيد ميلاده.» حاولت أن أبدوَ طبيعية، كما لو أن الفكرة أضاءت في رأسي في منتصف حديثنا. «أنت تعرفين كيف يصبح حادَّ الطباع في الطقس الحار. وصراحة، أشار بتلميحٍ ضمني إلى أنه حقًّا يود الحصول على واحد. وربما يكون قد ذكره أكثر من مرة.»

«هل أنتِ متأكدة من ذلك؟»

«متأكدة تمامًا.»

ثم استطردتْ: «اعتقدتُ أنكِ تريدينني أن أقدم له نظارة شمسية جديدة. ألم نتحدث عن ذلك؟»

ردَّدتُ: «هل فعلنا؟ أوه، حسنًا، كنت أعتقد أنه ربما أستطيع «أنا» أن أُهديَه النظارة الشمسية وتستطيعين «أنتِ» إحضار حوض السباحة له. حقًّا، لا أستطيع أن أطلب منك أن تشتري له نظارة شمسية؛ فربما تكلفك مبلغًا كبيرًا. لن يكون هذا أمرًا صائبًا.»

خيَّم الصمت من جانبها.

ثم سألتْ: «إذن، من أين تأتي أحواض السباحة؟»

ردَّدتُ: «تارجت، وول مارت، مثل هذه الأماكن. المتاجر الكبيرة.»

تردَّدتْ مرة أخرى.

ثم أردفت: «ليس هذا ما قصدته. إنما كنت أقصد بذلك مكان صُنْعها؟ ما أسأل عنه هو هل تعتقدين أنها تُصنَع في الصين؟»

خفق قلبي بشدةٍ في صدري وأنا أستعدُّ لأقول لأخت زوجي كذبة كبيرة.

قلت بمرح: «أوه، أنا متأكدة من أن «بعض» أحواض السباحة تُصنع في الصين، ولكن لا أستطيع أن أتخيل أنها «جميعًا» تُصنع هناك. أعتقد أنه يوجد شيء ربما تجدينه. يمكنكِ التفكير في هذا الأمر كبحث متعلق بالمقاطعة. سأكون مهتمةً للغاية بسماع ما تجدينه.»

ثم سألتْ: «وماذا أفعل إذا وجدت أنها كلها صينية الصنع؟»

تظاهرتُ بالبراءة والتعقُّل. وأجبتها:

«حقًّا، ليس القرار هنا بين يديَّ؛ سوف أعتمد على حُكْمك في هذه الحالة؛ فأنت تعرفين قاعدة الهدايا الصينية، أليس كذلك؟ لا تنطبق المقاطعة عليها.»

تنهَّدتْ عبر الهاتف. إنها أخت زوج رائعة للغاية، وطباخة ماهرة، وذكية ولطيفة أيضًا؛ لطيفة لدرجةٍ تمنعها من أن تضعني في قفص الاتهام وتخبرني أنها تستطيع أن ترى حيلتي للالتفاف على المقاطعة. لطيفة بما يكفي لكيلا تشير إلى أنه إذا كنتُ أواجه مشكلاتٍ في ضبط تصرُّفات كيفن، فيما يتعلق بالمقاطعة، فإن هذه مشكلتي أنا ولا ينبغي أن أطلب من الآخرين أن يقوموا بعملي القذر. لطيفة بما يكفي لعدم الشعور بالاستياء من حقيقة أنني أحاول استغلالها كحصانٍ لتوصيل البضائع الصينية غير المشروعة إلى منزلنا.

قالت: «سوف أعاود الاتصال بك.»

ثم أنهينا المكالمة.

كنتُ أتعدَّى الحدود في ذلك الموقف. لم تكن المقاطعة مثاليةً حتى ذلك الوقت، ويُعَد اليوسفي الصيني بمنزلة مثال على ذلك. ولكنَّ أخطاءنا السابقة كانت قابلةً للغفران نوعًا ما؛ إذ كان اليوسفي الصيني خطأً بريئًا. وعندما أحضر ويس للمنزل كيسًا من الهدايا التذكارية المليء بالتذكارات الصينية من حفل عيد ميلادٍ أُقيمَ الشهر الماضي، كان بريئًا بحُكْم إعفاء الهدايا من المقاطعة؛ فلم يكن من الأدب أن يُشير إلى مضيفه الكبير في السن أنه لا يمكنه تقبُّل الدُّمى البلاستيكية ولعبة الكرة والمضرب الرديئة الصُّنع بحكم كونها صينيةَ المنشأ.

كَسَر كيفن قاعدة المقاطعة الأساسية عندما اشترى سرًّا فُرَش التلوين الصينية، ولكننا كنا نتوقَّع هذا النوع من التصرفات من «الحلقة الأضعف». المقاطعة هي قرار العام الجديد، وفي رأيه قرارات العام الجديد تنطوي على اليأس والجهد الجاد لتحسين

الذات، وهي غير جذابةٍ في تقدير كيفن الشخصي. إلى جانب ذلك، لم يأتِ كيفن بفكرة التخلي عن المصنوعات الصينية لمدة عام. كانت فكرتي أنا؛ فأنا قائدة المقاطعة ورائدتها؛ لذا فإن هناك مجموعة أعلى من القواعد تنطبق عليَّ.

وجدت نفسي أواجه حقيقةً غير مريحة؛ فأنا أزدري بشدةٍ السياسيين المتملقين والمنافقين من الدرجة الأولى مثل وعاظ التليفزيون اللامعين، ولكن عندما تأمَّلت جهودي للالتفاف حول المقاطعة أدركتُ أنني لست مختلفةً كثيرًا عنهم، وربما أسوأ؛ فهم يخونون مبادئهم من أجل المال والسلطة والجنس؛ تلك الأشياء الرائعة، كما تعلم. وعلى سبيل المقارنة، أنا أبيع نفسي مقابل حوض سباحةٍ قابلٍ للنفخ يُباع بأقل من ٣٠ دولارًا.

ولكن إذا تأمَّلتَ موقفي، فستجد أنني وصلت إلى مفترق طرقٍ مع كيفن؛ الحلقة الأضعف. لقد ظل يغالب أشعة الشمس عن طريق تضييق عينيه لأسابيع بينما أنا أُماطل في استبدال نظارته الشمسية الإيطالية. في مرحلةٍ معينة، قد يتضح له الأمر ويبدأ في إلقاء اللوم عليَّ لظهور تجاعيد جديدة عند حوافِّ عينَيه. ولْيساعدْني الله إذا بدأ ذلك الشيء الغامض على شبكية عينَيه في النمو مرةً أخرى جرَّاء التعرُّض للكثير من أشعة الشمس؛ أستطيع أن أؤكِّد لكم أنني لن أنتهيَ من كلمات الاستنكار من كيفن أو طبيب العيون. والآن يواجه كيفن احتمالية المعاناة بصيفٍ قائظ طويل مع عدم وجود مكان لوضع الأطفال، أو قدميه، فيه من أجل بعض الانتعاش بالماء لمدة ستة أشهر من حرارة ساحل الخليج الحارقة.

كل هذه الأمور تعني أنه عندما يقول لي كيفن إنه لا يمزح بشأن حوض السباحة للفناء الخلفي، فإنه يشير بعباراتٍ لا لَبْس فيها أنني بحاجةٍ إلى انتهاك قواعد المقاطعة أو أنه سينسحب منها ويجذب الأطفال إلى جانبه. لم أَخدعْ نفسي لحظةً واحدة بالاعتقاد بأن الأطفال سيظلون معي؛ فقد رأيت عينَي ويس في قسم الألعاب مليئةً بالتوق إلى شاحنات وجنود من أراضي الصين المحرَّمة. لقد وضعني كيفن في مأزق. رأيت أن هذا الأمر يمكن أن ينتهيَ بطريقتين: يمكنني الموافقة على حوض سباحةٍ صيني للفناء الخلفي وأحاول إعادة كيفن مرةً أخرى إلى مسيرة الأشهر السبعة المتبقية من المقاطعة، أو يمكنني التشبُّث بموقفي وتجاهُل توسُّلاته، وأخاطر بمشاهدة المقاطعة تتدمَّر تمامًا. حسبت في عقلي احتمالات تخريب كيفن للمقاطعة إذا منعتُ عنه حوض السباحة الصيني في عيد ميلاده. كانت النتيجة هي احتمالًا بنسبة تسعة إلى واحد بألا تسير الأمور كما أريد.

هاتفتْني أخت زوجي مرةً أخرى بعد نصف ساعة.

قالت: «سأفعل ذلك.»
قلت بينما أُقدِّم وداعًا صامتًا لنزاهة المقاطعة: «رائع!»

قالت صديقتي: «نظارات أوكليز. إنهم يصنعونها في لوس أنجلوس. سوف تُكلِّفك مبلغًا كبيرًا، ولكنها نظارة شمسية ومصنوعة في كاليفورنيا.»

سألتُها: «هل أنتِ متأكدة؟» لقد سمعت بنظارات أوكليز، ولكنها بطريقةٍ ما لم تظهر خلال بحثي على الإنترنت عن النظارات الشمسية غير الصينية؛ مما جعلني أتساءل عما أغفلته أيضًا.

ردَّت: «نعم. يمكنكِ العثور عليها في المركز التجاري.»

صديقتي ذكية وخبيرة بالحياة، ولكن العالم يتغيَّر بسرعة، وأتساءل إن كانت قد حصلت على معلوماتها بطريقةٍ مباشرة. عليك أن تكون ذكيًّا في ظل هذا الاقتصاد العالمي؛ فربما تأوي إلى الفراش في ليلة، وعندما تستيقظ في صباح اليوم التالي تجد شيئًا كنت معتادًا على أن يكون أمريكيًّا أو ألمانيًّا أو يابانيَّ الصنع قد بات صينيًّا فجأة. بحثت عن رقم هاتف خدمة عملاء نظارات أوكليز واتصلت بالشركة. أجاب مورجان، وهو شاب يمتلك لهجة جنوبية بارعة.

أخبرت مورجان أنني أريد شراء نظارة من أوكليز لزوجي، ولكن أولًا أريد أن أتأكَّد من أنها ما زالت تُصنع في كاليفورنيا.

وسألته: «إنها لا تُصنع في الصين، أليس كذلك؟ لا أستطيع شراءها إذا كانت مصنوعةً في الصين.»

قال مورجان ضاحكًا:

«مستحيل! نحن نصنعها هنا في جنوب كاليفورنيا. ليس عليكِ القلق حيال ذلك.»

فردَدْتُ: «رائع أن أسمع ذلك.»

سألني: «هل يمكنني مساعدتكِ في أي شيء آخر؟»

كنت أود إبقاء مورجان على الهاتف، فقط من أجل الاستماع إلى نبرة صوته، التي تجعلني أشعر بحنينٍ إلى الطرق السريعة والشواطئ في جنوب كاليفورنيا التي عشت فيها طفولتي. تخيَّلت مورجان متكئًا في حُجيرةٍ صغيرة في متجرٍ صغير في لوس أنجلوس، رافعًا قدميه اللتين ارتدى فيهما حذاء تنس عالي الجودة على مكتبه، وجسمه مليء بالحلقان والوشوم، وفي غاية الابتهاج.

قلت: «هذا كل شيء يا مورجان. لقد أسعدتَني.»

صاح مورجان وكأنني أنا التي أسعدتُه: «هذا رائع! إلى اللقاء!»

بعد مُضِيِّ عشر دقائق من إنهاء المكالمة مع مورجان كنت في السيارة متوجهةً إلى المركز التجاري. كان وقتي ضيِّقًا؛ فقد تبقَّى خمسة أيام فحسب على حفل عيد ميلاد كيفن وأشعر بضغوطٍ حقيقية من أجل توفير نظارةٍ جديدة له. كان عصبيًّا أكثر من أي وقتٍ مضى، وكان يحرص على أن ألاحظ هذا.

شعرتُ بالإحراج من الاعتراف بأنني مررتُ عدة مراتٍ في الأسابيع الأخيرة على المتجر الصغير الكائن في المركز التجاري الذي يبيع نظارات أوكليز. لم أُكلِّف نفسي عناء التحقُّق من النظارات الشمسية التي يبيعها لأن الاسم كان سخيفًا — صن جلاس هَت — مما جعلني أظن أنه يبيع فقط النظارات الصينية الرخيصة. لا أعتقد أنني كنت متغطرسة، تمامًا. بل ظننت أن حاسَّة سادسة عمَّا إذا كانت منتجات المتاجر في معظمها صينيةً أم لا تنمو لديَّ، وبطريقةٍ ما أو بأخرى بدا هذا المتجر صينيًّا بالنسبة إليَّ. ولكني كنت مخطئة. أخبرني البائع أن شركة إيطالية تمتلك سلسلة المتاجر. مِلت على صندوق العرض الزجاجي ونظرت إلى النظارات الإيطالية والأمريكية من فوق، والتي يبلغ سعرها ١٠٠ إلى ٢٠٠ دولار، وأحيانًا أكثر من ذلك.

استغرقتُ خمس دقائق في اختيار النظارة التي أريدها، وكلفتْني ١٥٠ دولارًا — أي أكثر من أجر شهر في تشاد، وفقًا لكتاب «حقائق العالم» الذي تُصدِره وكالة المخابرات المركزية — ولكن هذه المرة كنت أشعر بارتياحٍ كبيرٍ حال دون شعوري بالذنب.

اصطدمت بعقبةٍ أخرى في الأيام التي سبقت عيد ميلاد كيفن: شموع عيد الميلاد.

اعتقدتُ أنها مجرد صدفةٍ عندما لم أجد أي شموعٍ سوى الشموع الصينية في مَمرِّ المخبوزات في متجر البقالة. بدأت أقلق عندما تفحَّصت متجرَين آخرين، ثم ثالثًا، ثم رابعًا، وفي كل مرةٍ كنت أخرج خالية الوفاض. لست بالشخص الذي يصعب إرضاؤه؛ فتُعجبني شموع عيد الميلاد المُشَكَّلة على شكل الدُّمية باربي، وشموع عيد الميلاد الخادعة التي لا يمكن أن تُطفأ، والشموع البراقة، والشموع المُشَكَّلة على هيئة أرقامٍ ضخمة، ولكنها جميعًا تأتي من الصين. في المنزل، بحثت في أدراج المطبخ ووجدت ثلاث شموع مُغبرة باقية من علبةٍ قديمة، وصينية أيضًا. لم أكن أُدرك أنني كنت متهورةً عندما وعدت ويس بأن نخبز كعكة لوالده ونغطيَها بالشموع، واحدة لكل سنة. سبع وأربعون شمعة؛ هذا

عدد كبير من الشموع. وكما هي الحال الآن، أُعاني نقصًا مقداره ٤٤ شمعة. مرَّت الأيام. وأخيرًا، اتصلتُ بأخت زوجي وسألتها أن تُسديَ لي معروفًا آخر.

سألتها: «هل يمكنكِ إحضار بعض شموع عيد الميلاد القديمة إلى الحفلة؟ فلا أجد شيئًا غير تلك الشموع الصينية في المتجر.»

لأخت زوجي حدود؛ ستلعب دور الساذجة لوقتٍ محدود قبل أن تُنبِّهني إلى أنها تفعل ذلك. ليس الأمر أنها لن تجاريَني في هذا، ولكنها تريدني أن أعلم أن خدعتي لا تنطلي عليها.

فتساءلت: «لكن أليست شموعي القديمة صينية أيضًا؟»

فأجبتها: «أعتقد هذا. لكن لا بأس في هذا، ما دامت هدية. الهدايا الصينية مباحة، أتذكرين؟»

فأشارت قائلة: «لكن هذا طلب، وليس هدية.» إنها لا تضع العقبات، إنما فقط تتحدَّث بمنطقية؛ وهو ما يعني الشيء نفسه في هذه الحالة. «هل لديكِ قاعدة للطلبات؟»

كنت أنا الشخصَ الذي تنهَّد هذه المرة.

ثم سألتُها: «هل يمكنكِ إحضارها فحسب؟ إنني في ورطة.»

«سوف أرى ما يمكنني فعله.»

كانت حفلة كيفن في اليوم التالي. سار كل شيء بنجاح. انتهت الكعكة بحمل ثماني شموع، ولكن أحدًا لم يمانع، وربما في الوقت الذي تبلغ فيه سن السابعة والأربعين، يكون نقص الشموع أمرًا جيدًا. تبادلتُ أنا وأخت زوجي نظراتٍ توحي بأننا نعلم ما سيجده كيفن عند فتح علبة حوض السباحة، الذي كان صينيًّا كما هو متوقَّع. فاجأتنا أخته بمضخةٍ صينيةٍ لنفخ حوض السباحة أيضًا.

صاح كيفن: «حوض سباحة!» ثم استدار نحو أخته وقال: «كيف خمنتِ ذلك؟»

قبَّلني كيفن بعد أن فتح صندوق النظارة الشمسية البالغ ثمنها ١٥٠ دولارًا المصنوعة في كاليفورنيا. وارتداها واتفقنا جميعًا على أنه يُشبه طيارًا مقاتلًا.

وجَّه حديثه إليَّ قائلًا: «يا حبيبتي.» هذا هو كل ما كان بحاجةٍ لقوله. إنه يدعوني بكلمة حبيبتي في كل وقت، حتى عندما يكون غاضبًا مني؛ لذلك فإن الكلمة لا تعني بالضرورة أنه مأخوذ بي في أي لحظةٍ معينة. ولكن هذه المرة عندما قالها نظر إليَّ نظرةً تقول إنه يغفر لي كل شيء. سهرنا جميعًا حتى وقتٍ متأخر ودردشنا ونحن نتناول القهوة وأكلنا كثيرًا من كعكة بيتي كروكر البيضاء حتى آلمَتْنا بطوننا. لم أرَ كيفن في هذا

المزاج الجيد منذ أسابيع. لم يكن بحاجةٍ إلى أن يخبرني، لكنني أعرف بغريزتي أن شيئًا آخر يحدث. لقد عاد إلى مسار المقاطعة، على الأقل في الوقت الراهن.

إنني لا أُقدِّم نصائح عن العلاقات الزوجية، ولا أستطيع أن أقول ما قد ينجح مع الآخرين، ولكن في حالتنا، كل ما كان يلزم لاستعادة الانسجام الزوجي هو حوض سباحةٍ رخيص ونظارة شمسية غالية الثمن واستعداد للتخلي عن قناعاتي.

كانت الفتاة الصينية على غلاف مجلة نيوزويك الصادرة بتاريخ ٩ مايو ٢٠٠٥ في غاية الجمال، وكانت تبتسم كما لو أنها تملك العالم بأكمله، وهي تملكه بالفعل، بطرقٍ عديدة.

كُتب العنوان «قَرن الصين» بأحرفٍ كبيرة فوق رأس الممثلة زيي زانج الجميل. أخبرتْني المجلة أنها وجه الصين الجديدة. إنها وجه جميل جدًّا، مع عينَين ذكيتَين مشرقتَين. إذا كان هذا هو وجهَ الصين الجديدة، فليس لدينا ما يدعو للقلق.

قلَّبتُ في الداخل حتى وصلت إلى التقرير الخاص عن الصين. كان التقرير في صميم الأمر تمامًا: الصين كبيرة، وتسحر الأمريكيين؛ لكنها بينما تزداد ثروةً ونفوذًا، فإن ذلك «الحجم نفسه الذي بدا في غاية الإغراء يشرع في التحوُّل إلى نذير سوء. ويتساءل الأمريكيون: هل «التهديد الصيني» كابوس حقيقي؟»

استأنف المقال مستخدمًا سلسلة من الإحصاءات محيرة للعقل؛ كلها مثيرة للاهتمام، ولكني وجدت أنها لم تقلقني كثيرًا. لقد بلغ قلقي إزاء الصين مرحلة تشبع؛ فالمقاطعة تُذكِّرني يوميًّا بأثر الصين العميق في حياتي — في حياتي السابقة، بالأحرى — وإذا أخذتُ يومًا عطلة من القلق، فإن إحدى صديقاتي تتصل بي حتمًا لنقل بعض الأخبار المتعلقة بالصين. على سبيل المثال، كنت جالسةً هذا الأسبوع على الكمبيوتر، أجاهد للوفاء بموعدٍ أخير لتسليم أحد أعمالي عندما اتصلتْ بي صديقة لتخبرني بمدى خيبة الأمل التي أصابتْها في متجر كوست بلاس وورلد ماركت.

فقالت: «يُسمُّونه «وورلد ماركت»، ولكن يبدو كل شيء هناك من الصين تقريبًا. عليهم تغيير الاسم إلى «كوست بلاس تشاينيز ماركت». سوف تجدين صعوبةً في التسوُّق هناك.»

أُفكِّر في الصين في جميع أنواع المواقف. بعد قراءة تحقيقٍ صحفي عن سلسلةٍ من عمليات السطو على المنازل في حَيِّنا، قرَّرتُ أننا يجب أن نجلب لافتة «احذر من الكلب» من أجل بوابتنا الخلفية، ربما واحدة عليها صورة كلب من نوع دوبرمان يزمجر عليها،

ولكن أخشى أننا لن نستطيع العثور على واحدةٍ من أي مكانٍ غير الصين. كانت مفاجأة سارَّة عندما جلب كيفن إلى المنزل لوحة «احذر من الكلب» معدنية من تصنيع شركةٍ في نورثفيلد بأوهايو.

عندما ذهب كيفن في رحلة ليومين إلى سينسيناتي، وجد صعوبةً في العثور على لُعَبٍ وهدايا تذكارية للأطفال، فاشترى قمصانًا بدلًا منها.

اعتذر كيفن قائلًا: «لم أتمكَّن من العثور على أي شيءٍ آخر لم يُصنع في الصين في محل بيع الهدايا في المطار.»

لم يُخفِ ويس خيبة أمله؛ فعندما ترك كيفن غرفة المعيشة، همس ويس في أذني قائلًا:

«كنت آمل في الحصول على سيارة.»

كنت أُفكِّر في الصين خلال دروس السباحة التي يتلقَّاها ويس في جمعية الشبان المسيحيين؛ فبعد أول درسٍ له قال لي إن مدرِّب السباحة يريد أن يغرقني تحت الماء عندما لا يراكِ تراقبينني.

وأضاف قائلًا: «إنه ليس شخصًا طيبًا يا أمي.»

فقلت بإصرار: «إنه شاب لطيف. ولن أسمح له أن يُغرقك. سوف أقفز في حوض السباحة وأسحبك إذا رأيتُ مدرِّب السباحة يحاول القيام بأي شيءٍ من هذا القبيل. ولكن أعدك أنه لن يحاول القيام بذلك.»

بدا ويس غير مقتنع؛ لذلك حاولت رشوته. قلت له إنني سوف أشتري له لوح سباحة مثل لوح ابن عمته ونظارة سباحة إذا واصل حضور الدروس، فرآها فرصة.

فسألني: «هل يمكنني الحصول على لوحين؟ لوحين أزرقين؟»

في تلك اللحظة بالضبط، لا بد أن أمًّا ما أخرى، في مكانٍ ما من الكون، مرَّتْ بتجرِبة خروج من الجسد، وقرَّرتْ أن تحتلَّ جسدي للسيطرة على حبالي الصوتية؛ فلم أستطع أن أجد أي تفسيرٍ آخر لما سمعتُ صوتي يقوله بعد ذلك. إنه شيء تقوله تلك الأمهات اللاتي يسترضين أطفالهن، الأمهات اللاتي ينتهي بهن الأمر بإطعام أطفالهن حلوى إم آند إمز في الإفطار وشراء كل لُعبةٍ يرونها على شاشات التليفزيون لهم لأنهن لا يملكن الحس السليم ليقلن «لا» لأطفالهن. إنني مختلفة للغاية عنهن، طالما كنت هكذا؛ لذلك أدهشني كثيرًا أن أسمع ذلك الصوت — صوتي — يقول: «نعم، يمكنك الحصول على اثنين.»

لا أستطيع أن أُصدِّق مدى الضعف الذي أصبحتُ عليه. ربما أُصِبْتُ بإرهاقٍ من قول «لا» في كثيرٍ من الأحيان. أو أُصِبْتُ بإرهاقٍ عام.

تساءل ويس بعد ذلك: «ماذا عن نظارتَيْ سباحة؟»

استجمعت الأجزاء المتبقية من شخصيتي القوية من حقبةٍ سابقة وسمعتُ نفسي أقول «لا».

توجَّهت إلى المتجر بعد بضعةِ أيام، على أمل أنني لم أُفرِّط في وعودي. أخبرتْني غريزتي الخاصة بالصين أن لوح السباحة ليس صينيًّا، بحُكْم حقيقة أنه يحمل بعض الشبه بأجهزة الإنقاذ التي تساعد على الطفو، والتي تتشابه في هدف إنقاذ الشخص مع الدواء، والدواء ليس شيئًا نأتمن الصينيين على صُنْعه، أو هكذا لاحظتُ من قراءة ملصقات زجاجات الأدوية المخبأة في الخزائن في أرجاء منزلنا؛ فصناعة الأثاث ولعب الأطفال والهواتف المحمولة والأحذية وأنظمة الصوت وأجهزة الرد الآلي جميعها أشياء نأتمن الصين عليها. ولكن الحبوب التي تحافظ على صحتنا والأشياء التي تمنع أطفالنا من الغرق إلى قاع حوض السباحة، لا تناسب القالب الصيني بطريقةٍ ما أو بأخرى.

كنتُ مخطئةً إزاء القالب الصيني؛ فرفوف مَمرٍّ لوازم السباحة في متجر تارجت تعجُّ بأجهزة الطفو الصينية للأطفال. بدا لي هذا نذيرَ سوءٍ بالنسبة إلى احتمالية وجود لوح سباحة غير صيني، لكني كنت محظوظةً مرةً أخرى. وجدت لوحًا أزرق مرسومًا عليه سمكة وقلبتُه لفحص بطاقته الملصقة. كان مكتوبًا عليها «صنع في تايوان». وضعتُ لوح سباحة واحدًا في عربة التسوُّق الخاصة بي، على أمل أن ذاكرة ويس ليست جيدة مثل ذاكرة والده وأنه لن يتذكَّر أنني وافقت على تقديم اثنين. أخبرتْني أخت زوجي عن نظارة سباحة كندية في المَمرِّ نفسه؛ فالبحث عن حوض سباحة قابل للنفخ أدخلها في عملية قراءة الملصقات، فأخذتُ نظارة سباحة كندية تبدو كعيون السحلية وتوجهتُ إلى الصرَّاف لدفع الحساب.

في طريق الخروج من موقف السيارات مررتُ بمحل الإكسسوارات الذي اشتريت منه بطارية ساعتي قبل أربعة أشهر. كان لديَّ متسع من الوقت في ذلك اليوم، وكان ينبغي أن أوقف السيارة في ساحة الانتظار، وأسير إلى هناك، وأستوضح مسألة البطارية التي ربما تكون صينية. ولكني وجدت أنني لا أملك الجرأة على فعل ذلك.

قلت لنفسي سأفعل قريبًا، ولكن ليس اليوم.

ظَلِلتُ أراقب مونا ويليامز، أو على الأقل اسمها. مونا ويليامز هي المتحدِّث الرسمي لوول مارت، وبما أنني أسعد بالقصص السلبية اللذيذة عن وول مارت، كثيرًا ما رأيت اسمها بينما تُدافع عن شركتها التي تعمل بها ضد كل أنواع الاتهامات والتلميحات.

في عدد مجلة نيوزويك الذي نُشر بعد أسبوعٍ من عدد الصين الخاص، ادَّعت السيدة ويليامز أن المجلة كانت مخطئة عندما ذكرت أن الكثير من بضائع وول مارت تأتي من الصين. في رسالةٍ إلى المحرِّر، قالت إن متجر التجزئة أنفق ١٨ مليار دولار فقط على البضائع الصينية في عام ٢٠٠٤، مقارنة بـ ١٣٧,٥ مليار دولار على مُورِّدي الولايات المتحدة. وقالت إن المشتريات الصينية تبلغ أقل من ٦ بالمائة من إجمالي المشتريات الأمريكية. ونشرت نيوزويك اعتذارًا مع رسالتها.

قرأت الرسالة مرةً أخرى، ثم مِلْت إلى الوراء على الأريكة للتفكير فيها. ثَمَّةَ شيء في ادِّعاءات السيدة ويليام لا يريحني. أنبأني حدْسي أنها تخدعني أنا وغيري من قُرَّاء نيوزويك عن طريق استخدام الأرقام دون مسئولية. لم يكن لديَّ شيء يدعم اعتقادي سوى ذكريات من الأيام التي كنت أتسوَّق فيها في وول مارت، وما أتذكَّره من تلك الأيام هو أنه لا يمكنك أن تطأ شبرًا في وول مارت دون أن تصطدم بكومةٍ من البضائع الصينية. من الممكن تَصوُّر أني كنت المخطئة. ربما كنت أفحص دائمًا ملصقات الأشياء الخاطئة في وول مارت؛ حيث لم أكن أتوجَّه إلا إلى المنتجات الصينية النادرة في متجرٍ مليء بالسلع المصنوعة في نيو هامبشير وتينيسي. مع ذلك، بطريقةٍ ما لا أعتقد أن هذا هو الواقع. أعلم طريقةً لمعرفة ذلك.

كان الحماس يملؤني في اليوم التالي عندما كنت متوجِّهةً إلى متجر وول مارت. كان وول مارت وجهةً ممنوعةً منذ أن توقفتُ عن الذهاب إليه منذ بضع سنوات؛ لذلك بدتْ زيارته مراوَغةً سارَّة في هذا الوقت. كان الذهاب إلى هناك بحجةٍ زائفة يزيد من الإثارة. بالنسبة إلى المراقب العادي، كنت أُشْبِه متسوقًا عاديًّا في وول مارت يبحث عن صفقات رابحة بين عبوات الشامبو والمكرونة والجبن، في حين أني كنت هنا في الحقيقة على أمل إثبات كذب وول مارت. ربما كان ذلك كما لو كنت جيرالدو ريفيرا يكشف فضيحة على شبكة التليفزيون بكاميرا خفية مثبتة على طية صدر سترته، أو ربما كالجاسوس.

كانت مهمتي بسيطة: فحص مائة منتج معروض في وول مارت، وتسجيل اسم البلد الذي صُنع فيه كلٌّ منها، ثم حساب نسبة البضائع الصينية في مقابل البضائع الأمريكية. إنها ليست عملية علمية دقيقة، ولكنها ستوصلني إلى شيء.

مررتُ بجوار موظف الاستقبال، وهو رجل عجوز أبيض الشعر يرتدي سترة زرقاء تقليدية مكتوبًا على الجزء الخلفي منها عبارة «كيف يمكن أن أساعدك؟» بحروف بيضاء. كان يفحص إيصالات مجموعة من الفتيات المراهقات للتأكُّد من أنهن لم يسرقن مُلمِّع شفاه ومُحدِّد عيون. لم أُحدِّد من أين أبدأ، ولكني رأيت رفوفًا تصطفُّ عليها ملابس السباحة أمامي مباشرةً؛ لذلك قرَّرت أن أبدأ من هناك، ثم تجوَّلت في المتجر وفي رأسي فكرة غريبة: فتحت دفتر ملاحظاتي، ووقفت بجانب رفٍّ من بِذلات السيدات، والْتقطتُ واحدة، وفحصت ملصقها، ثم كتبت: «بذلة سباحة للسيدات من قطعة واحدة، تايوان.»

شققت طريقي عبر الرفوف، مع الوقوف عند الجوارب والملابس الداخلية، ثم الإكسسوارات، وبعد ذلك قسم الفتيات. أخذت قسطًا من الراحة بعد ١٠ دقائق لتحليل تقدُّمي، فوجئت بأنه لا يوجد شيء من الصين بين العناصر الأربعة عشر الأولى في قائمتي. ولوهلة، تساءلت إن كانت مونا ويليامز صادقةً عندما قلَّلتْ من دور الصين في ملء رفوف وول مارت أم لا. عُدْتُ إلى حالتي الواعية مرةً أخرى. لا يمكن أن يكون الوضع هكذا. لقد ذهبت إلى وول مارت من قبل، وَوول مارت يبيع أطنانًا من الأشياء الصينية؛ لذلك لا بد من أن يوجد تفسير آخر. ثم عدت إلى العمل.

الشيء التالي الذي فحصته هو حمَّالة صدر من نوع سويت نوثينجس لونها وردي فاتح بمقاس ٤٠ دي دي. كُتب على الملصق: «صنع في الصين.» آها. ها قد بدأنا.

توجهتُ بعد ذلك إلى الأدوات المنزلية، ثم لعب الأطفال، ثم الإلكترونيات، وكنت أكتب في نشاطٍ بينما أتنقَّل خلال الممرات على أمل ألا يسألني أحد عما أفعل. سارت الأمور بسلاسةٍ حتى توقَّفتُ أمام مجموعةٍ من أجهزة التليفزيون وجميعها صينية، كما أرى.

سمعت صوتًا يقول: «أنت، ماذا تفعلين؟»

تطلعتُ في وجه جارنا القديم العجوز. أفعل؟ كيف عرَف أنني كنت «أفعل» أي شيء؟ أي نوعٍ من الأسئلة هذا؟ شعرت باحمرار وجهي. عقدت ذراعيَّ، ودَسَسْتُ دفتر ملاحظاتي تحت إحداهما لإخفائه. ربما يتجاهل سلوكي الذي لا يمكن تفسيره، حيث إننا منتقلون من كاليفورنيا، وأيضًا لأنني متزوجة من كيفن، الذي يُشتهر بالسلوكيات الغريبة بين جيراننا؛ لذا ربما ينبغي أن أعترف بما أفعله. لكن زوجته تمتلك متجرًا محليًّا لبيع الملابس يبيع الكثير من البضائع الصينية — لقد فحصت الملصقات — لذلك أفضل ألا أقول له خوفًا من أن أبدوَ متكبرةً ومتغطرسة، أو ما هو أسوأ.

قلت بنبرةٍ عادية:

«أوه، كما تعلم، أُلقي نظرة على البضائع. أَتَعَرَّف على هذه البضائع.»

نظر إليَّ بتمعُّن، ثم سألني:

«تتعرَّفين على البضائع في وول مارت؟»

أجبته: «نعم. أتحقَّق فحسب من منشأ البضائع.»

ولوَّحت بيدي نحو أجهزة التليفزيون وقلت:

«ربما يتعطل جهاز التليفزيون لدينا في يوم من الأيام ونحتاج إلى الحصول على واحدٍ جديد. والآن أعرف ما يوجد هنا.»

لم يبدُ عليه أنه اقتنع بكلامي، لكنه كان مهذبًا لدرجةٍ منعتْه من التنقيب في الأمر أكثر؛ فغيَّر الموضوع، وسأل عن الأطفال وكيفن. وسألته عن أحوال زوجته وبناته. ثم عندما كنت قد وصلت إلى الحد الأدنى اللازم لمحادثةٍ قصيرة، استأذنته، وانطلقت مسرعةً خارج قسم الأجهزة الإلكترونية، وتوجَّهت إلى قسمٍ في منتصف المتجر يُسمَّى «منوعات عامة».

كنت أتجوَّل في قسم المنوعات العامة لبضع دقائق عندما أوقفني فجأةً تمثال سيراميكي صيني للسيد المسيح. كان تمثال السيد المسيح يقبع على رفٍّ بجوار تماثيل مُهرِّجين ذوي أعيُن كبيرة وقطط خزفية. الْتقطت التمثال، وتأكَّدت أنه في الواقع من الصين، ثم حُمْتُ في المَمرِّ وتفحَّصته تحت الضوء الساطع. بدا حزينًا، وجعلني أشعر بالشعور نفسه. ما أودُّ أن أعرفه هو هل اهتم أي شخص بتوضيح مَن يكون هذا الرجل للعمَّال الصينيين الذين صنعوه؛ فمِن داعي الإنصاف وحده أنه إذا كنت ستطلب من شخصٍ ما قضاء ١٤ ساعة من اليوم في تلوين تماثيل السيد المسيح أن توضح له الفكرة العامة، وربما تقول له اسمه، وتوضح أيضًا أنه شخصية بارزة مهمة بين الأوساط الدينية في العالم.

ثَمَّةَ معنًى أكبر موجود هنا، ولكني لا أستطيع تحديده. كنت أتمنى لو كانت والدتي هنا، فيمكنها الوصول إلى لُبِّ الموضوع على نحوٍ أسرعَ وأتمَّ عندما يتعلق الأمر بالسيد المسيح. كانت على الأرجح ستشير إلى أن لدينا تمثالًا للسيد المسيح — المدافع البارز عن الفقراء — مصنوعًا وملونًا بأيدي عُمَّال صينيين فقراء على الجانب الآخر من العالم، ومنقولًا عبر الكرة الأرضية في سفن وشاحنات ليستقرَّ هنا في نهاية المطاف، إلى جوار تماثيل القطط والمُهرِّجين حيث يُحقِّق مبيعاتٍ لأغنى متجر للتجزئة في العالم، والبعيد كل

البُعد عن اللُّطف، مهما كان ما قد ترغب مونا ويليامز في أن أُومِنَ به. وستشعر والدتي بالسخط إزاء مكان تمثال يسوع على الرف إلى جانب تماثيل ذات ذوقٍ مثير للجدل. وسترى على الفور أن تمثال يسوع السيراميكي هذا مرتبط بكل أنواع الأشياء، ليس من بينها السخرية.

شعرتُ ببعض الإغراء لشراء تمثال السيد المسيح، لإنقاذه من مكانه على الرف، لكنني كنت قد فعلت ما يكفي من السوء بكسر قواعد مقاطعة الصين بشراء حوض السباحة القابل للنفخ؛ لذلك يجب على الأقل أن ألتزم بحظر الشراء من وول مارت. وضعت التمثال مرةً أخرى على الرف، وتقدَّمت في الممر. أضفت أشياء قليلة أخرى إلى قائمتي، ثم قمت بحسابٍ سريع لما عندي حتى الآن. كانت قائمتي تحتوي على ١٠٦ بنود. ثم توجهت عائدةً إلى المنزل.

عندما عدت إلى المنزل أخرجت الآلة الحاسبة وحسبت الأرقام. استغرق فرز قائمتي حوالي نصف الساعة، لكن تبيَّن لي باكرًا أن الصين مسئولة عن بضائع المتجر العامة: ٥٢ من البنود المدرجة على القائمة، أو ٤٩ بالمائة من هذه البضائع، مصنوعة هناك. وساهمت الولايات المتحدة بـ ٢٣ بندًا، ما يصل إلى حصة قدرها ٢٢ بالمائة من المجموع الكلي. احتلَّت هندوراس المركز الثالث بفارقٍ كبير؛ حيث بلغت منتجاتها أربعة بنود. وجاء ما تبقَّى من البضائع من وجهات متنوعة متفرقة في أنحاء العالم مثل إيطاليا (الجوارب)، وباكستان (الملابس الداخلية)، وتركيا (قمصان دون أكمام).

توحي قائمتي بأشياء كثيرة، منها أنه ينبغي على مونا ويليامز تقديم بعض التوضيحات. إنني لا أدَّعي الانتصار على آلة دعاية وول مارت؛ ليس بعدُ على أي حال؛ فلربما تكون أرقام مونا ويليامز صحيحة بطريقةٍ ما أو بأخرى، فلا يمكن إنكار أنني لم أتجوَّل في ممرات وول مارت التي تسيطر عليها أمريكا — أغذية الحيوانات الأليفة، والبقالة، ومستحضرات التجميل — ولكني أيضًا لم أقضِ كثيرًا من الوقت في الممرات التي تهيمن عليها الصين مثل لعب الأطفال والإلكترونيات. وطريقة نظرتي للأمر هي أنه ما لم تُضَمِّن السيدة ويليامز البقالة أو مواد البناء المستخدَمة في بناء متاجر وول مارت في حسابها للمشتريات الأمريكية، فإنني لا أفهم كيفية توصُّلها إلى أرقامها هذه.

أشارت نتائجي إلى أمورٍ أخرى. لاحظتُ أن جميع الأشياء ذات الألوان الوطنية — ألوان العلم الأمريكي الأحمر والأبيض والأزرق، والمنسوجات القطنية التي يوجد عليها أعلام — مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية. أظن أن هذا بسبب أن المسئولين عن

الشراء الأذكياء في متجر وول مارت يعرفون أن المتسوقين يشعرون بحبٍّ جارفٍ للوطن عندما يتسوَّقون أشياء عليها راية وعلم البلاد، ويكونون أكثر ميلًا إلى التحقُّق من بلد المنشأ على الملصقات من التحقُّق منه عندما يشترون الأحذية أو المناشف. إنه مجرد تخمين، ولكن شعوري هو أنك لا تصبح أكبر شركة في البلاد دون فهم الزبائن.

ألهمتْني بنود أخرى تأملاتٍ ضبابيةً بشأن الاقتصاد العالمي. خذ مثلًا من مساهمة ليسوتو في القائمة؛ قمصان دون أكمام للسيدات بمقاساتٍ كبيرة، فمن ناحيةٍ يمكن أن تراها أمرًا مشجعًا أن دولة أفريقية صغيرة تمارس أعمالًا تجارية مع وول مارت. في ضوء أمورٍ معينة، يبدو هذا تقدمًا؛ فربما ترى أن ليسوتو تمتلك موطئ قدم في الاقتصاد العالمي. من ناحيةٍ أخرى فإن فكرة أن وول مارت يعتمد على العُمَّال البؤساء في الدول الفقيرة للغاية في إنتاج الملابس الداخلية بأسعارٍ بَخْسَة لزيادة الإيرادات وتحقيق أرباح للمساهمين تجعلني أستشيط غضبًا. ذهب متجر وول مارت إلى ليسوتو لأن ليسوتو تستحقُّ جهد وول مارت، والطريقة الوحيدة لكي تستطيع ليسوتو استحقاق جهد وول مارت هي العمل مقابل أجر زهيد، فلا يُغرى وول مارت بالتوجُّه إلى مكانٍ آخر. وليسوتو هي الخاسرة إذا ما ساءت هذه العلاقة، وليس في مقدورها أن تفعل شيئًا حيال ذلك.

بعد ذلك تفكَّرت فيما تعتقده السيدات الصينيات الصغيرات الحجم اللاتي يخطن حمالات صدر سويت نوثينجس بمقاس ٤٠ دي دي حيال الملابس الفائقة الحجم. كيف يتخيَّلن السيدات الكبيرات الحجم اللاتي سيرتدين حمالات الصدر تلك على الجانب الآخر من الأرض؟ أم هل تَفكَّرنَ فيهن على الإطلاق؟ أفترض أنه من الإفراط في التفاؤل أن آمل أن يشرح مديرو المصنع الاسم الساخر على العبوة. سويت نوثينجس؛ إنه أمر بعيد الاحتمال.

لن أحصل على إجاباتٍ لهذه الأسئلة أبدًا، ولكن يوجد لغز ربما أكون قادرةً على تفسيره. بعد أسابيع قليلةٍ من رحلتي إلى المتجر اتصلت هاتفيًّا بمكتب اتصالات شركة وول مارت في بنتونفيل بأركنساس. أوضحت للسيدة التي ردَّت عليَّ أني أرغب في التحدُّث إلى شخصٍ ما عن استعانة الشركة بموردين من خارج البلاد. وتركت رسالة على البريد الصوتي لشخصٍ يُدعى بيل فيرتس.

لم يعاود الاتصال بي مرةً أخرى.

لقد اتخذت من التسرُّع إلى بناء استنتاجات سيئة عن وول مارت مهنةً إضافيةً لي. ولا أرى أي سببٍ لعدم القفز إلى بعضها الآن. لقد أثرتُ ذعر وول مارت.

نَفِدَ الحبر من طابعتي. عادةً لا يدعو هذا إلى القلق، ولكني أُصِبتُ بشعور محبط عندما توقَّفت الآلة دون سابق إنذار وأخبرتْني أن الوقت قد حان لشراء خرطوشة حبر جديدة. كنت مخططة من قبل، ولكن غريزتي النامية حيال الصين تخبرني أن الصين المسئولة عن تصنيع خراطيش الحبر في العصر الحالي.

شعرت بالكآبة وأنا أتبع امرأة إلى قسم الطابعات في القطاع الخاص بالأدوات المكتبية في المتجر.

ناولتْني علبة وقالت: «هذه هي.» ثم تركتْني وابتعدتْ.

قلبت العلبة من أجل الفحص الروتيني للملصق. كانت أخبارًا سيئة، كما هو متوقَّع. كان الملصق يشير إلى أن الحبر مصنوع في اليابان، والخرطوشة مصنوعة في الصين. كانت الخرطوشة هي الخرطوشة المناسبة لطابعتي — وحذَّرت الشركة المُصنِّعة من مخاطر استخدام علامات تجارية أخرى — ولكني فحصت العلامات التجارية الأخرى على الرف على أي حال، معتقدةً أنني ربما أجد واحدةً غير صينية تناسبني. كانت جميعها صينية. وفي الوقت الذي وصلتُ فيه إلى المنزل، كنت في حالة مزاجية تستدعي الشفقة والتعاطف. لكني لم أحصل على أيٍّ منهما.

قال كيفن بصوتٍ ينضح بالسخرية: «رائع. الآن لدينا طابعة لا يمكننا استخدامها.»

ورمقني بنظرة اشمئزاز، ثم أضاف:

«أوه، ولكنك مؤلفة؛ لذا أعتقد أنك لن تحتاجي الطابعة كثيرًا. من الجيد أنني أنفقت مِائتَي دولار على هذا الشيء.»

يمكنك أن تخمن مَن يشعر بالتذمر حيال المقاطعة مرة أخرى.

الفصل السادس

أمهات الاختراع

في رحلةٍ إلى متجر أدوات الأعمال الحرفية تعلمت أمرَين عن يوم عيد الاستقلال في الرابع من يوليو: أنه يبدأ في شهر فبراير، وأنه صيني مثل الكريسماس تمامًا.

توقَّفتُ محدقة كالبلهاء في صفوف البضائع الحمراء والبيضاء والزرقاء بمجرد أن وطئت قدمي مدخل المتجر، إنه عرض مذهل: دُمًى تُمثِّل عيد الاستقلال، وأضواء متدلية بثلاثة ألوان، وفناجين قهوة، وأوانٍ للزهور، وأكاليل زهور تُعلَّق على الأبواب، ومزهريات، وبرطمانات كعك، وتماثيل حيوانات سيراميكية، وشمعدانات، ومفارش للمائدة، وأعلام أمريكية تُرفرف على نحوٍ غير منتظم على الرفوف التي تصل إلى ارتفاع ١٢ قدمًا نحو السقف ذي البلاط الأبيض الذي يعلوني.

ما بعد ظهيرة هذا اليوم بالتحديد، يكون حب الوطن متاحًا بأسعار تصفية؛ فاللوحات المثبَّتة على الرفوف في مستوى العين تشير إلى تخفيضاتٍ على البضائع بنسبة ٥٠ بالمائة. وقفت منغمسةً في المشهد. وفي وقتٍ لاحق، وجدت مساعِدة المدير التي أخبرتْني — عندما سألتُها — بأن بضائع عيد الاستقلال تُعرَض على الرفوف بعد عيد الحب مباشرةً. كنت هنا قبل بضعة أسابيع ولكنني لا أتذكَّر أي شيءٍ من هذا. لا أعرف كيف أمكنني أن أغفل عنها.

أوضحتْ مساعِدة المدير قائلة: «إننا نعرض بضائع عيد الاستقلال مع بضائع عيد الفصح. ثم بعد عيد الفصح تبقى فقط بضائع عيد الاستقلال.»

فسألتُها: «إلى متى؟»

فأجابتني: «حتى يحين وقت بضائع الكريسماس.»

«ومتى تظهر بضائع الكريسماس؟»

«في يوليو.»

«هل يتسوَّق الناس حقًّا بضائع عيد الاستقلال الموافق الرابع من يوليو في فبراير، وبضائع الكريسماس في يوليو؟ هل يشعرون حقًّا أنهم يريدون شراءها؟»

فقالت مبتسمة: «أوه، نعم؛ فعجلة المشتريات دائرة.»

توجَّهتُ مرةً أخرى إلى قسم عيد الاستقلال لإلقاء نظرةٍ فاحصة. كنت أتوقَّع تفشيًا للبضائع الصينية، وقد صدَقتْ توقُّعاتي على الأرجح، رغم وجود استثناءات؛ فكان يوجد حامل مناديل من الفلبين، وأقواس كبيرة الحجم وعِصِيٌّ بلاستيكية مضيئة من المكسيك، ومراسيم (أوراق رسم مفرغة) تايوانية تسمح لك بكتابة USA ببلورات السكر على قمة الكعكات الصغيرة المُقولَبة المزينة بالكريمة. ووجدت منتجَين مصنوعَين في أمريكا: مجموعة أعلام مصنوعة من اللباد وممسحة أقدام ذات رسومات تُعبِّر عن عيد الاستقلال. ومع ذلك، فإن من الواضح من البداية أن الصين مسئولة عن زينة يوم مولد وطننا، وهو ما يُضفي حسًّا من المفارقة على هذه المناسبة. وثَمَّةَ جرس هواء موسيقي خشبي عليه عبارة «ليُقرعْ جرس الحرية» بخط يدوي، وعلى الرف نفسه وجدت مزهرية صينية عليها عبارة «نقف مُتَّحِدين»، ومجموعة مقوسة من اللمبات الصينية مشكِّلة عبارة «لِيُباركِ الله أمريكا». وثَمَّةَ مفارش مائدة صينية عليها العم سام، وتماثيل معدنية لملائكة الرابع من يوليو صينية المنشأ، التي لا شك أنها كانت في الأساس ملائكة كريسماس صينية حتى لُوِّنت على عجل بالطلاء الأحمر والأبيض والأزرق، في محاولة لتصريف المخزون غير المبيع المتراكم في مصنع بعيد.

اكتشفتُ المكان الذي يمكن منه شراء قطع المغناطيس المصنوعة على شكل شريطة التي تُثبَّت على ممتص صدمات السيارة والمكتوب عليها «ادعم قواتنا» و«لا تنسَ الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١». يمكنك أن تشتريَها من متجر أدوات الأعمال الحرفية، الذي يشتريها بدوره من الصين.

وكما كانت الحال مع تمثال السيد المسيح المصنوع من السيراميك في وول مارت، تساءلت هل كلَّف أي شخصٍ نفسه عناء ترجمة معنى الكلمات المكتوبة على هذا الشريط المغناطيسي للعمال الصينيين، أو فَسَّر لماذا قد يرغب شخص ما في النصف الآخر من العالم في شراء واحدةٍ منها وتثبيتها على ممتص صدمات سيارته.

وأنا أتجوَّل في الممرات، طرأتْ على ذهني فكرة أن لا أحد تقريبًا أعرفه يزين المنزل من أجل عيد الاستقلال، وإن دلَّ ذلك على شيءٍ فإنما يدل على أن الأشخاص الذين أعرفهم إما أنهم طبيعيون أو غير طبيعيين. لا أستطيع أن أتذكَّر آخر مرةٍ ذهبت فيها

إلى حفلٍ كانت فيه رايات معلقة على سور المنزل. وأستطيع أن أقول عن اقتناعٍ إنه لم يسبق لي أن دخلت منزلًا يحتوي على تمثال ملاك معدني معروض احتفالًا بعيد الاستقلال. إن احتفالنا بالعطلة معتدل، وإن كان صاخبًا؛ فكيفن يحب الألعاب النارية في عيد الاستقلال، ولكني وضعت حدًّا لعروض الألعاب النارية منذ رُزقنا بالأطفال، ورُفض اقتراحي باستخدام الألعاب المُطلِقة للشرر كبديلٍ أكثر أمنًا. هذا العام سأكون أنا التي ترفض الألعاب المُطلِقة للشرر؛ إذ يمكنني المراهنة بمبلغ كبير على أنها مصنوعة في الصين. وبطبيعة الحال، يعتريني القلق من أن كيفن سيهتم فجأةً بالألعاب المُطلِقة للشرر نظرًا لأنها باتت محظورة.

حاولت أن أُظهِر سعادتي بالعيد؛ فاشتريت علبتين من العِصِيِّ المتوهِّجة المكسيكية الحمراء والزرقاء للأطفال وخرجت إلى الحر. وبينما أسير إلى السيارة، وضعت في ذهني أن أعود في يوليو لتفحُّص بضائع الكريسماس. كما غضبت من نفسي لنسيان شراء لوازم الرسم، وهو ما جاء بي إلى متجر أدوات الأعمال الحرفية في المقام الأول. كما غضبت من نفسي لشيءٍ آخر أيضًا؛ فقد نسيت أن أسأل مساعِدة المدير السؤال البديهي: إذا كانت بضائع الكريسماس توضع مباشرة بعد عيد الاستقلال، فمتى توضع بضائع الهالوين وعيد الشكر على الرفوف؟

أشار رئيسي في العمل إلى أنني أخدع نفسي إذا ظننت أنني كنت أتجنَّب المنتجات الصينية، على الرغم مما تقوله ملصقات هذه المنتجات.

فقال: «إن المكونات الصينية في كل مكان. لا يمكنكِ تجنُّب تلك المكونات، بصرف النظر عن محاولاتك الحثيثة. هذا مستحيل.»

إنها فكرة كنت أتأملها لشهور، منذ أن احتفظت بالمصباح الأمريكي ذي الجزء الصيني. ذُكِّرْتُ هذا الأسبوع مرةً أخرى بصعوبة تجنُّب الصين عندما اشتريت قُرطَين من فنان محلي. كنت أشعر بسعادة بنفسي حتى وصلت إلى المنزل ولاحظت أن الصندوق المجاني الهدية الذي جاءا فيه كان مصنوعًا في الصين.

واصل رئيسي في العمل نقدَه قائلًا:

«أتعلمين ما تقومين به؟ أنتِ تؤخرين الاعتماد على الصين، ولستِ تهربين منه. كما أنكِ تخدعين نفسكِ أيضًا.»

هذا هو رئيسي اللطيف يتحدَّث. أما رئيسه — المتذمِّر على نحوٍ متواصل — فلم يتوقَّف عن حديثه عندما حاولت إيقافه بالإشارة إلى أنني أكتب سلسلة مقالات عن المقاطعة لمجلة الأعمال التجارية التي أعمل فيها.

فحرَّك كتفيه في استهجانٍ قائلًا: «لا أحد يعبأ بهذه الأمور إلا أنت. ويبدو هذا كأنه حيلة أخرى من حيلكِ لانتقاد وول مارت.»

أظن أن رئيسي اللطيف كان يقضي كثيرًا من الوقت مع رئيسه المتذمِّر؛ لأنهما بدوا متشابهين تشابهًا كبيرًا.

قال الرئيس اللطيف: «ربما يمكنكِ تدبُّر أمركِ لمدة عام دون منتجات صينية، ولكن عاجلًا أو آجلًا سوف تقعين تحت سيطرة الصين. هذا أمر لا يمكنكِ الهرب منه.»

تجهَّمت في وجهه وهو يَهُمُّ بالمغادرة.

وقلت له بعدما أدار ظهره لنا: «شكرًا لدعمك.»

إنه مُحِقٌّ، وهذا بطبيعة الحال يجعله أكثر إزعاجًا. أنا لا أعيش عادةً دون المنتجات الصينية، فأتوصَّل إلى إجراءاتٍ مؤقتة لمساعدتي حتى أجد خياراتٍ أخرى، وهي على ما يبدو صينية. إليك مثالًا على ذلك في خرطوشة الطابعة. بعد أن جفَّ حبرها بدأت أطلب من كيفن طباعة صفحات لي على طابعة مكتبه، وهي صينية في حد ذاتها على الأرجح؛ لم أجرؤ قط أن أطلب منه أن يفصلها من مقبس الكهرباء ويفحص الملصق الموجود على الجزء الخلفي من أجلي؛ فقد كان غاضبًا بما فيه الكفاية حيال طباعة الصفحات ولم أرغب في أن أُجرِّب حظي معه أكثر من ذلك.

ثم غادر كيفن البلدة — سافر إلى باريس لإدارة برنامج دراسة في الخارج في الصيف للجامعة — وبذلك وضع نهاية للاستعانة بهذا الخيار بالنسبة إليَّ. ومنذ ذلك الحين أصبحت أرسل المستندات إلى نفسي في العمل عن طريق البريد الإلكتروني ثم أطبعها هناك. إنها بضع صفحاتٍ فحسب ولا تستهلك سوى قليلٍ من الحبر، ولكني أحضرت ورق طباعة أمريكيًّا من المنزل لتخفيف شعوري بالذنب خلال القيام بأعمالٍ شخصية في العمل. ظَلِلْتُ أُذكِّر نفسي أن ألقيَ نظرة على الجزء الخلفي لطابعة المكتب، وخرطوشة الحبر في داخلها أيضًا؛ كي أعرف مكان صناعتهما، للمعرفة، ولكن أخشى أن يراني أحد زملائي في العمل ويسألني عما أفعل. كنت — على الأرجح — سأقدِّم اعترافًا كاملًا، وربما بعد ذلك سوف يُخبِر هذا الزميل مديري الغاضب، الذي قد يفصلني من العمل بدوره

لاستخدامي حبر الشركة. أو الأسوأ، أن يسمح لي بالاحتفاظ بوظيفتي ولكن يُخبِرني أنني لن أستطيع الطباعة في العمل بعد الآن. وسأكون في مأزق حقًّا؛ فسأُضْطَرُّ إلى قيادة سيارتي إلى المكتبة العامة، التي تتيح لك طباعة ٢٠ صفحة مجانًا خلال كل زيارة. تحققت من هذا الأمر منذ بضعة أيامٍ تحسُّبًا لأن يصل الأمر إلى هذا الحد.

تُمثِّل طابعتنا التي نَفِدَ حبرها واحدةً من سلسلةٍ من المشكلات الأخيرة في قطاع الإلكترونيات؛ حيث إن الصين هي ملكة هذا القطاع. في أحد الأيام وأنا مستلقية على الأريكة، راجعتها في ذهني:

الأولى: بدأت شاشة تليفزيوننا الصغير تظلم لدقائق في كل مرة، بما في ذلك مرتان على الأقل أثناء ذروة فيلم بوليسي كان يُعرَض على قناة مجانية ونحن في قمة الانتباه.

الثانية: توقَّف مشغل الأقراص المدمجة عن العمل بعدما وضعتْ صوفي شيئًا ما داخل درج القرص في حين غفلةٍ مني. لم أعرف ما السلاح الذي استخدمتْه، ولكنه صغير وقاتل، على الأقل بالنسبة إلى مشغل الأقراص المدمجة، الذي أصبح يُصدِر صوت نقرات لا تنتهي كلما شغَّلته، لكنه لا يُصدِر موسيقى. كل يوم أو يومين، أضغط زر التشغيل لمعرفة هل المشكلة قد حَلَّت نفسها أم لا، لكن حتى الآن لم يُحالفْني الحظ. لست الشخص الوحيد الذي يفتقد الاستماع إلى الموسيقى أيضًا؛ ففي فترات الظهيرة المتَّقِدة، عندما يكون الجو حارًّا للغاية بما لا يسمح باللعب في الخارج، أسمح للأطفال بإزالة وسائد الأريكة وأُشغِّل نسخة أغنية من أغاني عيد الميلاد بصوت الدُّمى المتحركة مرارًا وتكرارًا في الوقت الذي يقفزون فيه على زنبركات الأريكة. في هذه الأيام يقفزون في صمت. وقفزاتهم دون موسيقى تنطوي على كآبةٍ تُذكِّرني بالسيدات البدينات اللاتي رأيتهن يُنفِّذن بإذعانٍ حركات في صف التمارين الرياضية المائية في جمعية الشبان المسيحيين بالقرب من منزلنا، فلا يبدو على أحدٍ منهم الاستمتاع كثيرًا.

الثالثة: بالمثل، متعة البالغين هذه الأيام في خطر أيضًا؛ فقد انكسرت شفرة خلاطنا منذ بضعة أيام، وعندما اتصلت بالشركة المصنِّعة قالوا لي إن الشفرات البديلة التي يبيعونها مصنوعة في الصين.

سألني كيفن أثناء مكالمة هاتفية للمنزل من فرنسا: «إذن، تقولين لي إننا لن نتمكَّن من صُنْع مشروب المارجريتا هذا الصيف؟» من المفترض أن باريس تجعل الناس رومانسيين. يمكنني سماع نبرةٍ ما في صوته، لكنها لا تبدو كالحب.

الرابعة: توقَّفَت المكنسة الكهربائية عن الشفط، على الرغم من قيامي بتنظيفٍ مكثَّف لأجزائها الداخلية المروِّعة. وشككت أن ما يسدها شيء من الصين. ربما شُفِطَت بها لعبة قديمة.

باختصار، كلما نظرت في أرجاء المنزل في تلك الأيام، رأيت سلسلة من المشكلات، جميع حلولها تقريبًا صينية.

كان عليَّ حقًّا أن أحل كل هذه المشكلات، إلا أن شعورًا بالضيق قد تملَّكني، وهي وظيفة الأيام الرطبة التي تبلغ درجة الحرارة فيها ٩٠ درجة فهرنهايت. وهناك على الأريكة، استلقيت محدقةً في السقف مفكرةً في السيناريو الأسوأ. إذا لم أتمكَّن من العثور على أي شيءٍ غير قطع الغيار الصينية لمشغل الأقراص المعطَّل، والتليفزيون المتغيِّر الأحوال، والخلاط ذي الشفرة المكسورة، والمكنسة الكهربائية العاجزة، فإنني أستطيع التعايش مع ذلك. أستطيع العيش من دون كل تلك الأشياء، على الأقل حتى الآن، ربما إلى الأبد؛ فبطريقةٍ ما سأشعر بارتياحٍ للتخلص منها؛ فكما هي الحال دائمًا، يبدو المنزل مملوءًا ﺑ «أشياء» تحتاج إلى تنظيف وترتيب وإصلاح. أحب أن أعتقد أنني مَن اتبع سرًّا مبدأ التبسيطية عندما يتعلق الأمر بالممتلكات المادية. يمكن أن تكون هذه فرصتي لمعرفة ما إذا كنت أعني هذا حقًّا.

على أي حال، هذه ليست مشكلات بلا حلول، حتى مع الحدود التي تفرضها المقاطعة؛ فعلى سبيل المثال، يمكنني قراءة الكتب بدلًا من مشاهدة التليفزيون الذي يُسبِّب تعفُّن العقول. ومن المؤكَّد تقريبًا أن يصبح الأطفال متقدي الذكاء إذا حرمْتُهم من التليفزيون وقرأتُ لهم بدلًا من تركهم يشاهدونه. وعدم امتلاك مشغل أقراص لا يُمثِّل مشكلة بالقدر نفسه مثل عدم وجود التليفزيون. يمكننا الاستماع إلى الموسيقى ونحن في السيارة. وفي داخل المنزل، يمكن للأطفال الاستمرار في تدمير زنبركات الأريكة خلال القفز في صمت. ربما لا يكون الأمر مرحًا بالقدر نفسه كفعلهم هذا بينما يُدوِّي صوت أغاني الكريسماس في أرجاء المنزل، ولكن من الناحية الفعلية هم لا يتضررون أيضًا. أما المكنسة الكهربائية المعطلة فهي آخر ما يُقلقني؛ إذ أستطيع كنس الأرضيات، وهذا موفِّر للوقت حقًّا؛ حيث سأقوم بأداء التمارين الرياضية أثناء عملية تنظيف المنزل. ويمكن صُنْع مشروب المارجريتا باستخدام مكعبات الثلج.

انقضى ما يقرب من نصف العام. يمكنني العيش دون كل هذه الأشياء؛ فمعظم أرجاء العالم تعيش حياتها اليومية من دونها. لا تمثل الحياة دون هذه الأشياء مشكلة

على أي حال إلا في الواقع الأمريكي المدلَّل. بصراحة، ما مدى صعوبة العيش دون جهاز تليفزيون، أو مشغل أقراص، أو مكنسة كهربائية، أو خلاط؟ أعتقد أنه ليس صعبًا للغاية. ثم فكرت أنه ربما لا يكون هذا هو السؤال الصحيح. قد يكون السؤال الأفضل: ما مدى صعوبة العيش مع كيفن دون هذه الأشياء؟

لا يرى ويس — على غرار والده — فضيلة في مقاطعة الصين.

سألني يومًا ما: «ألا نحب الصين؟»

استغربت بشِدةٍ لهذا السؤال، ورددت:

«نحن نحب الصين.»

فواصل ضغوطه متسائلًا:

«أليسوا لطفاء مع الآخرين؟»

فأكدت له قائلة: «إن الصينيين أشخاص طيبون جدًّا. لا يختلفون عن الأشخاص الموجودين في أي مكان آخر.»

فسألني: «لماذا إذن لا نشتري أشياء صينية؟»

لقد وصلنا إلى هذه المرحلة من قبلُ ولكني أتعثَّر في كل مرة؛ ففي أيامٍ كثيرة لا أستطيع أن أُذكِّر نفسي بالضبط بسبب فعلنا هذا؛ ولهذا فإن شرح ذلك بطريقةٍ منطقية لطفل يبلغ من العمر أربع سنوات يتخطى نطاق قدراتي. ومع ذلك، أعتقد أنه من واجبي أن أحاول.

شرحت قائلة: «نحن نحب الصين، ولكنها مكان كبير جدًّا يضم كثيرًا من المصانع، ونحن نريد أن نُعطيَ البلدان الأخرى فرصة بيع الأشياء لنا.»

فتطلَّع في وجهي في صمت بأنف مُجعَّد وعينين ضيقتين وأصابعه محكمة بشِدةٍ على شطيرة زبدة الفول السوداني. تصوَّرت للحظةٍ أنني أزلت الضباب من أمام فهمه الواهن للعالم. وتخيَّلت فقاعة فكرية فوق رأسه الصغير مكتوبًا فيها: «نعم، فهمت. عالم أكثر عدلًا، حيث يستطيع كل شخصٍ أن يتاجر فيه، ولا تسحق فيه القاطرات الضخمة مثل الصين وأمريكا الجميع.»

أعادني ويس إلى الواقع متسائلًا:

«هل السيوف المضيئة تأتي من الصين؟ يمتلك تايلر سيفًا مضيئًا. أريد واحدًا في الكريسماس. وأعلم أن سانتا كلوز سوف يحضر لي واحدًا.»

نظرت إليه في صمت. أشفقت عليه من أن أخبره أن السيوف المضيئة تأتي من الصين. لم أتحقَّق من هذا بالتأكيد، ولكن عند هذه المرحلة ليس عليَّ فعل ذلك. ومَن يدري؟ موسم التسوُّق للكريسماس على بُعد أشهر. ربما بحلول هذا الوقت قد يصنع مصنع في فيتنام أو كمبوديا سيوفًا مضيئة ويشحنها لموزِّعي الألعاب بالجملة في أماكن مثل تكساس وكاليفورنيا، وسينتهي بها الأمر بالوجود على رفوف المتاجر في حَيِّنا. أُدرِكُ أنه احتمال بعيد، ولكن يمكن أن يحدث؛ فأشياء أغرب من هذا تحدث.

قلت لِويس: «ضعْه في قائمتك لسانتا. سنرى ما رأيه في هذا. ولكن ضع في الاعتبار أن القائمة المكتوبة لسانتا ليست سوى قائمة «اقتراحات»؛ فلا يوجد شيء مؤكَّد في الكريسماس.»

توقف ويس عن تناول شطيرته. ونظر إليَّ نظرةً لائمةً لضعف إيماني بسحر الكريسماس.

ثم استطرد: «لكنني يا أمي أعرف أن سانتا سوف يُحضر لي واحدًا.»

استقرَّ فأر تحت حوض المطبخ، وهو تطوُّر بدا أنْ لا علاقة له في البداية بمقاطعة الصين. كانت والدتي — التي تزورنا قادمةً من كاليفورنيا — هي أولَ مَن اكتشفه: إذ قفز الفأر من سلة المهملات واختفى سريعًا في الظلام بعد أن فتحت الخزانة لرمْي شيءٍ ما، فصفقت الباب بقوةٍ وأمضت فترة الظهيرة لا تكاد ترفع عينها المتوترة عن ذلك الاتجاه.

روت لي قائلة: «لقد رأيته جيدًا. لم أخلط بينه وبين شيءٍ آخر.»

كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك — كان يمكن أن يكون جرذًا بريًّا — ولكن هذه الأخبار ليست جيدة؛ فلم يكن مقررًا أن يعود كيفن من فرنسا إلا بعد أسبوعين. واضْطُرِرْتُ إلى التعامل مع الفأر بنفسي. امتلأت نفسي رعبًا من فكرة ما ينتظرني في المستقبل. بل ثَمَّةَ شعور طفيف بالخيانة. إن زواجنا من نواحٍ عديدةٍ زواجٌ تقليدي؛ فأنا أبعث بطاقات الكريسماس، وأتذكَّر أعياد الميلاد، وأختار ألوان الطلاء. وكيفن يقوم بالشواء، ويصلح الأنابيب المسدودة، ويتعامل مع الحشرات وأي شيءٍ ميت يقبع تحت المنزل. وهذا التقسيم للواجبات الزوجية أمر فطري وبديهي لكلٍّ منا. ومكافحة الحشرات تقع بوضوحٍ ضمن حدود واجبات كيفن، ومع ذلك فقد كان على بُعد آلاف الأميال وأسبوعين عن خزانة المطبخ والفأر الموجود داخلها. ولم أكن أملك خيارًا. كنت سأقوم بوظيفة كيفن وأتعامل مع الدخيل.

هل سأفعل؟ تَملَّكني شعور بالإلحاح لفعل ذلك عندما أخبرتْني والدتي لأول مرة بأمر الفأر، ولكن بعد ذلك طرأت على ذهني فكرة أنه ربما كان حدثًا لمرة واحدة، ولن يتكرَّر أبدًا. ربما أصابت والدتي الفأر بالذعر عندما صفقت باب الخزانة فهرب من المنزل نهائيًّا بحثًا عن مكانٍ أكثر أمنًا. أو ربما يمكنني الحفاظ على نظافة المنزل بحيث لا يتبقَّى شيء يُشجِّعه على البقاء فيه. إذا وضعتُ كل ذَرَّة طعام في الثلاجة ونظَّفت الأرضيات بالمكنسة والممسحة كما لو أن حياتي تتوقَّف على ذلك، فربما أستطيع حرمان الفأر من أي شيءٍ مثل مقرمشات شيريو المنتهية الصلاحية المَنسيَّة التي قد تُبقيه هنا. لم أعرف أحدًا نجحتْ معه هذه الطرق، ولكن ما يدريك؟ وربما ليس الوضع مُلحًّا كما يبدو. إذا وضعت تركيزي في هذا الأمر، فربما يمكنني أن أعيش مع الفأر في المنزل لمدة أسبوعين، إذا كان الفأر عاقلًا وابتعد عن طريقي. يمكن أن يدَّعيَ كلانا أنَّ أحدنا لا يعرف شيئًا عن الآخر، ونواصل حياتنا إلى أن يعود كيفن ويتولى الأمر.

المشكلة هي أن هذا الفأر لم يكن يعيش في حاله، فلم يكن لديه أي ذوقٍ بتاتًا؛ ففي اليوم التالي لرؤية والدتي له، ترك أدلة مقيتة على زياراته في غرفة الغسيل وعلى طاولة المطبخ، بجانب دفتر شيكاتي وكومة من الغسيل النظيف. وفي اليوم التالي اكتشفت أنه أمضى بعض الوقت في الحجرة الموجودة في الطابق السفلي؛ مما أصابني بقُشَعْريرة واستحضرت مخاوف مشئومة من الإصابة بفيروس هانتا. بعد ذلك الْتَهم عبوة علكة من جوسي فروت كانت في حقيبة يد والدتي، ثم استخدم الحقيبة كمرحاض. كان من المقرَّر أن تعود والدتي إلى كاليفورنيا في غضون أيامٍ قليلة، وقد لاحظتُ هذه المرة أنها يبدو عليها الحماس حيال الذهاب.

بدأت أفكر في أنَّ تجاهُل الفأر ليس في الواقع حلًّا لهذه المشكلة.

قال كيفن عبر الهاتف آمرًا: «لا تقتليه.»

كان وقتًا متأخرًا من الليل في باريس، حيث يتمتع كيفن بهواء الصيف الذي ينسلُّ من النافذة المفتوحة في غرفة فندقه النظيفة الخالية من الفئران. كنا نُقيِّم خياراتي للتخلص من الفأر. استبعدنا السم؛ فهو يبدو خطيرًا لأن لدينا أطفالًا وكلبًا، إضافةً إلى المشكلة المزعجة بموت الفأر داخل جدران منزلنا. أعترف بالخوف من فكرة المصيدة الخشبية القديمة الطراز التي تقتل الفأر على الفور، فأنا أخشى على أصابعي، وبطبيعة الحال، ستوجد مشكلة التعامل بعد ذلك مع الفأر الميت. إنني أُصاب بالغثيان بسرعةٍ من الأشياء التي تتحرك سريعًا على الحائط، لكني كنت أُصاب بالغثيان أسرع حين أرى أشياء ميتة.

قدَّم كيفن حلًّا يتسم بالتعاطف. وَجَّهَني إلى شراء واحدة من مصائد الفئران الرحيمة التي كنا نستخدمها في منزلنا القديم، وهي عبارة عن صندوق بلاستيكي صغير يُغلَق بسرعةٍ عندما يدخل فيه الفأر.

وأضاف: «سيستمتع الطفلان بالأمر إذا أمسكتِ به وتركتِه يذهب في مكانٍ ما. يمكنكِ أن تُحرِّريه على ضفاف البحيرة بجوار منازل الأغنياء. سيكون مشروعًا أُسريًّا رائعًا. هذا ما يجب عليكِ القيام به.»

فكَّرت في نفسي أنه لا ينبغي عليَّ ذلك، هذا ما ينبغي عليك «أنت» القيام به، ولكني التزمت الصمت.

ماطلت ليومٍ أو يومين، حتى أشارت جارتي إلى شيء لم أضعه في اعتباري.

«ربما كان الفأر أنثى حاملًا وعلى وشك الإنجاب. لن تستطيعي أبدًا التخلُّص منهم جميعًا بعد ذلك.»

توجَّهت إلى متجر الأدوات المنزلية بعد ظُهْر ذلك اليوم. حينها وقفَت المقاطعة في طريق وسيلة أرحم وألطف للقضاء على الفأر. قادني شاب رصين إلى مَمرٍّ بيع أدوات مكافحة الحشرات بعد أن سألتُه هل المتجر يبيع مصائد فئرانٍ رحيمة. شعرت بالمشكلات بمجرد أن قرأت الملصق الموجود على الجانب الخارجي من المصيدة. كان يقول: «صنع في الصين.»

التفتُّ إلى الشاب. كان يمتلك عينين داكنتين تحاولان تشكيل حُكْم عليَّ، لكنني قرَّرت إشراكه في معضلتي على أي حال. لاحظت أن حرجي من الاعتراف بما أنوي فعله في المقاطعة يقل عكسيًّا مع مستوى يأسي.

سألته: «هل لديك أي أنواع أخرى من المصائد الرحيمة؟» وأمسكت المصيدة لأتفقَّدها.

ثم شرحت مفسِّرة: «كما ترى، مكتوب هنا أنها مصنوعة في الصين، وأنا لا أشتري المنتجات الصينية.»

ضيَّق الشاب عينيه الداكنتين، ثم التفت برزانة للتحقُّق من رفوف المصائد أمامنا. مدَّ يده إلى مصيدةٍ من السلك والخشب تقليدية تصنيع شركة فيكتور، وقلب العلبة في يده حتى وجد ملصق المنتج.

ثم قال لي بجدية: «هذا الملصق يقول إنها مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن يمكن أن يكون المقصود الكيس البلاستيكي الذي يحتويها، وليس المصيدة الموجودة في الداخل. ولكن قد تكون هذه هي خيارَك الأفضل.»

هذا الشاب يملك مهاراتٍ في مقاطعة الصين. لا شيء يُفلِت من بين يديه، يمكنني معرفة ذلك؛ فهززت كتفي وقلت وأنا أمد يدي:

«سوف أشتري اثنتين.»

لم أنصب المصيدتين الأمريكيتين. في الحقيقة، لم أكن على يقينٍ من أنني كنت مستعدةً للقيام بذلك عندما اشتريتهما، ليس فقط لأنني أخشى على أصابعي. لم أضع المصيدتين لأن الأمل ظل يراودني في أن يختفيَ الفأر من تلقاء نفسه وألا أُضْطَرَّ إلى التعامل معه لسببٍ بسيط غير عقلاني؛ هو أنني لا «أريد» التعامل معه. ثم أعتقد أنني كنت محظوظة؛ ففي صباح أحد الأيام شممت رائحة جثةٍ ميتة في غرفة الغسيل. في المعتاد كنت سأشعر بالرعب لفكرة موت كائن داخل منزلنا، ولكن إذا كان الفأر قد خرج من حياتنا دون تدخُّل مني، فإني أتقبَّل ذلك تمامًا. استطعت تجنُّب غرفة الغسيل لبضعة أيام. وكنت في مزاجٍ جيد عندما غادرت المنزل إلى العمل في الصباح، معتقدةً أنني تحاشيت رصاصةً أخرى، ولكن عندما عدت بعد الظهر، تبدَّدت آمالي، فقد تبدَّدت الرائحة. لم تكن رائحة موت الفأر رغم كل شيء، لم تكن سوى رائحة مجموعة من المناشف الرطبة في المجفف.

تحقَّقت من التقويم الموجود في المطبخ. بقي ما يزيد قليلًا عن أسبوع على عودة كيفن. تركتُ المصيدتين في الكيس البلاستيكي الذي جاءتا فيه من متجر الأدوات المنزلية دون المساس بهما وراودني الأمل في انتهاء الأمر على أفضل نحوٍ ممكن، أو أسوأ نحوٍ ممكن من منظور الفأر.

نحَّيْت أفكاري عن الفأر جانبًا، وشرعت في إصلاح الأجهزة المنزلية. أخذتُ المكنسة الكهربائية إلى ورشة إصلاح على مشارف البلدة، حيث راح صاحبها يستفيض في الحديث عن فلسفة الانقسام المتزايد في عالم المكانس الكهربائية. أخبرني أنه كلما مَرَّ الوقت، أصبح لديَّ خياران اثنان من المكانس الكهربائية: المكانس الصينية الرخيصة التي تخرب خلال بضع سنوات، أو المصنوعات الألمانية الثقيلة التي تبدأ من سعر ٤٠٠ دولار حتى ١٠٠٠ دولار أو أكثر.

وأضاف: «ليس لدينا شيء وسط فيما بينهما.»

ونظَّف خرطوم مكنستنا مجانًا ولم يَطُلْ مكوثي في ورشته أكثر من عشر دقائق.

قلت وأنا أخرج من الباب: «سأعود في غضون بضع سنوات عندما تتعطل هذه المكنسة.» ثم أخذت معي منشورًا تسويقيًّا لمكانس كهربائية ألمانية.

بدا أن التليفزيون أصلح نفسه، فلم تُظلم الشاشة لبضعة أسابيع. واعتبرت أن المسألة منتهية. وأخبرني كيفن في مكالمة هاتفية أنه سيأخذ مشغل الأقراص المدمجة لورشة إصلاح بالقرب من منزلنا عندما يعود من فرنسا.

وأضاف: «الرجل الذي يعمل هناك عبقري في إصلاح الأجهزة. سوف يكتشف السبب، لا مشكلة في ذلك.»

لم أتمكَّن من العثور على طريقة لإصلاح الخلاط، فقمت بنقله إلى رف في غرفة الغسيل في الوقت الحاضر — وكنت حذرةً في التأكُّد من عدم وجود خطر من الفئران وأنا أفتح خزانة المطبخ — على أمل ألا يسأل كيفن عنه لدى عودته.

بمجرد التخلص من مشكلات الأجهزة الإلكترونية، واجهت مشكلة في النظارة الشمسية الجديدة؛ فقد كُسِر الإطار المعدني التزييني الدقيق في نظارتي الشمسية الإيطالية القديمة، وخرجَت العدسة عن السلك البلاستيكي الرفيع الذي يُبقيها في مكانها. أخذت واحدة من النظارتين الصينيتين الضعيفتين اللتين أحضرتْهما سكرتيرة القسم لدى كيفن، ولكن بعد يومٍ أو يومين أسقطتها على الأرضية الإسمنتية للحمَّام أثناء رحلة ميدانية إلى حديقة الحيوان مع طلاب صف ويس التمهيدي. انكسرت النظارة إلى قطعتين منفصلتين تمامًا على الأرض. أخذت القطع وألقيتها في سلة المهملات المتخمة، وهو ما يُعَدُّ نهايةً مناسبة لظهورها القصير غير المُرضي في حياتنا.

وجدت حلًّا بسيطًا على المستوى التكنولوجي لعدم وجود نظارة شمسية: تضييق العينين عند النظر.

وللحفاظ على إيجابيتي، حاولت عدم التفكير في ثلاثة أشياء: الطابعة العديمة الفائدة، والدرج المكسور في المطبخ، ونفاد الدبابيس الصينية.

قال كيفن لي عبر الهاتف: «إنه يُعَدُّ سؤالًا وقحًا.»

فسألتُه: «إذن كيف يعرف الناس في أوروبا المكان الذي تأتي منه الأشياء التي يشترونها؟»

فقال: «على ما يبدو أنهم في الغالب لا يعرفون. إلا إذا سألوا، وكما قلت لك، هذا أمر يفتقر إلى التهذيب عمومًا. يرمقني كثير من البائعين بنظرات غريبة عندما أطرح هذا السؤال.»

في الأيام التي سبقت مغادرة كيفن لفرنسا أدركتُ أن قضاء هذا الوقت في الخارج ربما يخدم هدفًا مفيدًا؛ فيمكنه شراء كمية كبيرة من اللعب والحُلِيِّ المصنوعة في فرنسا تكون مزيةً لنا مع اقتراب الكريسماس. هذا عمل مخادع ويبدو أنه يتعارض مع روح المقاطعة، ولكني قلقة حقًّا إزاء الكريسماس، ولا يوجد شيء من الناحية الفنية في قواعد المقاطعة يمنع ذلك. اتضح لي أن فكرتي الخادعة فاشلة، فزيارات كيفن للمحلات والأسواق التجارية في باريس بحثًا عن سلع مصنوعة في فرنسا قد باءت بالفشل.

روى لي جهوده حتى ذلك الحين. في أحد الأيام، كان على وشك شراء ثلاث سلاسل مفاتيح على شكل برج إيفل من رجل في أحد أسواق الشارع، ثم تذكَّر أن يسأل الرجل أين صُنعت.

ردَّ الرجل: «في الصين.»

أعادها كيفن إلى الرجل في احترام.

وحكى لي قائلًا: «عندما شرحت للرجل سبب عدم تمكُّني من شرائها، تفهَّمني بحق، فسألني عن جنسيتي ثم أخبرني أنه بسبب الواردات الصينية وثلاثين عامًا من سوء الأداء الحكومي في فرنسا لم يجد طريقة يمكنه من خلالها كسب قوت يومه سوى بيع الأشياء في السوق السوداء.»

قابل كيفن أرواحًا أخرى مشابهة بين الفرنسيين؛ فعندما ذهب إلى متجر ملابس رجالية لشراء بذلة وسأل عن مكان صُنْعها، أخبرته الفتاة أن العملاء الذين يسألون هذا السؤال نفسه يتزايدون أكثر وأكثر. وأخبرت كيفن عن العميل الذي جرَّب سروالًا ولكن بعد ذلك قرَّر عدم شرائه لأنه مصنوع في الصين.

وفي الغالب كان الناس يرمقونه بنظرات عدم فهم، بل ونظرات عدوانية.

واستطرد قائلًا: تركني موظف المتجر دون أن يجيبني عندما سألته عن مكان صُنْع هذا القميص. أعتقد أنه اعتبر ذلك مضايقة.»

وأكَّد لي أنه سيواصل البحث عن هدايا فرنسية، رغم عدوانية البائعين.

وقال محذرًا: «سأكون صادقًا معك: فرنسا تعتمد بثقلٍ على المنتجات الصينية.»

في غضون ذلك الوقت، كان الفأر مختفيًا، وذلك قبل أن يُفصِح عن وجوده في جرأةٍ غير مسبوقة.

كنت جالسة على طاولة المطبخ أفحص البريد، عندما سمعت خشخشة كيس بلاستيكي تحت الحوض، في المكان نفسه الذي التقتْ فيه والدتي أول مرة بالفأر. لقد نقلت

كيس القُمامة إلى خارج الخزانة وعلَّقته على مقبض أحد الأدراج لتجنُّب وصول الفأر إليه، وتجنُّب الحاجة إلى فتح الخزانة خوفًا مما قد أجده في الداخل. لا يزال يوجد في سلة المهملات كيس بلاستيكي، على الرغم من أنه فارغ، كما سيكتشف الفأر قريبًا.

وقفت ومشيت على أطراف أصابعي نحو الخزانة. في طريقي أمسكت منشفة أطباق من فوق ظهر أحد الكراسي — السلاح الذي بدا لي فكرة جيدة — وأشرت إلى كلبنا ريك ليبقى قريبًا ورائي. رمقني ريك بنظرة ملل، وزفر، وأسقط رأسه إلى الأرض مرةً أخرى.

لا أتعامل من المواقف السريعة بنجاحٍ في العادة، ولكن هذه المرة ارتجلت خطة للتعامل مع الفأر في الثواني القليلة التي استغرقتُها في انتقالي لمسافة ثماني أو تسع أقدام من مقعدي إلى باب الخزانة. تخيَّلت المشهد يحدث بهذه الطريقة: سأفتح الباب، وأسحب ببطءٍ سلة المهملات نحوي، ثم أرمي المنشفة على الفأر لشل حركته. بعد ذلك سوف أجذب سلة المهملات، وأندفع نحو الباب الخلفي وأرميها، وأتخلص من الأمر كله في الفناء الخلفي، مسببةً تجربةً مؤلمة للفأر، حتى إنه سوف يفرُّ من المنزل ولا يعود إليه أبدًا.

نفَّذت الخطوة الأولى كما هو مخطط لها وفتحت الباب برفق. بعد ذلك أمسكت بحذرٍ بحافة السلة وأمَلْتُها نحوي، وكنت ممسكة بالمنشفة في يدي الأخرى. حدَّقت من فوق الحافة نحو ما يوجد داخل الكيس البلاستيكي الأبيض داخلها، وكانت كل ذَرَّةٍ من جسدي مستعدةً للشروع في العمل بسرعة.

كان إنذارًا كاذبًا. عندما نظرت داخل السلة، لم أجد شيئًا سوى الكيس البلاستيكي فارغًا. اختفى الفأر دون أي أثر. تنفَّست الصُّعَداء واستقمت في وقفتي وتراجعت نحو طاولة المطبخ، حيث جلست وتأملت الخيارات المتاحة أمامي، التي كانت مروِّعة وقليلة. والتفَتُّ للنظر إلى التقويم على الجدار. بقيت خمسة أيام على عودة كيفن.

بعد ذلك ألقيت نظرة طويلة على الكلب، لا يزال مفترشًا الأرض في جانب الغرفة. كان ريك يُثبِت أنه عديم الفائدة مثل استخدام منشفة الأطباق كشكلٍ من أشكال الأسلحة المضادة للفأر، وكان أمرًا مؤسفًا؛ لأنه منذ غادرت أمي البلدة كان الكلب هو أقرب ما يكون للرفيق البالغ الذي يُقدِّم المشورة لي عن المقاطعة والحوادث المنزلية الأخرى.

حاولت قمع المرارة المتزايدة التي أشعر بها تجاه كيفن بسبب اضطراري إلى اللجوء إلى كلبٍ كبيرٍ عديم الاكتراث من أجل السلوى في وقتٍ عصيب.

قلت لريك بينما فتح عينًا واحدة لبرهة: «خمسة أيام.»

لن نتمكَّن من اجتياز هذا الأمر بنجاح.

الفصل السابع

صيفٌ مفعم بالتذمُّر

كان الأطفال في حالة ترقُّب جنونية مساء يوم عودة كيفن من فرنسا. كانت صوفي تدور بسرعةٍ حول طاولة المطبخ حتى اصطدمت في كرسيٍّ وخدشت جبينها. وكان ويس يقفز بحماسٍ شديد على زنبركات الأريكة وطار فوق جانب الأريكة المُنجَّد ووقع على مشغل الأقراص، وبطريقةٍ ما لم يتعرَّض لإصابة. وقد اختلطت عليَّ معلومات طائرة كيفن وتركته في المطار لمدة ساعة حتى أنقذه أخي الأكبر.

حين ظهر كيفن عند الباب الأمامي كان الوقت قد تجاوز موعد خلود الأطفال إلى النوم وكانت الدموع تخطُّ وجناتهم. لم أشعر أنا نفسي بحماسٍ شديد، ولكن هذا شيء تستطيع كمية كبيرة من الهدايا الأوروبية إصلاحه. فتح كيفن حقيبةً ووزَّع هدية تلو الأخرى: مركبًا شراعيًّا فرنسيًّا وسِكِّينًا حقيقية لِويس (عبستُ ولكني احتفظت بسلطتي الأبوية لوقتٍ لاحق) ودمية محشوة على شكل أرنب فرنسية المنشأ لصوفي. وكان يوجد ألعاب ألمانية بزنبرك، وملابس داخلية إيطالية لي، ومجموعة من قطع الشوكولاتة الفرنسية للفأر.

لم تكن الشوكولاتة للفأر، ولكنه أكل نصف دستة من قطع الشوكولاتة ذات الورق الذهبي في الليلة الأولى التي عاد فيها كيفن إلى المنزل بعد أن تركناها دون أن نفتحها على طاولة في غرفة المعيشة. وقد كان لمصير الشوكولاتة أثر غيَّر مشاعر كيفن حيال مكافحة الحشرات بالقتل.

سألني في صباح اليوم التالي ونحن نفحص الأغلفة الذهبية وقطع الشوكولاتة غير المأكولة المتناثرة على الأرض: «أين قلتِ إنك وضعتِ المصيدتين الخشبيتين؟»

لدهشتي، لم أكن متأكدةً من أنني أريد أن أُخبِره. لقد غيَّرت رأيي حيال موضوع قتل الفأر في الأيام الأخيرة. لم يكن السبب هو اعتراضي على هذه الفكرة بالمطلق، لكنني

وجدت أنني أريد فرصةً أخرى لتخليص المكان من الفأر دون الحاجة إلى الاختيار بين بديلين كريهين: انتهاك المقاطعة بشراء مصائد رحيمة صينية والإبقاء على حياة الفأر، أو قتل الفأر باستخدام مصيدة أمريكية قاتلة وإنقاذ المقاطعة. نبع هذا التحوُّل في مشاعري من لقائي بالفأر وجهًا لوجه أول مرة، والذي كان كما وصفتْه والدتي لي بالضبط بعد لقائها به بأنه «كائن صغير لطيف، وإن كان قذرًا أيضًا، وربما كان حاملًا للأمراض.»

حدث لقائي بالفأر فيما بعد ظهيرة أحد الأيام عندما كنت أجلس مرةً أخرى إلى طاولة المطبخ وسمعت مرةً أخرى خشخشة كيس بقالة بلاستيكي خفيف. وكما حدث سابقًا، انسللت من مقعدي وبدأت التسلل ببطءٍ نحو الخزانة تحت حوض المطبخ، وكانت منشفة الأطباق بين يديَّ مرة أخرى على أهبة الاستعداد. ثم فاجأني الفأر. وقبل أن أصل إلى الخزانة، قفز من كيس القُمامة البلاستيكي الذي كنت قد علَّقته على مقبض الباب خارج الخزانة، وجرى بسرعةٍ خاطفة على طول الحافة العلوية لباب الخزانة، واختفى في مكانٍ معتم بين الخزانة وضاغط النُّفايات. افترضتُ أني قد أبعدت كيس القُمامة عن الفأر، ولكن خطرت على بالي الآن فكرة أنني قد جعلت الأمر أكثر ملاءمةً له للقفز في الكيس لتناول غداء سريع ثم الخروج بسرعة عند أول علامة على اقتراب المتاعب. ارتكبت خطأً أساسيًّا. نظرت إلى الخزانة من منظوري البشري الواسع وليس من منظور الفأر، الذي يجعله يرى الجزء العلوي الضيق من الخزانة طريقًا سريعًا واسعًا مثاليًّا للهرب السريع.

الفئران ليست حيوانات ذكية، ولكني أُعرِب عن احترامي الناقم إزاء تفوُّقه عليَّ في الذكاء على هذا النحو. كانت والدتي مُحِقَّة في تقييمها للفأر: لطيف، وقذر أيضًا، إلا أنني فوجئت مثل كيفن لدى سماع صوت اعتراضاتي الداخلية على معالجة الأمر بالقتل في صباح اليوم التالي لحفلة الشوكولاتة الخاصة بالفأر.

قلت لكيفن: «تراودني فكرة بنصب فخٍّ للإمساك بالفأر ثم إطلاقه بعيدًا. امنحني ليلتين لتجرِبتها.»

وقال وقد بدا متشككًا:

«افعلي ما يحلو لك، لكني في اليوم الثالث سوف أتدخَّل بنفسي.»

بحلول هذا الوقت كنت أعرف شيئًا أو اثنين عن هذا الفأر، وهذا هو السبب في شعوري بالتفاؤل بأن فكرة مصيدة الفئران المنزلية الصنع ستنجح؛ فهي تعتمد على نقاط الضعف

المعروفة لدى الفأر: الشوكولاتة الفرنسية، والكعك، وميله إلى التسكع في محيط حوض المطبخ.

في تلك الليلة، بعد أن نام الأطفال، وضعت قطعًا من الكعك المتكسِّر وقطعًا من الشوكولاتة في إبريق حليبٍ فارغ. ووضعت الإبريق على جانبه على المنضدة المُبلَّطة بالرخام بجانب الحوض. ثم أخذت علبة تونة صغيرة غير مفتوحة ووضعتها تحت فتحة الإبريق كدَرَج مؤقت لمساعدة الفأر في التسلق داخل الإبريق. ثم أطفأت الأنوار وتوجَّهت إلى الفراش، وانتظرت صوت خشخشة البلاستيك، أو ربما صوت مضغ الكعك في الفك الصغير. تكمن نقطة ضعف مصيدتي في آلية الإنذار، لكن غرفة نومنا مجاورة للمطبخ وكنت متأكدة من أنني سأسمع شيئًا يُنبِّهني إلى وقوع الفأر في الفخ. وعندما أسمع هذا الصوت، سوف أنهض دون ضجة، وأنسلُّ بصمتٍ إلى المطبخ، وأمسك بالإبريق بينما الفأر في داخله، وأوقفه عموديًّا بسرعة، ثم أسد فُوَّهته بمنشفة الأطباق قبل أن يدرك الفأر ما حدث له. وفي اليوم التالي سوف نقود سيارتنا إلى البحيرة ونطلق الفأر بالقرب من بيوت الأغنياء، كما اقترح كيفن. سوف يتخبَّط وسط الأعشاب الضارة، ممتنًّا لرحمتنا به ومترنِّحًا جرَّاء تناول كمية كبيرة من السكر. وستكون هذه نهاية الفأر، ونهاية القصة. وستكون هذه حلقة أخرى من الفوز في معركتنا للتغلب على القيود التي فرضتْها مقاطعة الصين على حياتنا.

لم أرَ كيف يمكن لهذه الخطة أن تخفق.

في تلك الليلة استيقظت مرتين على أصوات خشخشة ونهضت ومشيت على أطراف أصابعي نحو المطبخ، وأصابتني خيبة الأمل عندما جذبت الإبريق، وسددت فتحته بالمنشفة، وأضأت النور لأرى أني قبضت على الشوكولاتة والكعك فحسب في داخله.

تكرَّرَت القصة نفسها في الليلة الثانية: استيقاظ، وتسلل، وتغطية للإبريق، وغرق في خيبة الأمل.

في صباح اليوم الثالث نظر كيفن في وجهي نظرةً متجهمةً وهو يتناول قدحًا من القهوة وقال:

«حان وقت العمل الجاد.»

أذهلني عزم كيفن. اعتقدت أنه سيُغيِّر رأيه ويبدأ في الضغط مرةً أخرى من أجل مصيدةٍ رحيمة صينية. أعرف أنه متعاطف مع المخلوقات البرية، رغم أن مسألة كون فأر الضواحي بريًّا أم لا قابلة للنقاش. يحب كيفن مراقبة الطيور، ويمكنه أن يُميِّز بين خازن

البندق وصائد البعوض. ويمسك بالعناكب في المنزل باستخدام مناديل ورقية ويطلقها في الفناء الخلفي. وقد هدَّدتْ مشاعرُه الطيبة هذه حيال الحيوانات البرية خُطَّتَه هو وشقيقه الأكبر — الذي لا يزال على قيد الحياة — في فصل الشتاء خلال العام الذي قضياه في ألاسكا؛ فبعد إغلاق الكرنفال الذي كانا يعملان فيه خلال ذلك الموسم، انتقل الولدان إلى مقصورةٍ برية مهجورة على بُعد تسعة أميال من قرية كاسيلوف. وظنَّا أن بإمكانهما البقاء على قيد الحياة خلال أشهُر تساقط الثلوج بتناول عصائر تانج وعصيدة دقيق الذرة وما يستطيعان صَيدَه. إلا أن الخطة تداعت عندما لم يستطع كيفن إرغام نفسه على سحب زناد المسدس عيار ٠٫٢٢ حتى عندما تجمَّع سرب من الطيور البرية حول قدمَيه بحثًا عن الطعام في الأرض.

أخبرني عن ذلك بعد سنواتٍ قائلًا: «كان من السهل للغاية إطلاق النار على شيءٍ شديد الغباء حتى إنه لا يشعر بالخوف.»

انتقل الأخوان إلى أنكوريدج، حيث عمل كيفن في بيع الحيوانات المُحنَّطة وأشجار الكريسماس. وحصل شقيقه على وظيفة في رصيف تحميل، وكانت تتطلب منه أن يقطع سبعة أميال عبر الجليد كل صباح. ثم عادا إلى كاليفورنيا في الربيع بأيدٍ لم تُلوِّثها دماء الحيوانات البرية في ألاسكا.

المقصد من ذلك أنني تعلمت شيئًا عن الطبيعة البشرية، أو طبيعة كيفن، في صباح هذا اليوم من شهر يوليو بعد ثلاثة عقود. تعلمت أن مرور ٣٠ عامًا، والاعتزاز بملكية منزلٍ خاص، والْتهام فأرٍ عدواني حفنةً من قطع الشوكولاتة الفرنسية الغالية الثمن؛ كلها أشياء يمكن أن تُغيِّر كثيرًا من الأشياء في الإنسان، بما في ذلك مشاعره العاطفية تجاه أفراد مملكة الحيوان.

قال كيفن مكررًا بينما يشرب قهوته: «أين المصائد من فضلك؟»

أشرت إلى باب غرفة الغسيل وقلت:

«هناك، احترس لأصابعك.»

أمسك كيفن الفأر من المرة الأولى بعد وضع المصيدة الأمريكية القاتلة تحت الحوض، وهذا هو سبب دهشتي الشديدة من رؤية الفأر يجري على أرضية غرفة الغسيل بعد بضعة أيامٍ لاحقة. لا عجب في أنه استولى على منطقة نفوذ كبيرة في الأيام التي سبقت عودة كيفن. ربما أصبح لديه أصدقاء، أو ربما أقارب.

ذهب كيفن إلى متجر الأدوات المنزلية وأحضر عددًا من المصائد الأمريكية. وأمسكنا ثلاثة فئران أخرى خلال هذا الأسبوع.

قال كيفن في صباح أحد الأيام بعد فحص المنطقة تحت الحوض: «لا بد أن الأمر قد انتهى. أعتقد أننا انتهينا من قصة الفأر.»

بدا تفاؤله متعجلًا، ولكني لم أقُل شيئًا. كان كيفن يتعامل مع صعوبات المقاطعة في تلك الأيام، ولم أشأ أن أُفسد مزاجه الجيد؛ فمنذ عودته من فرنسا، شرع في إصلاح أجهزة المنزل بنحوٍ عملي مرِح. ولم تتمكَّن التعقيدات التي تُثيرها المقاطعة من إفساد طبيعته المرحة؛ فأخذ مشغل الأقراص المدمجة المعطل إلى ورشة إصلاح محلية مع إعطاء تعليمات لمالكها بعدم إصلاحه إذا كان مضطرًّا لاستخدام أجزاء صينية لكي يعمل مرةً أخرى، فأكَّد له صاحب الورشة قائلًا: «إننا نأتي بجميع قطع الغيار من أماكن محلية، وليس من الصين.»

لم يجادل كيفن في هذه المسألة مع الرجل.

استطرد قائلًا: «لم أشأ أن أُذكِّره أن المتجر الذي تشتري منه قطع الغيار لا علاقة له في الواقع بمكان صُنْعها. لم أُرِد أن أجرح مشاعره.»

ثَبَّتَ كيفن هوائيًّا معدنيًّا قديمًا فوق التليفزيون لتحسين الصورة. ولم يذكر الخلاط المعطل أو الطابعة المعطلة أو نقص دبابيس الورق، الذي لم يكتشفه بعد. واستسلم في معركته مع دُرْج المطبخ العالق؛ فلم أُمسِك به يجذب المقبض بقوةٍ ولو مرةً واحدة في الأيام التي تلت عودته إلى المنزل. خشيت أننا ربما وصلنا إلى طريق مسدود عندما نَفِدَ الغراء واكتشفنا أن غراء إلمرز مصنوع في الصين، ولكن طاف كيفن جميع أنحاء المدينة بلا كلل إلى أن وجد علبة غراء من كندا.

شككتُ في أن الأوقات الجيدة لن تدوم طويلًا، لكنني قرَّرت الاستمتاع بها ما دامت موجودة.

لا أدعي أنني أملك قوى تخاطر عقلي خاصة. ربما ينبغي أن أدَّعيَ ذلك.

قرأت خبرًا مشئومًا عن مصير مجموعة ليجو الدنماركية، التي تتكبَّد خسائر مالية بينما تنخفض مبيعات لعبة المكعبات البلاستيكية، والسبب على ما يبدو يكمن جزئيًّا في أن الأطفال في العصر الحديث يجدونها مملة مقارنةً بالألعاب الإلكترونية المضيئة. وثَمَّةَ مُنافس كندي ينافس أيضًا في هذا المجال. ويَتوقَّع المحللون أن الشركة الدنماركية سوف تنقل كثيرًا من إنتاجها أو كامل إنتاجها إلى مواقع تصنيع أرخص في الخارج، ربما في آسيا، وقد خلَصتُ إلى أنها تعني الصين. إن أهاليَ بلدة بيلوند في الدنمارك مُتخَمون بالمال؛ فقد جعلتهم ليجو أغنياء. والآن ليجو الصينية ربما تجعلهم فقراء.

أُدرك أنه ليس مِن حُسن الأدب أن أتباهى بقدراتي، لكن يجب أن أقول إنني تنبَّأت بوقوع هذا الأمر. تنبَّأت به قبل ثلاثة أشهُر، في مَمرِّ الألعاب في متجر تارجت، على ملصقٍ موجود على علبةٍ من إنتاج ليجو. أتذكَّر ما كان مكتوبًا عليه: الأجزاء مصنوعة في الدنمارك والصين. غمرتْني موجة ذعر، خشيت على نفسي وعلى الدنمارك. بدا لي حينها أنه إعلان لما هو آتٍ. شعرت بإحباط بسبب فكرة أن الشركة ستهرب إلى الصين ولن تنظر إلى الوراء أبدًا. شعرت بالضيق من أجل بيلوند، لكن سكانها لا يمكنهم توجيه اللوم إليَّ. بدأ ويس يشتكي من أننا نشتري «الكثير» جدًّا من ألعاب ليجو؛ فقد أصبحت ألعاب ليجو هي الهدية الأساسية لحفلات أعياد الميلاد بحكم واقع أن سوق الألعاب الصينية الساحقة محظورة علينا. كما أنني رأيت أنها تُمثِّل هدية جميلة، على الرغم من أن ويس بات في الآونة الأخيرة يشك في ذلك.

سألني ويس ذات يوم: «هل يمكن أن نحصل على شيءٍ آخر إلى جانب لعب ليجو؟ إننا دائمًا ما نشتري لعب ليجو!»

لم أستطع أن أُفكِّر إلا في شيءٍ واحد فقط أقوله له:

«لا.»

سألت صديقي: «لقد أصبحتُ ماذا؟»

فكرَّر في الهاتف قائلًا: «مصدرًا للجدل.» أستطيع أن أشعر أنه يستمتع بذلك.

«كيف هذا؟»

قال إنه هو وزوجته تلقَّيَا مكالماتٍ هاتفيةً من آباء آخرين في الحي، يشعرون بالقلق عن إمكانيتهم تقديم هدايا صينية في حفل عيد ميلاد صوفي التي أتمَّت عامين.

وأضاف: «هم يعتقدون أنهم سيقعون في مأزقٍ إذا ما قدَّموا لعبة مصنوعة في الصين، لكنهم يقولون إن الألعاب الصينية هي المتاحة؛ ومن ثَمَّ فإنهم لا يعرفون ما يُفترض القيام به. قلت لهم إن بإمكانهم إحضار ما يريدون، وأنكِ لن تغضبي. وأكَّدت لهم أنكم لستم مجانين.»

أوحت طريقة قوله للعبارة الأخيرة أنها لا تزال قيد المناقشة.

أقيم حفل عيد ميلاد صوفي بعد بضعة أيام. كان حدثًا فوضويًّا بدأ في الفناء الخلفي تحت الحرارة الشديدة حتى دفعت عاصفة مطيرة مفاجِئة الجميعَ لدخول المنزل، حيث تجمَّع الضيوف حول أطباق ورقية ضعيفة لتناول النقانق وتتسبَّب أجسادهم وأنفاسهم

الرطبة في تكثف الضباب على النوافذ. وبحلول الظهيرة، كان نصف الأطفال يبكون، بما في ذلك فتاة حفل عيد الميلاد، التي رمت نفسها على الأرض ورفضت النهوض. واندفع الضيوف واحدًا تلو الآخر خارج الباب الأمامي في حرارة الظهيرة الرطبة.

عندما عاد الجميع إلى منازلهم وأصبح المنزل هادئًا، تفقَّدت هدايا صوفي. لا بد أن أيًّا مما قاله صديقي للآباء الآخرين قد طمأنهم بأنهم لا ينبغي أن يقلقوا من إحضار أشياء صينية. يوجد قميص دون أكمام من نيبال، وكتاب من سنغافورة، ونظارة شمسية من تايوان، إلا أن الصين احتلت مكانها التقليدي كمُهيمن على هدايا حفلات أعياد ميلاد الأطفال الأمريكيين؛ فأسهمَت الصين بدُميتين، ودُمية محشوة على شكل كلب، وحقيبة يدٍ لعبة، وحقيبة ظهْرٍ على هيئة نحلة، وأحجية، ولعبة السيد رأس البطاطس، ومزرعة خيول مُصغَّرة.

ليس خطأ أحد، وأعرف أننا لم نكسر أيًّا من قواعد المقاطعة، ولكن لا يسعني إلا أن أشعر بخيبة أمل في كل مرةٍ يدخل شيء صيني إلى منزلنا. مما لا شك فيه أن إعفاء الهدايا منعنا من إغضاب أشخاصٍ كثيرين، بدءًا من والدتي، لكنني أتساءل الآن هل هذا مهرب مريح أكثر من اللازم. لم يخطر على بالي كمُّ الهدايا التي تلقيناها، أو أن الكثير منها مصنوع في الصين. فات الأوان لتغيير القاعدة الآن، وعلى الرغم من أن ذلك ربما يكون مؤسفًا، فإن الأكثر مدعاةً للأسف مع ذلك هو أنني وجدت نفسي أتذمَّر لحظةً من أن لدينا الكثير من الأصدقاء والأقارب الحريصين على منحنا الهدايا، وإن كانت صينية.

واسيت نفسي بأشياء صغيرة؛ فقلت لنفسي إننا بذلنا قصارى جهدنا لإبعاد المنتجات الصينية عن حفل عيد ميلاد صوفي. وضعنا تلك الشموع الإيطالية القصيرة التي يحيط بها قالب معدني في كعكتها بدلًا من شموع أعياد الميلاد الصينية العادية. ولم تكن مبهجةً مثل الشموع التقليدية، لكني لم أجرؤ على أن أطلب مساعدة أخت زوجي في مشكلة الشموع بهذه السرعة بعد عيد ميلاد كيفن. وكانت رسومات سكوبي دو التي زُيِّنَت بها الكعكةُ مصنوعةً في فرنسا، والكعكة نفسها، الكريمة المخفوقة الوردية التي تغطيها والنقانق كانت مصنوعةً في أمريكا. ومن التقليدي إهداء الأطفال عند العودة إلى منازلهم حقائب هدايا تحوي هدايا بسيطة، ولكني اكتشفت أن هذه الحقائب تمتلئ دائمًا بأشياء صينية. تجاوزت عن حقائب الهدايا وأملت ألا يصفنا أحد بأننا مفسدون للمتعة أو بُخَلاء.

تَجدَّد تمرُّد كيفن قبل أن نغادر في رحلةٍ إلى مسقط رأسنا في سان دييجو بكاليفورنيا؛ فقد عاد إلى المنزل حاملًا عدة أشياء للترفيه عن الأطفال أثناء رحلة الطائرة الممتدة لثلاث ساعات، من ضمنها مجموعة من الملصقات المصنوعة من الفوم على شكل أسماك. قلبت العبوة، وعبست لدى قراءة البطاقة الملصقة على المنتج، ثم واجهته بما اكتشفته.

فسألته: «هل تعلم أن هذه الملصقات صينية؟ هل فحصت الملصق من الأساس؟»

ابتسم في وجهي ابتسامةً متجهمة. أخبرني شيءٌ ما في لغة جسده أنني عدت مرةً أخرى إلى الوضع المتزعزع مع كيفن. وتحدَّتْني نظراته أن أقترح العودة إلى المتجر لإرجاع الملصقات. وأخبرني صوت داخلي ألا أبتلع الطعم، لكني لم أستطع مقاومة توبيخه توبيخًا مترفقًا.

قلت له: «أنت تدرك أنني سوف أدوِّن هذا. لمعلوماتك، هذا انتهاك صريح للمقاطعة. ولا بد أن أُخبِرك أنني مندهشة من أنك لم تتعلم بعدُ طريقة التعامل مع هذا الأمر.»

أومأ برأسه ومطَّ شفتيه، موضحًا أنه غير مكترثٍ على الإطلاق بمسألة الملصقات الصينية.

قلت: «حسنًا. هذا لعلمك ليس أكثر.»

تبعتنا المقاطعة إلى كاليفورنيا. واصطحب كيفن معه توجُّهه الذهني السيئ خلال هذه الرحلة.

قال كيفن في صباح اليوم الأول في منزل والدتي: «الأطفال بحاجةٍ إلى بنادقَ مائية. وَويس يحتاج إلى نظارة شمسية.»

وأشار بنفاد صبرٍ إلى قدميه، كان فيهما حذاء جري قديم.

«وأحتاج إلى خُفٍّ. وجميع الخِفاف الموجودة في متجر الخردوات صينية، وليكنْ في علمكِ أنني لن أرتديَ حذاءً وجوربًا على الشاطئ.»

كانت أمي أيضًا تقسو عليَّ في تلك الأيام.

قالت ساخرةً في إحدى الليالي وأنا أصنع صوص البيستو بحبات الصنوبر الصينية: «هل يزعجكِ لمس تلك الحبات؟ لا أريد أن تتلوث يداكِ بها.»

حتى عرَّابة الأطفال — صاحبة أطيب رُوحٍ مَشَتْ على الأرض — لم تستطع مقاومة توجيه ضربة عندما وصلنا إلى منزلها لإقامة حفل شواء.

قالت لي بينما تعطيني كيسًا ملونًا يحتوي على هدية عيد ميلاد متأخرة لصوفي: «لا تقلقي. لا شيء فيها من الصين.»

كان يوجد داخل الكيس حذاء تنس صُنع في فيتنام، وتنورة صُنعت في تركيا، وثوب سباحة صُنِع في إندونيسيا. لقد كنا أصدقاء لمدة ٢٠ عامًا ولكني لم أكن أدرك حتى تلك اللحظة أنها كانت قادرةً على السخرية. شعرت قليلًا بالإساءة وبالرفض لإيحائها بأنني صعبة المِرَاسِ نوعًا ما.

قلت لها: «تعلمين أنكِ لست مضطرةً لمقاطعة الصين. هذه قاعدتنا نحن فقط.»

فردَّتْ وقد اتسعَتْ عيناها: «هل تمزحين؟ لن أُفسِدَ تجربتك.»

لم أذكر أن كيفن يجتهد في فعل ذلك، وأنا نفسي لست بريئةً من ذلك. يمكن أن تكون مقاطعة الصين عملًا منعزلًا.

لم تكن عائلتي قد انتهت من انتقادي حين قرأت خبرًا جعلني أنتقد نفسي كثيرًا. كانت المقالة في صحيفة لوس أنجلوس تايمز تذكر زوجين صينيين عجوزين أَوَيَا أكثر من ٤٠ طفلًا لقيطًا على مر سنوات. كان الزوج — ٨٢ عامًا — يكسب قوته من العمل جامع قُمامة، وكانت زوجته — ٨١ عامًا — تقضي أيامها في رعاية الأطفال في المنزل، الذين كان كثيرون منهم يعانون من إعاقات. وقد أَوَيَا طفلتهما الأولى عندما كانا في منتصف الستينيات من عمرَيْهما بعد أن وجداها متروكة وسط الثلوج خارج محطة قطار.

قالت الزوجة: «لم يكن أحد يريدهم لأنهم يخشَوْن المتاعب.»

وكانت السلطات في البلدة التي يعيش فيها الزوجان الآن عند حافة صحراء جوبي تريد أن تأخذ الأطفال منهما لأنها ترى أنهما طاعنان في السن ولا يستطيعان العناية بهم.

أضاف الزوج: «عليهم قتلي أولًا قبل أن يأخذوا الأطفال منا.»

قرأت المقالة، ثم تفحصت صور الأسرة. كان لدى الوالد تجاعيد عميقة في وجهه وعينان داكنتان. وكانت زوجته تجلس في خلفية صورة أخرى، محتضنة طفلًا جميلًا. تركت الصحيفة من يدي وشعرت بقلق حيال إمكانية أن مقاطعتنا للصين يمكن أن تضيف ولو أقل مشقة إلى حياة هذه الأسرة. وببعض التفكير العقلاني، عدت إلى الوقوف على أرضٍ صُلبة؛ فرغم كل شيء، المقاطعة ليست شيئًا شخصيًّا ضد الصين، ولا يمكن أن أدرك كيف يمكن أن يكون لعادات الشراء التافهة لعائلتي حتى أصغر تأثير على اقتصاد التصدير الصيني الضخم، الذي لا يبدو على أي حال مفيدًا لرجل عجوز اضْطُرَّ للعمل في جمع القُمامة من أجل كسب عيشه. ولكن القصة أثارت قلقي المتزايد من أنني بت خسيسة قليلًا، بصرف النظر عما أقوله لنفسي.

لم أبدأ الشعور «حقًّا» بأنني خسيسة إلا بعد بضعة أيام، عندما خضت مناقشة فلسفية مثيرة للغضب مع ويس عن شطائر الجبن. كنت أنا والأطفال جالسين على درجات السلم الأولى في منزل والدتي عندما أنزل ويس شطيرته فجأة وبدأ في التحدُّث بفمٍ مليء بالجبن.

فقال: «بلدنا لا يملك كثيرًا من الطعام يا أمي.»

دُهِشتُ من اختياره للموضوع، واستنتاجه، وحاولت تصحيح فكره بلهجة لطيفة قائلة:

«هذا البلد يملك طعامًا وفيرًا. أوفر من أي بلدٍ آخر في الواقع.»

هز رأسه رافضًا عبارتي وقال:

«لا أعتقد ذلك.»

قلت بإصرار: «لا، حقًّا، هذا حقيقي. بعض البلدان لا تملك ما يكفي من الطعام، وكثير من الناس في تلك الأماكن يعانون من الجوع طوال الوقت، ولكن هنا متاح لنا كثير من الطعام. وفي بعض البلدان ربما لا يكون ما تأكله سوى قليلٍ من الخبز أو الحساء، أو في بعض الأحيان ربما لا تجد ما تأكله على الإطلاق.»

توقَّف ويس قليلًا للتفكير في هذا الأمر، ثم بحث عن التفاصيل.

أراد أن يعرف، فسأل: «بلدان مثل ماذا؟»

أجبته: «حسنًا، كثير من الأماكن. العديد من الأماكن في أفريقيا، وبعض الأماكن في آسيا، بل وبعض البلدان الكبرى مثل الصين.»

سارع ويس برأي مخجل.

فقال: «أنا سعيد لأنهم لا يملكون ما يكفي من طعام في الصين.»

سألته: «لماذا تقول ذلك؟»

ابتلع قضمته من الشطيرة قبل الإجابة، واستطرد قائلًا:

«لأنهم في الصين يتصرَّفون مع عملائهم بِخِسَّة.»

سألته: «هل هذا هو السبب وراء عدم شرائنا الأشياء الصينية في رأيك؟ سوء خدمة العملاء؟»

أومأ برأسه موافقًا.

ارتبكتْ أفكاري. اعتقدت أننا قد أوضحنا هذا الأمر منذ أسابيع خلال مناقشتنا للسيوف البلاستيكية المضيئة، ولكن الآن يربط ويس بين مقاطعتنا للصين وهفوات

مزعومة في خدمة العملاء الصينية. ومِن أين تعلَّم كلمة «عميل» على أي حال؟ أستطيع أن أقول — وبقناعةٍ شبه مؤكدة — إننا لم نناقش قط العملاء أو خدمة العملاء ونحن جلوس إلى مائدة العشاء. جورج بوش، وجورج فورمان، والطقس الحار، والأفلام الجيدة، ومشكلات القوارض، وحتى إقرارنا الضريبي؛ هذه هي الأمور التي كنا نناقشها على مائدة العشاء، وليست مسألة خدمة العملاء من بينها.

قلت لِويس في هذه اللحظة: «ليس صحيحًا أن الناس في الصين يتسمون بالخِسَّة.»

سألني: «لماذا إذن لا نشتري المنتجات الصينية؟»

كان تفسيري أخرق كالعادة.

قلت له: «نحن نحاول شراء أشياء من بلدان أخرى لأن الصين تصنع أشياء كثيرة والمصانع في البلدان الأخرى تحتاج لبيع منتجاتها أيضًا.»

فالتفت إليَّ مُضَيِّقًا إحدى عينيه ومغمضًا الأخرى وتساءل:

«هذا هو السبب في عدم شراء أي شخص للأشياء الصينية؟»

فكَّرت في إخباره بأن لا أحد تقريبًا «لا يشتري» أشياء صينية، لكني لم أكن متأكدةً من أنني ينبغي أن أُعقِّد الأمور بمحاولة توضيح هذه النقطة. أنقذني من هذه الحيرة رنين هاتف والدتي الصيني، الذي اندفع ويس إلى الداخل مسرعًا للرد عليه.

كنت أزور الملعب الجديد في وسط المدينة للمرة الأولى وكان عليَّ الانتباه لما حولي. كان بناء الملعب الجديد هو أهم شيء حدث في مسقط رأسي، سان دييجو، منذ سنوات. ركض لاري ويلك — حفيد الموسيقِي الراحل لورانس ويلك — على أرض الملعب لتنفيذ أول رمية للكرة. دقَّقت في مظهره على شاشة الملعب الكبيرة. كان ممتلئ الجسم، داكن السُّمرة، يرتدي قميصًا دون كُمَّين، قميصًا كنت أشك أنه لجده. ظننت أنني ألمح شيئًا مألوفًا في مظهره.

وددت أن أستوعب المشهد على نحوٍ صحيح، بعينين مغرورقتين بالدموع وقلب مليء بذكريات مباريات الكرة في الماضي، لكن انتباهي تشتَّت بسبب الحروف المطبوعة على السطح الخارجي للعبوة الرابضة في حِجري؛ كانت العبوة تحوي مبرِّدًا بسحاب مصنوعًا من الفاينيل دفعتْ ثمنه أسرة ويلك للترويج لمنتجع تملكه شمال المدينة. كان حجم خط الحروف لا يقل عن بوصة؛ لذلك لم يكن من الممكن أن أغفل العبارة المكتوبة على العبوة: «صنع في الصين».

سألت كيفن: «هل تعتقد أنني يجب أن أعيد هذه مرةً أخرى؟» كنا قد استقررنا في مقاعدنا وكان بالفعل قد فتح مُبرِّده المجاني، وفحص محتوياته ليُرضي فضوله، ووضعه تحت مقعده.

رد قائلًا: «احتفظي به. أنا أحتفظ بالمبرِّد الخاص بي.»

فقلت له: «ولكن انظر إلى العبارة.»

حاولت أن أُرِيَه ملصق «صنع في الصين»، لكنه أشاح بذراعه. كان مشغولًا بمضايقة مشجعي سينسيناتي بمقاطعة تشجيعهم، وشرب البيرة.

حاول أخي الأصغر — الذي كان يجلس بجانبي من الناحية الأخرى — مساعدتي بقوله:

«أعتقد أنكِ يجب أن تحتفظي به لأنه هدية. أنا اشتريت التذاكر؛ لذلك فإن التذاكر كانت هدية، وجاء المبرِّد مع التذاكر؛ من ثَمَّ فإنه هدية أيضًا. أعتقد أنكِ يمكن أن تحتفظي به بضميرٍ مستريح.»

أخي شخص طيب، لكني لست متأكدةً للغاية من أن هذا المبرِّد هدية. إنه حتى لم يكن ملفوفًا كهدية. وكان يمكنني رفضه عند البوابة، حيث دفعتْه فتاة متحمسة من أصول لاتينية في يدي وأنا أجتاز الباب الدَّوَّار.

قالت لي: «أتمنى لكِ عيد ميلاد سعيدًا.»

وألقت بواحد لكيفن ورائي قائلة:

«عيد ميلاد سعيد.»

في هذه اللحظة، وأنا أنظر إلى العلبة الموجودة في حِجري، تخيَّلت نفسي أسير إلى بوابة الدخول وأُعيد المبرِّد المجانيَّ إلى الفتاة. سأغطي ملامح وجهي بملامح حزينة ملائمة قبل أن أسلمها المبرِّد الذي لم يُفتَح وأقول شيئًا على غرار: «آسفة، لا يمكنني قَبول هذا المبرِّد الصيني المجاني من عائلة ويلك. إنها مسألة تتعلق بقرار العام الجديد، الذي بدأت أشعر بالندم عليه في هذه اللحظات. شكرًا على كل حال.»

توقفت عن التخيُّل قبل أن أُضْطَرَّ لمشاهدة ما كان سيحدث بعد ذلك؛ فمن المؤلم للغاية تخيُّل ما قد تقوله هذه الفتاة إذا حاولتُ إعادة المُبرِّد، ولكني أراهن أنها سوف تنطق ببعض الكلمات النابية، ولن تتلعثم ولو لحظة؛ فهي ليست من نوعية الفتيات التي قد تطيق الأغبياء، كنت أستطيع رؤية ذلك من فوري. كلا، ما من سبيلٍ لإعادة المُبرِّد الصيني إذا كانت إعادته تعني مواجهة تلك الفتاة.

بعد ذلك، فكرت في خيار «التظاهر بنسيان» المُبرِّد الموجود تحت مقعدي بعد أن تنتهيَ المباراة، أو إقحامه بين الشجيرات الموجودة في طريق الخروج لكي يجده شخص آخر، ولكن بدا لي هذا غير مُرضٍ، وبطبيعة الحال، ما زالت توجد مشكلة مُبرِّد كيفن الصيني، الذي لن يتخلى عنه أبدًا.

إضافة إلى ذلك، راق لي مُبرِّدي الصيني. تصحيح: أحببت مُبرِّدي الصيني. كان الجانب الخارجي مُزَينًا برسم توضيحي تفصيلي بالألوان لميناء سان دييجو، يشمل الملعب الجديد وأبراج الشقق والمكاتب المحيطة به التي تلوح في الأفق. كما أنه متقن الصنع للغاية، وإن كان أيضًا شديد الابتذال. يمكننا ملء هذا الشيء بالجعة ورقائق البطاطس وقضاء أوقات رائعة على الشاطئ، ابتداءً من غد.

رغم ذلك، أشعرتْني فكرة الاحتفاظ بالمُبرِّد بالضِّيق. لقد تحايلت على قواعد المقاطعة من قبل — أقسم أننا كسرناها علنًا ما لا يقل عن ثلاث أو أربع مرات — ولكنني أشعر أنه عند نقطةٍ معينة عليك أن تكون جادًّا وتبدأ الامتثال للقواعد إذا كنت تهتم من الأساس بالقيام بالمقاطعة. أجريت في ذهني مراجعة سريعة لانتهاكاتنا للمقاطعة حتى هذه اللحظة: اليوسفي الصيني، وحوض السباحة غير الشرعي في عيد ميلاد كيفن، وملصقات الأسماك، وفُرَش التلوين، فضلًا عن المكاسب غير المشروعة التي دخلت المنزل وفق قاعدة الهدايا خلال المقاطعة. والآن توجد مسألة المُبرِّد الصيني، الذي لا يتفق تمامًا مع فئة الهدايا، بصرف النظر عما يقوله أخي الأصغر.

التفتُّ إلى كيفن. كان قد صعَّد من إساءاته لسينسيناتي وبدأ في اجتذاب نظرات الأشخاص الجالسين حولنا، وشجَّعتْه نظرات تقدير.

فصرخ بعد أن وصل فريق سينسيناتي للقاعدة الأولى باستحقاق: «أيها الغشاش!»

كنا نجلس في صف المقاعد العلوي من الاستاد، فكان على كيفن حقًّا بذل قصارى جهده لو كان هناك ولو بارقة أمل في انزعاج مشجعي سينسيناتي من كلماته؛ بالفعل لم يدَّخر كيفن جهدًا. كما كان قابضًا أيضًا على سلةٍ مليئة بقطع الناتشو، وخدع أخي ليشتريَ له جعة ثانية، وأقام صداقة مع الطالب الفرنسي المذهول الجالس بجانبه الذي كان يدرس في أمريكا ضمن برنامج تبادل طلاب تابع للمدرسة الثانوية. بعبارةٍ أخرى، كان يُمضي وقتًا رائعًا وأنا أمسك المُبرِّد الصيني بيدٍ رطبة، وأُكلِّف نفسي تعب القلق بشأن المقاطعة. لم أتابع نتيجة المباراة. ولم أكن منتبهةً عندما بدأ الجميع في القيام بحركة الموجة وأغفلت دوري ووقفت متأخرةً للغاية. وأصابتْني قطع الناتشو بمغص.

وددت لو أقول إن هذه الظروف كانت استثنائية، ولكن الحالة ليست كذلك. لقد تكرَّر هذا المشهد بصور مختلفة آلاف المرات على مدى سنوات زواجنا: ينتصر كيفن على حشدٍ من الغرباء بالسخرية منهم بصوتٍ عالٍ، وأتقوقع أنا في مقعدي على أمل ألا يلاحظوا وجودي.

وحين ساد الهدوء لفترة، وقفت واستدرت لأنظر خلفي عبر حافة الملعب. يوجد خارج الملعب حي صناعي ممتلئ بالمستودعات وخطوط السكك الحديدية، وأستطيع أن أرى وراءه اللون الأزرق الداكن لخليج سان دييجو. وسمعت بعيدًا عن الحشد جرس إشارة المرور بينما مرَّ قطار بطيء على القضبان. لم أعرف إلى أين يتجه، أو ماذا يوجد في عرباته، ولكن هذا لم يمنعني من التوصُّل إلى استنتاج سريع حول ما يحمله. المزيد من الأشياء الصينية.

التفتُّ وألقيت نظرةً أخرى على كيفن. كان سعيدًا في هذه اللحظة، ولكن غدًا صباحًا، عندما يصبح الحشد وقطع الناتشو ذكريات، سوف تعود عباراته المريرة التي بات يُردِّدها في الأيام الأخيرة من جديد. سوف ينتقدني على ثلاث جرائم في العطلة مرتبطة بالمقاطعة. لا بنادق مائية، ولا نظارة شمسية لِويس، ولا شبشب لقدميه. لقد كنت أماطل على الجبهات الثلاث، غالبًا من خلال تجاهله، ولكن يبدو لي أن جدوى هذه الاستراتيجية تقلُّ يومًا بعد يوم.

نَفِدَت مني الخيارات. ونَفِدَ صبر كيفن.

الفصل الثامن

المد الأحمر

قالت والدتي: «رأيت أن كيفن سيُحبُّ هذا.» كانت تمسك بصندل قديم أمامي. «ألا يبحث عن صندل؟»

لم تكن الفردتان زوجًا تمامًا. كانتا مختلفتَي المقاس، وكانت إحداهما زرقاء داكنة، والأخرى برتقالية باهتة مع صورةٍ لقارب شراعي مطبوعة على النعل الداخلي. وجدَته بينما كانت تنظف المرآب. وليست لديَّ فكرة هل هو مصنوع في الصين أم لا. ربما اهترأ الملصق خلال فترة حُكْم كارتر. وأنا أتفحص الفردة البرتقالية، تساءلت عمَّن في عائلتي له ذلك الذوق السيئ في اختيار أحذية الشاطئ. آمل ألا يكون أنا.

كانت أمي على علم بمستجدات وضع حذاء كيفن لأنه كان يُفضي إليها بالصعوبات المتعلقة بالمقاطعة، بما في ذلك ظلم الواقع عليه جرَّاء اضطراره ارتداء حذاء جرْي على الشاطئ «مثل شخص أحمق» على حد تعبيره. وفي المساء، كانا يتذمران بينما يتناولان مشروبًا بعد العشاء، ثم صمتا فجأة عند اقترابي منهما. وكالعادة، ظننت أن أمي تنحاز إلى جانب كيفن، ولكن في تلك اللحظة — بينما تحاول جذبي بهذا الصندل — أدركت أنها في هذه المرة تلعب دور صانع السلام.

أردَفَت أمي قائلةً: «يبدو لي أن بإمكانه ارتداءهما.»

كذلك بدا لي أنها قد تعطيه إياهما. ابتسم كيفن ابتسامةً عريضةً عندما وضعتْهما عند قدميه بعد ذلك، وهو يقف حافيَ القدمين في مطبخها، فأدخل قدميه في الفردتين وأعرب عن رضاه قائلًا:

«هذان الخفان حسنا المظهر. حتى إن إحدى فردتيه تناسب مقاسي.»

كان ينبغي أن أكون ممتنةً لتدخُّل والدتي لصالح المقاطعة، ولكن لم يكن بوسعي سوى الرضا بالواقع. كانت الفردتان قبيحتين؛ فردتان قبيحتان مطاطيتان غير متماثلتين مصنوعتان في عصرٍ استشرى فيه الذوق السيئ، عندما كان الناس يظنون أن بطانات الكتف والشعر المُدرَّج المُسَرَّح للخارج وصور القوارب الشراعية على أحذية الشاطئ أفكار جيدة. كنت متأكدةً منذ لحظة ارتداء كيفن للصندل أنه لن يحصر استخدامه على رحلاته إلى الشاطئ. أعرف كيفن جيدًا بما يكفي لأعلم أنه سيرى الفردتين غير المتماثلتين مثاليتين لكل مناسبة.

وقد كنت على حقٍّ بالطبع؛ فعلى مدى الأيام التالية نادرًا ما كان كيفن يغادر منزل والدتي دون ارتداء الصندل؛ فكان يرتديه عند الذهاب إلى الصيدلية ومحل البقالة وحديقة الحيوان والمنتزه والمركز التجاري، والشاطئ بالطبع. كان يرتديه في كل مكانٍ نذهب إليه في سان دييجو، وكان يجتذب في كل مكانٍ نذهب إليه نظراتٍ مضحكةً وتعليقاتٍ من الغرباء المندهشين. لقد كان محطًّا للاهتمام.

«إنه موضة.» قالها بعد أن نقر شاب في متجرٍ لبيع الخمور على ذراعه وسأله هل يدرك أن فردتَي صندله غير متماثلتين، ثم أضاف: «سيبدو جيدًا عليك أيضًا.»

وشرح لامرأةٍ في منتصف العمر في حديقة الحيوان أنه لم يستطع شراء خفٍّ متماثل لأننا نقاطع المنتجات الصينية لهذا العام وليس لديه بديل آخر.

وأضاف: «كانت فكرة زوجتي. وأشك في أنها كانت تعرف أننا سنصل إلى هذه الحال.»

صرتُ شبه مقتنعة بأن السبب وراء حب كيفن الشديد لهاتين الفردتَين هو أنني لا أحبهما كثيرًا. في الحقيقة، كنت أكرههما؛ فقد كانتا تمثلان إهانة لي على عدة مستويات، لكنَّ أكثر ما كان يضايقني هو أنني لم أعد أسير بفخر في الشارع وأنا أسير بجوار كيفن. لقد فقدت أفضل إكسسوار كنت أضعه على ذراعي: الرجل الوسيم الاجتماعي صاحب العينين اللامعتين. لم أقل إن كيفن لم يَعُد وسيمًا، أو لامع العينين، أو لم يَعُد يمشي على مقربةٍ مني، ولكن لماذا أتزوَّج من رجل حسن المظهر ذي جبين يُشبه جبين ستيف ماكوين إذا كان سيُدمِّر هذا المظهر بارتداء صندل غير متماثل إحدى فردتيه برتقالية اللون والأخرى زرقاء؟ ربما لن يستطيع أحد أن يركز على أنفه المعقوف أو فكه المربع. سينشغلون كثيرًا بالنظر إلى قدميه والتساؤل عن عقله. كنت أُسرِع أمامه في المتجر وعلى

مَمرِّ الشاطئ، في محاولةٍ لترك مسافة صحية بيني وبين صندله وأملًا في ألا يدرك ما أفعله.

ذات ليلة بينما كنا نهمُّ بالخروج؛ إذ كنا ذاهبين إلى حفل، غمغمت قائلةً: «ألا يمكنك ارتداء حذاءٍ عاديٍ؟»

أستطيع أن أرى أنه كان ينتظر اعتراضي.

رد قائلًا: «الأحذية المتماثلة الفردتين للأشخاص الذين يمتلكون خيالًا محدودًا.»

فسألته: «هل تفعل هذا لتُعذِّبني فحسب؟ أم للانتقام مني؟ هل تآمرتَ مع والدتي من أجل إذلالي بهذا الحذاء؟»

اعتنق كيفن نبرة عقلانية على نحوٍ يُثير الجنون.

وقال مبتسمًا بلطفٍ زائف: «مطلقًا. ما لا يبدو أنكِ تفهمينه هو أننا في الصيف، وهذا العام هذا هو حذائي الصيفي.»

ولكنه لم يُضف: «لأن المقاطعة الخاصة بك حظرتْني من السوق الجديدة للخفاف الصينية المتماثلة الفردتين.» فهذا مفهوم بالبديهة.

ظَلِلتُ أغلي من الداخل لمدة أسبوع بسبب الصندل، وأُسرع الخطوَ أمام كيفن في الأماكن العامة. ثم بدأت نظرتي المحتقِرة للصنادل في اللين. لم أرَ الأمر في البداية، ولكن كيفن شهد تغيرًا في هذه الأيام منذ ارتدائه للصندل؛ إذ لم أسمع منه كلمة شكوى واحدة من المقاطعة لأيام. كنت منغمسةً في مسألة قدمَي كيفن المُهانة حتى إنني لم ألحظ تحسُّن توجُّهه الذهني. وشككت في وجود أكثر من مجرد الابتهاج الظاهري هنا، أيضًا؛ فللمرة الأولى طوال ذلك العام، بدا كيفن مستمتعًا بالمقاطعة، ربما لأنه وجد وسيلةً لاستخدامها لتعذيبي. أجبرت نفسي أن أكون واسعة الأفق حيال هذه المسألة. على الأقل سأحاول أن أكون واسعة الأفق. إذا كان عليَّ أن أكابد قليلًا من الإهانات لكسبه لجانبي، فلا مانع من ذلك، أو هكذا سأقول لنفسي في كل مرةٍ أرى فيها هذا الصندل.

اتخذ تبنِّي كيفن للمقاطعة أشكالًا عديدة؛ ففي متجر مواد غذائية محلي يديره عجوزان من الهيبيين، جعل الموظف يتحقق هل الصنوبر الذي يبيعونه من الصين أم لا.

وقال للموظف: «سأتصل بك غدًا لمعرفة ما اكتشفته.»

عندما اتصل في اليوم التالي، لم يكن الموظف متأكدًا؛ لذا اتصل كيفن بمكتب الشركة في لوس أنجلوس، حيث تلقى درسًا سريعًا عن ملصقات المواد الغذائية. إذا ما كان الطعام

مزروعًا محليًّا، فإنه لا يحتاج إلى ملصق يشير إلى بلد المنشأ، هكذا أخبره الرجل في مكتب الشركة. عاد كيفن إلى المتجر واشترى ثلاث علب من الصنوبر النامي في أمريكا.

وشجع الأطفال على الالتزام بالمقاطعة أيضًا؛ فبعد رحلة إلى المتجر للبحث عن بنادق مائية وبالونات مياه، وجَّه الطفلة نحوي وأشار عليها بأن تقول لي ما اكتشفوه على الرفوف.

قالت صوفي: «بالونات»، وبعبوس متزايد «الصين.»

وأضاف كيفن في مرح: «ولم يحالفنا الحظ في البنادق المائية أيضًا.» وحاولت سماع أثرٍ للسخرية في صوته، لكني لم أستطع سماعه. «سوف نواصل البحث.»

وحالفه الحظ في صيد نظارة شمسية لِويس؛ إذ كان يتجوَّل في سوق بجوار الشاطئ ذات يوم والتقط أول نظارةٍ رآها. كُتِب على الملصق «صنع في تايوان».

كان هذا النصر الاستثنائي قصير الأجل — فقد لَوَتْ صوفي ذراع نظارة ويس الجديدة بعد بضعة أيام — لكن كيفن هزَّ كتفيه بلامبالاة وقال:

«إنه لم يحب ارتداءها على أي حال. هذا ليس أمرًا جللًا.»

فعلت صوفي اليوم شيئًا لم يفعله طفل في أمريكا، وربما لم يسبق أن فعله طفل في العالم: كانت تتبعني في مَمرِّ الألعاب في السوق والتقطت علبة، ونظرت في الجانب السفلي، وتمتمت قائلة: «الصين» كما لو كانت تقرأ، ثم أعادت العلبة إلى مكانها على الرف. كان ينبغي أن أتوقَّع حدوث هذا — فرغم كل شيء، القرد يرى، ثم يُقلِّد — ولكني تفاجأت بأدائها. كانت أول فكرةٍ طرأت عليَّ: ماذا فعلت؟ والتالية: هل يمكن التراجع عنه؟ أي نوع من الأمهات هي التي تُعلِّم طفلتها الخوف من الألعاب الصينية؟ وإن كانت تخاف من الألعاب الصينية، فماذا بعد ذلك؟ الخوف من الصينيين؟

لقد كنت قلقةً بالفعل حيال تفكير ويس، الذي يعتقد أن خدمة العملاء السيئة تستحق حدوث مجاعةٍ للشعب الصيني، وها هي الآن طفلة تزن ٢٥ رطلًا مصابة برهاب الأجانب. ليساعدْني الرب. كان كل هذا خطئي وكنت أُدرِك ذلك. وكان لديَّ شأن آخر يتطلب فعلًا فوريًّا بين يديَّ، كأن هذا لم يكن كافيًا. في طريقي للخروج من الباب أتيت بفعلٍ أحمق؛ حيث وعدت الأطفال بأنني سأجلب لهم معي لعبة من المتجر، وهو عرْض متهوِّر لم يُنسَ تقريبًا في هذه المرحلة، نظرًا لما تعلمته عن منشأ اللعب في المتجر. جذبتُ يد صوفي، وقُدتُها نحو قسم الدُّمى، وشعرت بضيقٍ في صدري نتيجة هذا النذير.

وهناك تعلمت شيئًا غير متوقَّع عن الدمية باربي. إنها ليست صينية تمامًا؛ فهي إندونيسية جزئيًّا. طالما كنت مفتونةً بباربي، وليس فقط لأن والدَيَّ حاولا دون نجاحٍ يُذْكر حظرها عليَّ في طفولتي على أسس الأبوة التقدمية. أحببتها لأنه لا يوجد دمية أخرى تملك هذه الإكسسوارات الرائعة؛ الحذاء الصغير ذا الكعب العالي، وسترة السباحة، وحقيبة اليد. وهي جميعًا أشياء بغيضة في نظر والديَّ؛ وهو ما جعلني أشعر أنها لا تُقاوَم؛ لذا لا حاجة لي أن أقول إنني تفحصت الكثير من دُمى باربي هذا العام، وما اكتشفته هو أن باربي دائمًا ما تأتي من الصين، وأيضًا الحذاء ذا الكعب العالي وسيارة الشاطئ الخاصة بها وغيرهما من الملحقات.

وبرغم عشرات دُمى باربي الصينية التي كانت محيطةً بي، وجدت دمية إندونيسية وحيدة ترتدي تنورة باليه وسروالًا ضيقًا وردي اللون. شعرت بحيرة من وجود هذه الدمية. كيف يمكن أن تستفيد شركة ماتيل من صناعة باربي في إندونيسيا بينما تصنعها مصانعها في الصين بالملايين؟ فكرت في شيء آخر؛ ماذا يمكن أن تقول أمي إذا أحضرت الدمية لصوفي لتلعب بها في المنزل؟ ربما لن تقول أي شيء على الإطلاق؛ وهو ما يعني أنني لمست وترًا حساسًا حقًّا.

من المغري شراء باربي الإندونيسية لأنها لا تكلف سوى ستة دولارات ولأنها ستكون وسيلة مسلية لرد الصاع لوالدتي لإعطائها كيفن ذاك الصندل، ولكني لم أستطع تمامًا إجبار نفسي على فعل ذلك. ليس لأن الصندل كان له جانب إيجابي تجسَّد في تحسين الحالة المزاجية لكيفن؛ مما يُسهِّل عليَّ مسامحة أمي، ولا لأني مثقلة ببعض المثاليات النبيلة حيال اللُّعب المناسبة للفتيات؛ فأنا لا أعتقد أن الدُّمى تُمثِّل قدوة جيدة، سواءٌ أكانت رفيعة القوام أم بدينة. المشكلة ليست في عدم ملاءمة دُمى باربي لسن صوفي الصغيرة، على الرغم من أن هذا صحيح بالتأكيد. لم أشترِ باربي الإندونيسية؛ وذلك لسبب بسيط هو أن دُمى باربي الأخرى، تلك الدمى الصينية التي لوَّحت الشمس بشرتها ومناشف الشاطئ تروقني أكثر.

وسرعان ما جُزيت بما صبرت، وذلك حين تقدمتُ في الممرِّ عندما وجدت لعبة إطلاق كرات مكسيكية بسعر خمسة دولارات، وزجاجة لصُنْع فقاعات الصابون أمريكية الصنع. وفي وقت وصولي إلى المنزل، كان لديَّ أمر واحد فقط يُقلقني: إظهار شعور الحب الأخوي لدى طفلتنا الصغيرة الكارهة للصين. وهذا عمل شاق، لا شك في ذلك.

في عيد زواجنا السابع عشر اكتشفنا نعمة الجلوس على شاطئ البحر عند غروب الشمس وجاذبية مخلفات الآخرين الصينية.

كنا على الشاطئ في سان دييجو، نتتبع الأطفال على طول الرمال الرطبة في ضوء النهار المتلاشي، عندما عاد ويس سريعًا إلينا حاملًا دلوًا بلاستيكيًّا شفافًا في يديه. كان يحتوي على عدسةٍ مكبرة موصولة به لرؤية الكائنات البحرية.

سألَنا: «هل يمكنني الحصول على هذا؟ هل هذا من الصين؟»

فسألته من أين حصل عليه، فأشار إلى معالم هشة لقلعة رملية مهجورة. نظرت إلى كيفن، الذي رفع كتفيه ومدَّ كفيه. تفحصت الشاطئ بحثًا عن أصحاب محتملين للدلو، لكن الشاطئ الرملي كان خاليًا تقريبًا بحلول هذا الوقت. تخلَّى أصحاب الدلو عنه. وهذا يعني أن هذا الدلو الصيني — ألقيت نظرة سريعة على أسفله — مخلفات صينية، والمخلفات الصينية معفاة من المقاطعة على غرار الهدايا الصينية والأشياء الصينية المقدَّمة من الآخرين.

قلت لِويس: «يمكنك الحصول على الدلو.»

فسألني: «وماذا عن هذه الأشياء؟» واستدار وأشار نحو الشاطئ الذي كان مليئًا باللعب المنسية، التي كان كثير منها مُلقًى بالقرب من المياه؛ حيث جعلتْها موجات المدِّ تتهادى عبْر الرمال. وإذا لم نُنظف المكان من هذه الأشياء، فسوف ينتهي بها المطاف في حلقوم طيرٍ بحري أو ربما حوت.

فقلت له: «أحضر ما تريد.»

بعد نصف ساعة، خرجنا من موقف السيارات عند الشاطئ بصندوق سيارة مليء بمعاول ودلاء ومجارف وأسطال صينية. وعندما دخلنا في زحمة المرور، قيَّمت تأثير المقاطعة على عطلتنا. صحيح أننا لم نعثر على بنادق مياه أو بالونات مياه غير صينية، ولم يحصل الأطفال على ألعاب شاطئ حتى أيامنا الأخيرة من العطلة، ولكن في النهاية مرَّت العطلة على ما يُرام، بل أفضل من ذلك. والليلةَ ساعدْنا في تنظيف الشاطئ من البقايا؛ وهو الأمر الذي لم يكن ليخطر ببالنا لو كنا حصلنا على ألعاب الشاطئ بالطريقة التقليدية، وهي شراؤها. وتعلمت تخطي فكرة أن الغرباء يُحدقون في قدمَي كيفن؛ أو كدت أتخطاها على أي حال. لم تَحرِمنا مقاطعة الصين من الأمواج والرمال والشمس. وبالتأكيد، انتهى بنا الأمر باثنين من المُبرِّدات الصينية الممنوعة كتذكارات، ولكن كان يمكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك.

في الوقت نفسه، توقَّعت حدوث مشكلات؛ ففي غضون أيامٍ قليلة ستنتهي عطلتنا وسأعود إلى المنزل، مع عدم امتلاكي لطابعةٍ تعمل، فضلًا عن الدبابيس. قبل مغادرتنا لقضاء الإجازة، استقلت من وظيفتي في مجلة الأعمال للعمل ككاتبة حرة بدوام كامل، وهو ما كان يعني أنني لم أعد أستطيع الطباعة في المكتب بعد الآن. من الناحية النظرية، يمكن أن أطلب من كيفن استئناف طباعة الأوراق لي في مكتبه في الجامعة، لكني أشك أن دعمه للمقاطعة ليس قويًّا، رغم تشجيعه في الآونة الأخيرة. خلاصة القول هي أن خيارات الطباعة لديَّ كانت تَنفد، بل كانت قد نَفِدتْ بالفعل. كانت قد نَفِدتْ جميع بدائل الطباعة لديَّ، وهي المشكلة التي تُشكِّل تحديًا لا يُستهان به في مجال عملي الذي اخترته.

كنت أُحدق من النافذة إلى السيارات السريعة في الظلام وأشعر بالأسى على نفسي عندما تذكَّرت سلاحي السري في المعركة ضد خراطيش الطابعات الصينية. لا أستطيع أن أُصدِّق أنني نسيت سلاحي السري. اكتشفت هذه الورقة الرابحة قبل فترةٍ وجيزة من سفرنا لقضاء الإجازة؛ وهي ما سمح لي بالمماطلة خلال عطلتنا دون كثيرٍ من القلق؛ ففي كل مرةٍ أشعر فيها بقليلٍ من الذعر، كنت أفكر في هذه الخطة الاحتياطية وأُهنئ نفسي على ذكائي الحاد.

وقررتُ استخدام سلاحي السري في اليوم الذي بدا دائمًا أنه سيحلُّ قريبًا جدًّا: غدًا.

قال الشاب لي: «لا يمكنني القيام بذلك. أي خرطوشة أخرى، ولكن ليس هذا النوع.»

وقال شيئًا عن شكل خرطوشة طابعتي، أو ربما نوع المواد الكيميائية في داخلها، ولكني أغفلت التفاصيل بسبب ذهولي من الأخبار السيئة التي أخبرني بها لتوِّه؛ فقد قال لي إنه لا يستطيع إعادة ملء خرطوشة طابعتي الفارغة التي حشرتُها في حقيبتي وحملتها إلى كاليفورنيا على أمل أن أتمكَّن من إعادة ملئها بالحبر وتجنُّب عملية اصطياد بديل غير صيني.

كانت تلك الخرطوشة هي سلاحي السري في تحدِّي الخرطوشة الصينية؛ فقد بدا لي الأمر كالمعجزة عندما علمت أن البلد مليء بمتاجر هدفها الوحيد هو إعادة ملء خراطيش الطابعة بحيث يمكن استخدامها مرةً أخرى. لم أستطع أن أُصدِّق حُسن حظي عندما وضعتْ صديقة لي قائمة بمتاجر متعددة الفروع على مكتبي في العمل. عندما بحثت عن هذا المكان في دليل هاتف والدتي في الليلة الماضية، بدا لي أن حظي يتحسَّن. إنه لا يَبعُد عن منزلها سوى بضعة أميال في مركز تجاري قديم كنت أذهب إليه منذ كنت طفلة.

وفي هذه اللحظة، كانت الجدران تنهار فوق رأسي.

سألت الشاب: «هل تعتقد أنه يوجد متجر آخر يمكنه إعادة ملئها؟»

هزَّ رأسه نفيًا وقال:

«ليس هذا النوع؛ فهو غير قابل لإعادة التعبئة. لا هنا ولا في أي مكان.»

استدرت استعدادًا للرحيل، ثم فكَّرت في شيءٍ آخر. سألته عن مكان صُنع الحبر الذي تستخدمه شركته لإعادة ملء الخراطيش، فقط من باب الفضول.

أجاب ضاحكًا: «كندا.»

مشيت وأنا أجرُّ قدميَّ وخرطوشتي القديمة عائدةً إلى السيارة. كان الجو حارًّا إلى حدٍّ بغيض هذا الصباح. وصلت إلى المركز التجاري في وقتٍ مبكر جدًّا، بينما كانت معظم المحلات التجارية لا تزال مغلقة. قضيت ساعة أتفقَّد نوافذ عرض المتاجر المغلقة بالقضبان الحديدية على البضائع متسائلةً كم منها صيني. اشتريت حلوى من ماكينة لبيع الحلوى، وحاولت حجب صوت موسيقى الخلفية الدائرة في المركز التجاري المختلطة بأصوات أغاني الراب والروك المتنافرة التي تأتي من داخل المتاجر، حيث كان العُمَّال يستعدون لهذا اليوم. والآن جاءتني هذه الأخبار المحبطة. كان من المحبط جدًّا أن أكون قريبةً لهذا الحد من حلٍّ غير صيني للطباعة — الحبر الكندي — ثم أُضطَر إلى الرحيل خالية الوفاض.

توجَّهت بالسيارة إلى منزل والدتي، وقرَّرت قضاء بقية اليوم في فعل ما كنت أفعله حيال مشكلتي مع الطباعة طوال أغلب الشهرَين المنصرمَين، وهو ألَّا أفعل شيئًا على الإطلاق.

لا بد أن مدبرة منزلنا دلَّلت الكلب خلال عطلتنا في كاليفورنيا. لقد مرَّت ثلاثة أسابيع منذ رأيناه آخر مرةٍ ولكن ريك بدا خائب الأمل عندما دلفنا من الباب الأمامي في مساء هذا اليوم الرطب الحار من شهر أغسطس؛ فقد حرَّك ذيله بالكاد قبل أن يرتميَ على أرضية المطبخ مرةً أخرى متنهدًا، شاعرًا بالملل منَّا بالفعل.

كان المنزل صينيًّا أكثر قليلًا مما كان عليه عندما تركناه. كما تحسَّن أيضًا على نحوٍ طفيف؛ فاستبدلت مدبرة المنزل بستارة الحمام التي غيَّر لونَها العفنُ واحدةً جديدة مصنوعة في الصين. أما الصبي المراهق الذي استعنَّا به لجز العشب فقد اشترى لنا سلك تمديد كهربيًّا صينيًّا جديدًا بعد أن سار بآلة جز العشب على السلك القديم فقطعه

نصفين. وفيما بعدُ، بعدَ بضعة أيام، اكتشفنا شيئًا آخر في المنزل؛ اكتشفنا أن الفئران قد عادت. في هذه المرة لم نناقش مصائد الفئران الرحيمة. وزَّع كيفن مصائد فئران أمريكية واصطاد فأرين في أول أسبوع بعد عودتنا إلى المنزل.

بدا لنا أن هذه نهاية لمشكلات الفئران، لكنني أدركت لاحقًا أنها ليست إلا بداية النهاية؛ فقد أتت النهاية بعد أسابيع عندما صادفنا فأرًا رفض أن يأكل الطُّعم. في الواقع، كانت المشكلة هي أنه أكل الطُّعم — الجبن وزبدة الفول السوداني — بالفعل وتمكَّن رغم ذلك من الفرار سالمًا إلى المساحة الفارغة تحت حوض المطبخ. تساءلت هل هذا الفأر يمتلك موهبة نادرة وسيراوغنا إلى ما لا نهاية، ولكن كيفن خلُص إلى أنها ليست سوى مسألة وقتٍ قبل أن نسمع صوت الفرقعة المألوف في منتصف الليل.

وأضاف: «الجرذان ذكية، على عكس الفئران المعروفة بالغباء.»

أتفق أنا ووالدتي أيضًا أن الفئران ظريفة. تذكَّرت هذا الأمر في وقت ما بعد الظهيرة من ذلك اليوم عندما أنجزت ما كنت أحسبه بالخطأ مستحيلًا؛ فقد قبضت على فأر حي بمصيدة رحيمة منزلية الصنع؛ مصيدة فئران رحيمة منزلية الصنع من تصميمي. لا يوجد أحد أعرفه اقترب من اختراع شيء من هذا القبيل؛ فأصدقاؤنا وجيراننا الذين ينزعجون من الفئران يَلجَئون إلى المصائد اللاصقة القاسية التي تستخدم السم والتي تطيل معاناة الفأر لساعات أو ربما أيام، ومصائد الفئران التقليدية التي تتعامل مع الأمر بفرقعةٍ مفاجِئة سريعة. لا يوجد أحد نعرفه حاول من قبلُ فعل ما حقَّقتُه في مصيدتي.

ربما تكون كلمة «مصيدة» كبيرةً بالنسبة إلى وصف ما صنعتُه للقبض على فريستي؛ ربما تكون كلمة أداة غريبة أكثر ملاءمة لها، ولكن النتيجة النهائية هي ما يهم؛ فأر حقيقي حي قَبضتُ عليه دون أي مساعدة من الصين أو أي شخصٍ آخر.

هكذا فعلتُها. كنت جالسةً مرةً أخرى إلى طاولة المطبخ، أتفقَّد بريد اليوم، عندما سمعت مرةً أخرى صوت خربشةٍ رقيقًا في الخزانة تحت حوض المطبخ. كانت مألوفةً على نحوٍ مخيف، ووجدت نفسي أكرر الاستراتيجية نفسها التي استخدمتها في المواقف السابقة، مع عدم توقُّع حقيقي للنجاح. نهضت وأمسكت منشفة أطباقٍ وتسللت على أطراف أصابع قدميَّ نحو الخزانة. ولكن هذه المرة، بعد أن فتحت باب الخزانة بهدوء وسحبت ببطءٍ سلة المهملات نحوي للنظر من فوق حافتها، وجدت شيئًا ينظر إليَّ؛ فأرًا بُنيَّ اللون ممتلئ الجسم، يُحرِّك أنفه بتخبُّط ويبدو عليلًا في قاع سلة المهملات الفارغة.

كان قد تمكَّن بطريقةٍ ما من التسلق والدخول إلى سلة المهملات، ولكنه الآن عالق في قاعها غير قادر على تسلق الجوانب الناعمة للبلاستيك المحيط به.

همست للفأر قائلة: «لا تتحرك.»

فلم يتحرك.

وفجأة، أدركت أن منشفة الأطباق التي أمسكتها في يدي لا فائدة منها على الإطلاق. رميتها على المنضدة، وأدرت عينيَّ في أرجاء المطبخ، ثم مددت يدي إلى لوحة تقطيع بلاستيكية كبيرة عند نهاية الطاولة. بعد ذلك سحبت سلة المهملات بحذر إلى خارج الخزانة ثم سرعان ما وضعت لوحة التقطيع فوقها. كنت أستطيع أن أشعر بقفزات الفأر إلى أعلى، ولكن هذا الفأر لن يذهب إلى أي مكان؛ على الأقل في هذه اللحظة.

عندما عاد الأطفال إلى المنزل كانوا يتناوبون النظر داخل سلة المهملات وإلقاء أجزاء من خبز القرفة القديم على طريدتنا. أشار ويس إلى أن الفأر سيكون حيوانًا أليفًا جيدًا، ولكن كيفن سبقني إلى الرد البديهي السريع.

فقال: «هذا مستحيل.»

بعد العشاء نفذتُ الجزء الثاني من خطة الاصطياد وإطلاق السراح؛ حيث أطلقنا سراح الفأر. ركب الأطفال السيارة وقدناها إلى منطقة البحيرة حيث يعيش الأغنياء. كنت جالسةً في السيارة واضعةً سلة المهملات فوق ركبتي. لم يكن الوضع مريحًا للغاية ولم أكن أستطيع الرؤية من السلة، ولكن كنت أخشى أن تسقط لوحة التقطيع لو لم أُثبِّتها في مكانها. لم أرد أن أُخاطر بصعود الفأر للحافة والهروب إلى داخل السيارة. لم يبقَ سوى شارع واحد من المنازل حينما طرح ويس السؤال الذي كان يدور في ذهني منذ أن خرجنا من محيط المنزل.

«ماذا سيحدث إذا تحرَّر الفأر في سيارتنا؟»

قلت مطمئنةً: «لن يحدث شيء.» على الرغم من أن هذا ليس صحيحًا. لقد كانت لديَّ خطة فرار حال تحرَّر الفأر في سيارتنا التويوتا؛ لقد خطَّطتُ أن أفتح باب السيارة وأن ألقيَ بنفسي إلى الخارج تاركةً الرجل والصبي والفتاة والفأر يتدبَّرون شئونهم بأنفسهم. توقَّعت ألا يؤلمني ذلك كثيرًا؛ فقد كنا نسير بسرعة حوالي اثني عشر ميلًا في الساعة، وكنت ممسكةً بسلة المهملات أمام جسدي لتخفيف سقوطي.

وصلنا إلى البحيرة دون وقوع حوادث، ووقفنا على حافةٍ موحلة، وخرجنا من السيارة. نظرتُ حولنا لأرى هل يرانا من أحد، نِصفَ آملةٍ أن يعترض شخص غريب، لمجرد سماع ما سيقوله له كيفن. ولكن لم يكن هناك أحد سوانا.

أوقف كيفن الطفلين جنبًا إلى جنبٍ ووضعتُ سلة المهملات أمامهما.

وقلت آمرةً الطفلين: «راقبا عن كثب، سينتهي هذا سريعًا.»

وقد حدث بالفعل. نزعت لوحة التقطيع وأوقعت سلة المهملات على جانبها، فهرب الفأر منها بسرعة؛ وشاهدناه يقفز في الحشائش بالقرب من المياه. لم يستغرق الأمر برُمَّته سوى ثلاث ثوانٍ. لم ينظر الفأر خلفه. كان يائسًا للغاية. كانت عينا ويس مُركِّزةً على الفأر خلال فترة ظهوره الوجيزة، ولكن صوفي كانت تنظر إلى بعض البط وأغفلت الموقف كله.

كانت مراسم إطلاق السراح مخيبةً للآمال، ولكن رغم ذلك، بينما كنا نقود السيارة عائدين إلى المنزل، كدتُ أطير فرحًا؛ فقد هزمت الصين في لعبة مصيدة الفئران الرحيمة، على الأقل هذه المرة. في هذا اليوم، تفوَّقت على النظام، الذي يتطلب أن تقتل الفأر إذا لم تكن ترغب في شراء المصائد الصينية أو استخدام المصائد اللاصقة أو السم أو الاستسلام والعيش مع الفئران. لا أحد يستطيع أن يسلبني هذا النصر.

وبعد بضعة أيام، أمسك كيفن ما يبدو مرةً أخرى أنه آخر فأر لذلك العام باستخدام مصيدة أمريكية كان قد وضعها تحت الحوض، تحسُّبًا لهذا الموقف. كنت متأكدةً من أنه لا يمكن أن يكون الفأر نفسه الذي أطلقنا سراحه عند البحيرة — هل هذا ممكن؟ — ولكن رغم ذلك أضاع هذا الفأر بريق انتصاري للمقاطعة.

التقت جارتنا بكيفن في المتجر صدفةً وسألته هل الأكياس البلاستيكية الخاصة بمتاجر البقالة تُصنع في الصين أم لا. يُنبئني حدْسي أن الإجابة هي لا. كان تفكيري هو أنها لا يمكن استيرادها لأنه لا بد أن إنتاج أكياس رقيقة محليًّا سيكون رخيصًا للغاية. لم أُفكِّر قط في هذا، وليس لديَّ أي قاعدةٍ تغطي ذلك.

أرَّقني سؤالها ليومٍ أو يومين حتى فكَّرت في فحص بعض أكياس البقالة القديمة في غرفة الغسيل. لم أتمكَّن من العثور على أي كلمات مطبوعة بخط صغير تخبرني أين صُنعت الأكياس. ولأكون بمأمن، بدأت أطلب أكياسًا ورقية في متجر البقالة، على الرغم من أن هذه الأكياس لا تُبيِّن مكان منشئها. وضعت ثقتي في حدْسي: تبدو الأكياس الورقية أمريكية.

وضع الحلقة الأضعف حدًّا لقراءة الكلمات المطبوعة بخط صغير على الأكياس البلاستيكية أو طلب الأكياس الورقية.

قال كيفن: «هذا يتجاوز كل الحدود. لن أفعل ذلك.»

لم أجرؤ على الضغط على هذه النقطة.

اشتريت زينة لكعكة عيد ميلاد ويس على شكل سكوبي دو قبل ثلاثة أشهر من عيد ميلاده. ربما أُصِبتُ بجنون الشك، ولكني لن أخاطر بأن تنتقل الشركة الفرنسية التي تصنع الزينة إلى الصين في الأشهر المقبلة.

العالم يتغيَّر بسرعة، وعليك أن تكون مستعدًّا.

استغرقتُ ستَّ ساعات من المكالمات الهاتفية والبحث باستخدام الكمبيوتر لكني حللتُ في النهاية معضلة خرطوشة طابعتي. وجدت مكانًا في فينيكس يبيع خراطيش لا تحمل علامة تجارية يبدو أنها مصنوعة في إلينوي وتُملأ بحبر ياباني.

قلت «تبدو» لأنني لست على يقينٍ من مكان صُنْعها؛ فقد أخبرني الرجل الذي حدَّثني عبْر الهاتف أنها تُجمَّع في إلينوي، ولكن عندما سألته إذا كان ذلك يعني أنها مصنوعة في إلينوي، صَمَت. لا أسعى إلى أن أكون صعبة المِراس — أبدًا — لذلك حاولت أن أشرح له.

قلت: «أتساءل فحسب هل القطع البلاستيكية صُنعت في مكانٍ آخر، ربما الصين مثلًا، ثم جُمعت فحسب في إلينوي؛ فكلمة مُجمَّعة جعلتني أتساءل.»

ساد صمتٌ من جانبه، ثم قال: «أعتقد أنها مصنوعة في إلينوي.»

كان يحاول التخلُّص منِّي ليس أكثر، ومَن يمكن أن يلومه على ذلك؟

كنت آمل حقًّا ألا تكون هذه الخراطيش مصنوعةً في الصين لأن الحد الأدنى للطلب سيوفر ما يكفي من الحبر لثمانية آلاف صفحة. ربما أستغرق سنوات لاستهلاك كل ذلك الحبر الكثير. لم تكن سياسة ذلك المكان في فينيكس هي التي ستمنعني من إعادة الخراطيش إذا اتضح أنها صينية؛ إنما سياسة كيفن هي التي كانت ستقف ضد إعادتها إذا اتضح أنها صينية. أجفلت وأنا أتخيَّل ما يمكن أن يقول إذا أخبرته أنني سوف أقضي قدرًا كبيرًا من يوم عملي في رحلات سريعة من المكتبة العامة وإليها لطباعة الصفحات؛ لأنه كان ينبغي عليَّ إعادة الخراطيش الصينية التي كانت ستسمح لي بالطباعة في المنزل.

دفعت تكاليف الخراطيش ببطاقة الفيزا الخاصة بي، وأنهيت المكالمة الهاتفية، وتمنيت حدوث أفضل ما يمكن حدوثه.

الفصل التاسع

أحلام الصين

أحضر ويس لي قلمًا وورقة وأخبرني أنه حان وقت كتابة قائمة هدايا الكريسماس الخاصة به ليُقدِّمها إلى بابا نويل. لا يزال أمامنا أربعة أشهر حتى موعد الكريسماس؛ فهواء منتصف النهار المتوهِّج في خارج المنزل يمكن أن يُذيب ثورًا. ولكن ويس لن يخاطر بأن يغفل بابا نويل عما يدور في خلده.

كانت قائمة طويلة وسرعان ما لم أستطع إخراجها من ذهني. ألصقها ويس على الجزء الأمامي من الثلاجة بمغناطيس لكي أتذكَّر رغباته غير المحقَّقة من الألعاب في كل مرةٍ أُحضِر فيها الحليب. وينزعها كل يومٍ أو يومين ويطلب مني أن أُضيف شيئًا جديدًا. وحتى ذلك الوقت، لم يبدُ أي بند فيها واعدًا، بمعنى أن جميعها تقريبًا تبدو صينية.

نزعتُ الورقة عن الثلاجة في يومٍ ما وتحققتُ سريعًا من بلاد المنشأ المحتملة للبنود المدرجة على قائمته حتى الآن:

سيارة إطفاء؟ على الأرجح صينية.

صانعة مثلجات؟ بالتأكيد صينية.

حقيبة ظهر عليها بطل خارق؟ صينية.

أدوات بطل خارق داخل حقيبة الظهر؟ صينية.

صندوق غداء؟ أفضل رهان، صينية.

يويو؟ صينية.

سمكة قرش طائرة؟ صينية.

إنسان آلي أزرق، بالإضافة إلى كل الألوان الأخرى، أيضًا؟ صيني.

دمية محشوة على شكل دب؟ صينية.

سيف مضيء؟ صيني. تحققت من ذلك، أكثر من مرة.

أصابتني القائمة بالخوف من البداية. ثم أضاف ويس بندًا جديدًا: أدوات رجل شرطة.

أخبرني قائلًا في ذات ليلة: «أحتاج إلى أصفاد، حقيقية، وأيضًا شارة وقبعة ضابط شرطة، وحبل وخطاف معدني وشيء أُدوِّن فيه.» ثم كرَّر ما كان يراه بندًا أساسيًّا: «وبعض الأصفاد، الحقيقية.»

بدا كل طلب وكأنه مسمار في نعشي، خاصةً الأصفاد، فلا يلزم أن يخبرني أحد أين تُصنع الأصفاد البلاستيكية.

لا أحب أن أعترف بذلك، لكني وجدت نفسي أُفكِّر في المقاطعة بعد يومين من ضرب إعصار كاترينا ساحل الخليج، وبعد أن أصبح واضحًا لنا ولكل شخصٍ آخر أن الإعصار كارثة بحجمٍ لا يمكن تصوُّره.

في صباح اليوم التالي للعاصفة كنت في المتجر لشراء ألعابٍ لأطفالٍ في ملاجئ الطوارئ في بلدتنا الواقعة على بُعد ٨٠ ميلًا من نيو أورليانز. في معظم أنحاء البلدة، مرَّ يوم الإعصار كيومٍ عاصف شديد الرياح لا أكثر. كانت العاصفة قد أدَّت إلى انقطاع الكهرباء في وقتٍ مبكر، فانتظرنا في الحرِّ أن تسوء الأوضاع، لكن شيئًا لم يحدث، فبقينا بعيدين عن النوافذ، وكان الكلب عصبيًّا. انتهى أسوأ ما في الأمر في غضون ساعات قليلة، وخرج الجيران من منازلهم لبدء تنظيف أفنيتهم. وكنا نظن كما لو أننا تفادينا رصاصة الموت.

بدأت اللقطات السريالية في اليوم التالي تُبَث على شاشات التليفزيون وبدأتْ بلدتنا تمتلئ بأشخاص مشردين من نيو أورليانز.

كانت الرحلة إلى المتجر هي أول رحلة لي خارج المنزل منذ ضربتْنا العاصفة. أحضرت كتب تلوين ماليزية، وألوانًا شمعية أمريكية، وجوارب نسائية أمريكية، وعدة زجاجات من لعبة الفقاعات «مستر بابل»، التي يقول ملصقها الجاد إن سائل الفقاعات مصنوع في المكسيك، والزجاجة البلاستيكية التي تحتويه مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أحضرت بعض الحفَّاظات وطعامًا للرُّضَّع للتبرُّع بها، وكانت الحفَّاظات والأطعمة أمريكية الصنع أيضًا.

أثناء وقوفي في طابور الدفع بدأت أشعر بانزعاجٍ حيال ما أفعله؛ لم يكن الأمر يقتصر على مجرد الشعور بقليلٍ من الإزعاج؛ لقد كنت هنا من أجل الأطفال النازحين، لكن حالتي المزاجية قوَّضت أي فضيلةٍ في أفعالي. كنت لا أزال أفكر في المقاطعة؛ مما كان

يوحي أنني لست شخصًا جادًّا، أو ربما حتى لست لطيفةً للغاية. كنت أودُّ أن أرى نفسي شخصًا ينسى أمر ملصقات المنتجات في خضم هذه الفوضى والحزن الناجمَين عن أحداث الأيام القليلة الماضية، ولكن مقاطعة الصين بقيت معي وأنا أتجوَّل في المتجر وأملأ سلة المشتريات بأشياء للملاجئ.

وأنا أنتظر في الطابور، تساءلت عما كان سيتطلبه الأمر كي أنسى المقاطعة. هل سأظل أتفحَّص ملصقات بلد المنشأ إذا تُوفِّي شخص أعرفه وكنت في حاجةٍ إلى فستان أسود لحضور جنازته؟ هل سيوجد فرق إذا كان المُتوفَّى أحد أقاربي، أو مجرد صديق؟ لا أستطيع أن أُصدِّق أني أفكر في هذا، وحاولت التوقف ولكني وجدت أني لا أستطيع مقاومة الإجابة عن السؤال الذي طرحتُه على نفسي. لا، لا يمكن أن أكون بهذه السطحية. وقلت إنني بالتأكيد سأتجاهل أي أفكار بشأن المقاطعة في حال وقوع مأساةٍ شخصية. على الأقل، آمل في هذا. بالتأكيد شعور انفطار القلب سيتغلب على تلك التجرِبة البسيطة مع العولمة. سيحدث هذا تلقائيًّا، دون جهد، أليس كذلك؟ أنا واثقة من أنه سيحدث؛ أكاد أكون متأكدة. أعتقد أنني لا يمكن أن أكون متأكدة، وأرجو ألا أُضطَر لاكتشاف ذلك أبدًا.

حاولت مرةً أخرى أن أدفع عن ذهني هذا الجزء الشنيع من التحليل الذاتي، لكن القيام بهذا صعب لأن الطابور كان طويلًا وبطيئًا وما يزال لديَّ وقت طويل. لست متأكدةً أنني مررت فيما مضى بما يمكن تسميته أحسن الأوقات، لكني مررت بأوقات أفضل من هذا الوقت.

ربما كنت على خطأٍ في استنتاجي السَّمْحِ بشأن أساسيات آداب سلوكي البشرية؛ فعندما اتصلت بأمي قالت لي إنها اشترت ٦٠٠ زوج من الملابس الداخلية للتبرُّع بها للنازحين. سألتها إن كانت قد نظرت في مكان صنعها.

أجابت قائلةً: «لم أفكر في فحصها. لم يخطر ذلك على بالي.»

إنها «بالطبع» لم تفكر في فحصها و«بالطبع» لم يخطر ذلك على بالها؛ فهي لا تفكر في مقاطعة الصين، التي لا تنطبق قواعدها عليها على أي حال؛ فهي تفكر في الأشخاص البائسين الذين فقدوا كل شيء، وهو الشيء الوحيد الذي ينبغي أن أُركِّز عليه أنا أيضًا. يمكنك أن تكون على يقينٍ أيضًا من أن والدتي ليست من النوع الذي كان سيستمر في فحص البطاقات التجارية للمنتجات، لو أنها كانت تقاطع الصين وتُوفِّي أحد معارفها وكانت في حاجةٍ إلى ثوب لحضور الجنازة.

فحصت والدتي البطاقات التجارية من أجلي، ثم اتصلت بي مرة أخرى وقالت: «إنها مصنوعة في هندوراس على الأغلب. مع ذلك، أعتقد أنه يوجد بعض منها أمريكي أيضًا.»

شعرت بالاشمئزاز من نفسي مرةً أخرى عندما أخبرتْني بهذا؛ لأنني أدركت أنني شعرت بشيءٍ من السعادة غير الملائمة على الإطلاق حين علمت أن والدتي اشترت للتو ٦٠٠ زوج من الملابس الداخلية غير الصينية.

رأيت حلمًا بدا كما لو أنه يدور حول وول مارت، ولكنه في الحقيقة كان يدور حول مقاطعة الصين.

السبب في أنني كنت واثقة من أن حلمي يدور حول المقاطعة وليس حول وول مارت هو أنني لست قلقةً حقًّا حيال الانهزام أمام وول مارت، في حين أن التمسُّك بالمقاطعة يبدو غير مؤكدٍ أكثر من أي وقتٍ مضى. شعرت في حلمي أنني أواجه عملاقًا وغير مهيأةٍ للقتال، لكنني في الواقع لا أعتبر نفسي مجردة من الأسلحة في معركتي ضد وول مارت؛ فألقيت نظرةً طويلة المدى على هذه المسألة؛ ففي يومٍ ما، تلك النزعة الغامضة لدى شركة وول مارت نحو «الأسعار المنخفضة» ستعود عليها بعواقب وخيمة وستنهار الشركة على غرار شركة إنرون. ربما يستغرق ذلك أربعين عامًا، ولكن في النهاية، سأكون أنا من يضحك أخيرًا. وسيكون ذلك موتًا بطيئًا؛ لننتظرْ ونرَ.

أما تجنُّب البضائع الصينية للفترة المتبقية من السنة فإنه أمر آخر.

وفي هذه الحالة، ربما هممت بأمرٍ أكبر مما أستطيع تحمُّله، لا سيما ونحن نقترب من الكريسماس، الذي يُمثِّل ذروة مبيعات المنتجات الصينية خلال العام. بدأت القلق حيال المقاطعة كل صباح ريثما أتناول فنجان قهوتي وأداوم على القلق حتى وقت النوم. والآن أصبحت المقاطعة تطاردني في نومي.

رأيت في الحلم أنني موجودة في وول مارت قبل الكريسماس ببضعة أيام. أجفلتُ تحت الأضواء وحاولتُ الابتعاد عن طريق الأشخاص المندفعين عبر الممرات مع عربات تسوُّق تكدَّست صناديق المنتجات الصينية فيها في أكوام مرتفعة. كانت الحشود هائجةً ولا تهدأ. وكان الناس المنتظرون في طابور طويل يهجمون على علب شوكولاتة العيد الموضوعة على طاولة عرض بجانب الطابور. كانوا يقضمون الشوكولاتة ويعيدون النصف الباقي إلى الصناديق. ولسبب ما كنت أبحث عن مدير المحل — السيد جوشوا — ولكن

لم يستطع أحد أن يخبرني أين أجده. على بُعد عدة ممرات، في منتصف المتجر، رأيت سيرًا متحركًا يحمل علبًا ذهبية اللون إلى الطابق الثاني. مشيت إليه، ونظرت حولي لأرى هل يراني من أحد، ثم تسلقت على السير المتحرك. حملني إلى الطابق العلوي عبر فتحةٍ مربعة في السقف المُبلَّط إلى مكتبٍ باهتٍ مكسوٍّ بألواح من خشب البلوط. ظهرت حارسة أمن من كنف الظلام عندما نزلت عن السير، وخطوتُ على سجادة لونها عُنَّابِي.

قالت الحارسة في الحُلم بصرامة: «هذا مكتب السيد جوشوا؛ ليس من المفترض أن تكوني هنا.»

والشيء التالي الذي أعرفه هو أنها وجَّهتْني مرة أخرى إلى السير المتحرك، الذي عُكِسَ اتجاهه وأصبح يتجه الآن نحو الطابق السفلي. تسلقت وركبت عليه. وفي الأسفل، كان ينتظرني اثنان من حراس الأمن. كان الناس قد ازدادوا في طابور الدفع في ذلك الوقت، وكانوا أكثر عصبيةً من ذي قبل. وكثر المتسوِّقون المنقضُّون على علب الشوكولاتة. كان ذلك السلوك يبدو وكأنه مشارفة على ارتكاب أعمال شغبٍ في المتجر، أو كأنه انهيار نهائي لمجتمعٍ متحضر دفعةً واحدة، ولكن لم يبدُ أن حارسَيِ الأمن كانا يكترثان لأكل الشوكولاتة غير المشروع. كانا يركزان عليَّ، وكانت أعينهم تفيض بالازدراء. أردتُ أن أصرخ قائلة «أنا لست المجرمة هنا!» ولكن عندما فتحتُ فمي لم يخرج أي صوت. أمسك أحد الحارسَين ذراعي وسحبني نحو باب الخروج. انفتحت الأبواب الأوتوماتيكية على ظلام دامس. دفعني الحارس للخارج، وتعثَّرت واقعةً في المجهول، ولوَّحت بذراعيَّ لحماية نفسي من المخاطر المستترة في جُنْحِ الفراغ المظلم أمامي.

فتحت عينيَّ وحدقت في عتمة غرفة النوم، قلقةً من الخلود مرةً أخرى إلى النوم.

كما أشار الحلم، كنت قلقة، لسبب وجيه.

خذ مثلًا قائمة ويس لهدايا الكريسماس، التي تزيدني إحباطًا يومًا بعد يوم؛ فمنذ بضعة أيام طلب مني إضافة شاحنة ضخمة وصافرة وخزانة. وأنا أضيف هذه العناصر إلى القائمة كنت أُكرِّر كلمة واحدة لنفسي: «الصين، الصين، الصين.»

بدأت منشورات العيد التسويقية في الوصول إلى صندوق البريد. وكما هو متوقَّع، كانت مليئةً بالأغراض الصينية، رغم أن الشركات صاحبة المنشورات التسويقية لا تحب الاعتراف بذلك. اتصلت بشركةٍ صاحبة منشور تسويقي لزينة العطلة للسؤال عن مفرش مائدة ذي رسومات تُعبِّر عن عيد الشكر وفُرُش على شكل ديك رومي من الفينيل لوضع الأواني الساخنة عليها التي يصفها المنشور التسويقي بأنها «مستوردة». أخبرني ممثل

خدمة العملاء أن كليهما مصنوع في الصين، وهي المعلومات التي بعثت في نفسي راحة؛ لأنها إن لم تكن كذلك كنت سأُغرى بشرائها وآخر شيءٍ يحتاجه هذا المنزل هو المزيد من الأشياء التافهة، لا سيما أي كراكيب على شكل ديوك رومية.

في متجرٍ كبير لأدوات الأعمال الحرفية وجدتُ أشجار كريسماس صينية صناعية بطول ست أقدام معلقةً عليها بالفعل كراتُ تزيينٍ صينيةُ الصنع. وكان يوجد بجانب الأشجار تمثال صيني ضخم للغاية من البلاستيك لسانتا كلوز ربما يثير الرعب في نفوس الأطفال. وعددت صفوف زينة الكريسماس الصينية. خمسة عشر صفًّا مزدوجًا بارتفاع اثنتي عشرة قدمًا.

قَوَّيْتُ عزيمتي بتشجيعٍ من مصادر غير متوقَّعة؛ فشعار علامة نايكي التجارية يقول لي: «افعليها وحسب.» ونصحني ملصق لُمتصِّ الصدمات في السيارة قائلًا: «يوم في العمر.» وقلت لنفسي: «اغتنمي الفرصة.» وحاولت ألا أتعرقل في أفكاري حول فترة الأعياد.

من الصعب ألا أَعلَق في هذه الأفكار لأن كل شيء حولي يُخبرني أن الكريسماس يقترب. بدأت صوفي وضعَ قائمتها لسانتا. كانت القائمة تضم خمسة بنود، هي: إنسان آلي مقاتل أزرق اللون، والقطار توماس، ولعبة أدوات المطبخ، وكلب أزرق اللون، وعربة طفل. كانت بنود قائمتها من البنود الصينية مثل قائمة أخيها.

حتى والدتي لم تكن لتسمح لي بنسيان ما ينتظرني في المستقبل.

فقد سألتني ذات ليلة: «ألم تبدئي التسوُّق من أجل شراء لوازم الكريسماس؟ لقد انتهيتُ من التسوق تقريبًا.»

قلت لها: «لقد بدأت القلق بشأنه ولكن هذا أقصى ما فعلتُه حياله.» ثم أضفت: «أنا أعمل على نحوٍ أفضل تحت الضغط.» على الرغم من أن هذا ليس صحيحًا.

اتصلَت امرأة شابة من شركة لخدمات التليفزيون ذات الاشتراك الخاص لتقول إنهم يُقدِّمون خدمة التليفزيون الكابلي مقابل دولارين، ثم يسمحون لنا بالاستمتاع بأربعة أشهر من الخدمة بنصف الثمن. بدا لي عرضها غير حقيقي من فرط روعته، وهو ما تَبَيَّن صحته؛ فعندما وصل موظف التركيب، قال إن مصاريف التركيب ٧٥ دولارًا، وتساءل عن السبب في اعتقادي أنهم ينبغي أن يمنحونا خصمًا لأربعة أشهر من الخدمة. واتضح أن أخباره السيئة كانت في مصلحتنا؛ فخلال حوارنا المرتبك في غرفة المعيشة، ألقيت نظرة سريعة على الشريط الذي يربط الكابل الذي يحمله عند ردفه. كان مكتوبًا عليه «صنع في الصين».

وكانت نتيجة هذا اللقاء هي أننا لم نحصل على خدمة التليفزيون الكابلي وأدركت أيضًا أنني ليست لديَّ قاعدة في المقاطعة تتعلق بالتعامل مع عمال الإصلاحات المنزلية وغيرهم ممن يتعاملون في مهنتهم مع الأدوات الصينية.

جذبَت المقاطعة انتباهَ واحدةٍ من السيدات في مدرسة الأطفال التمهيدية. وأخبرتْني أنها بدأت في التحقُّق من البطاقات التجارية الملصقة على أحذية صوفي وملابسها للتأكُّد من أنها ليست من الصين. وأوضحت أنها لا تعتقد أن قضاء عام دون منتجات صينية أمر ممكن، أو معقول.

وأضافت: «سوف تخطئون، وعندما تفعلون، سوف تعرفون ذلك مني.»

فقلت لها: «لن يحدث ذلك. وبالمناسبة، يمكنها أن تحصل على أشياء مستعملة من بنت عمتها، فهذا لا يخالف القواعد.»

فقالت: «هذا عادل بما فيه الكفاية.»

كانت صوفي تُشبه كلب الراعي الإنجليزي بدرجةٍ متزايدة؛ حيث لم تكن قادرةً على الرؤية عبْر ستارة الشعر التي تُغطي وجهها.

«إن شعرها ينمو إلى الأمام، إنها بحاجةٍ إلى مشبك للشعر.» هكذا أوضحت مصففة الشعر الخاصة بنا، بعد أن قصَّت شعرها؛ الأمر الذي لم يُفِدْ كثيرًا.

ومشابك الشعر تأتي من الصين.

تتمتع صوفي بإدراكٍ جيد يجعلها قادرةً على مساعدة نفسها؛ فبعد عودتنا إلى المنزل من إحدى الحفلات، اكتشفت مشبكًا مُعلَّقًا في يدها. لا بد أنها وجدتْه على الأرض في منزل أصدقائنا. لم أعرف أي فتاة صغيرة فقدته، وأهملت الاتصال لمعرفة ذلك بنحوٍ جعلني أشعر بالإحراج. في الأيام القليلة التالية ربطتُ شعر صوفي بسعادةٍ على شكل نافورة فوق رأسها. واستطاعت أن ترى بوضوحٍ للمرة الأولى منذ أسابيع.

فقدنا مشبك الشعر في غضون أيام. واختفى وجه صوفي مرةً أخرى وراء ساتر من الشعر الأشقر.

بعد حوالي أسبوع من حُلم وول مارت رأيت حُلمًا آخر حول المقاطعة. حلمت هذه المرة بأنَّ راكب الأمواج الشهير ليرد هاميلتون يعطيني دروسًا في ركوب الأمواج في المياه الفضية قبالة سواحل هاواي. ربما يشير الشخص العاقل إلى أن هذا الحلم أيضًا لا علاقة له بالمقاطعة. والحلقة الأضعف من بين الأشخاص الذين غفلوا عن الرابط.

كنت أُدرك العلاقة أكثر من غيري على غرار حُلم وول مارت.

قال كيفن وهو يتناول القهوة في الصباح التالي: «ركوب الأمواج مع ليرد هاميلتون، يا لها من مفاجأة! أستطيع أن أقول إن هذا يُمثِّل تقدمًا بالنسبة إلى حلمك بدونالد رامسفيلد بالتأكيد.»

أخذت نَفَسًا عميقًا لكي يكون لديَّ ما يكفي من الهواء لأُفهِم كيفن الوضع.

ثم قلت: «ألا ترى؟ لم يكن حلمي يتمحور حول ركوب الأمواج مع ليرد هاميلتون، بل كان يتمحور حول مواجهة الاحتمالات المستحيلة؛ فإن ليرد هاميلتون تغلَّب على موجات طولها ٤٠ قدمًا كان ينبغي أن تقتل أي بشري. موجات عملاقة في حجم المباني. موجات كان يمكن أن تكسر رقبته أو تسحقه على الشعاب المرجانية تحت الماء إذا خطا خطوة واحدة خاطئة. هذا هو بيت القصيد. إنه يفعل المستحيل. إنه يتغلب على عمالقةٍ ويعيش ليحكيَ عن ذلك. ومن المفترض أن أتغلب أنا أيضًا على عملاقٍ من خلال النجاح في عبور فترة الأعياد دون شراء أي شيءٍ من الصين.»

بدا كيفن متشككًا.

ثم أضاف: «ربما أنكِ معجبة بليرد هاميلتون. يمكنكِ أن تعترفي بذلك. هذا لا يزعجني.»

هززت رأسي نفيًا وقلت:

«جميع النساء معجبات بليرد هاميلتون. هذا أمر بديهي. لكن هذا الحلم كان شيئًا آخر. كان هذا الحلم «رسالة».»

مطَّ كيفن شفتيه في إشارةٍ إلى عدم إيمانه بالرسائل الكونية وتَصوُّره — حتى هذا الصباح — أنني لم أكن أومن بها أيضًا.

ثم استطرد قائلًا: «حسنًا، إذا كان هذا ما تعتقدينه.»

تجاهلتُ تشككه. ما لا يدركه الحلقة الأضعف هو أن الأمور بدأت تتحسَّن فجأةً فيما يتعلق بالمقاطعة؛ فقد بدأتُ أرى بصيصًا من نورٍ يتخلل الستار المظلم الذي اكتنف نظرتي لموسم الأعياد القادم. جعلني حُلم ليرد هاميلتون أجلس وأنتبه إلى سلسلة الانتصارات الصغيرة التي كنتُ قد أغفلتها، بدءًا من اليوم الذي جلب فيه كيفن للمنزل كيسًا من قطع الفلين البرتغالية لكي يستطيع هو والأطفال صنع صواريخ منزلية الصنع من الزجاجات باستخدام الخل وصودا الخبز. وأطلقوا قطع الفلين حتى ارتفاع ثلاثين قدمًا في الهواء؛ مما أثار حالة عالية التأثير من المرح لا تخلقها عادة سوى الألعاب النارية الصينية.

كانت قطع الفلين البرتغالية مجرد بداية. توقفتُ عن تضييق عينيَّ وأخذت نظارة كيفن الخاصة بالتزلج على الجليد. قررتُ أن أحافظ على كرامتي عندما أكون واقفةً في إشارة مرور ويحدق الناس في وجهي. كنت أتظاهر بأنني لا ألاحظ نظراتهم وأُبقي عينيَّ على الإشارة.

وصلتْ خراطيش الطابعة التي لا تحمل علامة تجارية. كان مكتوبًا على صندوق الورق المقوَّى «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» ولكني خشيت أن الصندوق ربما يكون هو فقط المصنوع محليًّا. ينبغي أن أتصل بالشركة مرةً أخرى لأعرف هذا على نحوٍ مؤكَّد، ولكن بطريقةٍ ما لم أجد وقتًا لذلك. بدلًا من هذا، فعلت ما لا بد أن ليرد هاميلتون يفعله عندما يوجِّه لوح ركوب الأمواج نحو موجةٍ متوحشة يمكن أن تقتله؛ «التفكير بإيجابية». قررتُ أنني سأُصدِّق ما يقوله لي صندوق الورق المقوى: إن محتوياته مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية. سوف أثق في بائع متجر فينيكس الذي قال لي إن الخراطيش مصنوعة في إلينوي، وليست مجمعةً هناك فحسب. سوف أثق في حُسن حظي ولن أنظر إلى الوراء أبدًا. «سأُصدِّق»، وفي الأيام التي لن أستطيع فيها ذلك، على الأقل سوف أواجه ظل الموجة المتوحشة من خلفي بحالةٍ من الإنكار.

بعد أن رفضتْ صوفي مهاراتي في الخياطة في الماضي، طلبتْ على نحوٍ غير متوقَّع أن أصنع لها تنورة قصيرة. اشتريت شريطًا مكسيكيًّا وقماش تول أمريكيًّا من متجر أدوات الأعمال الحرفية، وفي غضون عشر دقائق كنت قد انتهيت من التنورة. وشاهدتها تلفُّ في أنحاء الغرفة، مرتديةً تنورتها فوق سروالٍ من الجينز الأزرق.

حتى المنشورات التسويقية المليئة بالبضائع الصينية لم تَعُدْ تخيفني كما حدث في الأسبوع السابق؛ فوجدت ويس يُقلِّب صفحات منشور تسويقي يحتوي على مئات من أزياء الأطفال لعيد الهالوين معظمها مستورد؛ وهو ما يعني بالنسبة إليَّ أنها مصنوعة في الصين. وتوقَّف عند صفحةٍ تَعرض زي شرطي مكونًا من عشر قطع يأتي مع دفتر مخالفات، وأصفاد، وصافرة، وغيرها من ملحقات قوات تنفيذ القانون. اسْتَبَقْتُ ويس قبل أن يُتاح له وقت لبدء التوسُّل إليَّ قائلة:

«هذا العام سيكون عيد الهالوين مميزًا؛ فهذا العام سوف أخيط زيك بنفسي. أعتقد أنك سوف تبدو وسيمًا في رداءٍ كعباءة دون كُمَّين، مثل مصاص دماء أو ربما أمير.»

نظر ويس إليَّ وفتح فمه، ولكني غادرت الغرفة بسرعةٍ قبل أن يتمكَّن من الاعتراض.

بالحديث عن الاعتراضات، لقد توصلت أيضًا إلى استراتيجيةٍ للوقاية من المزاعم المستقبلية المحتمَلة من ويس بأن الكريسماس فاشل بسبب المقاطعة، وهي احتمالية بارزة نظرًا لوفرة البنود الصينية في قائمته لسانتا. استراتيجيتي بائسة، وأعترف بهذا، ولكني أظن أنها ستنجح. وعدتُ ويس وصوفي أن بإمكانهما اختيار ثلاث لُعَب في أول يوم من العام الجديد، عندما تكون مقاطعة الصين قد انتهت رسميًّا.

قلت له: «ثلاثة أشياء. أيًّا كان ما تريده. أعدك أنني لن أنظر حتى في البطاقات التجارية للتحقُّق من مكان صناعتها.»

فسألني: «ثلاث لُعَب؟»

«ثلاث لُعَب.»

أراد أن يحصل مني على تأكيدٍ على هذا الشأن.

فسألني: «أي ثلاث لُعَب؟»

بدأت أفقد أعصابي؛ فقلت:

«لا أشياء باهظة الثمن.»

فأراد أن يعرف: «ألعاب صينية؟»

فقلت مؤكِّدة: «ألعاب صينية، ألعاب مكسيكية، ألعاب مصرية، أي نوع من الألعاب. ثلاث ألعاب.»

وردت أنباء سيئة عن وول مارت، وهي أخبار جيدة بالنسبة إليَّ. قرأت أنه يواجه دعوى قضائية بشأن انتهاكات مزعومة لحقوق العمال في مصانع مورِّديه في الخارج. وكما قلت من قبل، عندما يتعلق الأمر بزوال وول مارت، سيكون ذلك أشبه بالموت البطيء. إنها فقط مسألة وقت.

في ليلة جمعة في منتصف سبتمبر استعنَّا بجليسة أطفال للعناية بالأطفال. لم نخرج لتناول العشاء ومشاهدة فيلم؛ إنما توجَّهنا إلى الطابق العلوي، إلى العِلِّيَّة، لإصلاح سطح المنزل.

سمعنا دويًّا غامضًا لاصطدامٍ بالمنزل خلال الإعصار ولكننا لم نعرف ما تَسبَّب به حتى ذلك اليوم. اتضح أن العاصفة أزالت غطاءً معدنيًّا كان يمتدُّ على طول الجزء العلوي من المنزل؛ مما ترك فجوة بعرض ثلاث بوصات وبطول حوالي خمس عشرة قدمًا في أعلى

نقطةٍ من السطح. كان الجو جافًّا في معظم الأيام التي تلت العاصفة؛ لذا لم ندرك وجود مشكلةٍ حتى هذا اليوم، أثناء هطول الأمطار. عندما دخلتُ غرفة نوم ويس اكتشفتُ وجود مياه متسربة عبر مصباح. اتصلنا بعدد من بَنَّائي الأسقف، لكنهم كانوا مشغولين في مشاريع أكبر؛ لذلك كان علينا ترقيع الجزء المتضرِّر إلى أن يتمكنوا من القدوم إلى هنا خلال أسبوع.

كنت أشعر باضطرابٍ وقلقٍ في معدتي وأنا أتبع كيفن على السلم المثبَّت في خزانة ملابس صوفي إلى العِلِّيَّة؛ وهي منطقة مظلمة مهجورة رطبة مليئة بالأسلاك الكهربائية ومادة عازلة وردية متعفنة. كان كلٌّ منَّا مضطرًّا للزحف على يديه وركبتيه لأن المساحة ضيقة جدًّا. وكانت يداي تضغطان على الأسلاك التي تتقاطع مع المادة العازلة. كنت قلقة من أن أُصعَق بالكهرباء. وحاولت عدم التفكير في الجرذان.

في مرحلةٍ ما، كنت مضطرةً للعبور بعد كيفن من خلال فتحةٍ ضيقة في قطعةٍ من الخشب الرقائقي (الأبلكاش) للوصول إلى جزء السقف الذي توجد به الفجوة. للحظة، لم أكن متأكدةً من قدرتي على فعل ذلك، لكنني لم أشأ المخاطرة باحتمالية أن يُصعق كيفن بالكهرباء هنا، وحيدًا في الحر والظلام؛ لذلك حشرت نفسي عبر الفتحة وحاولت عدم لمس أي شيءٍ قد يقتلني أو يلدغني.

في يومٍ سابق كنت قد أقنعت نفسي بأنني لن أواصل التفكير في المقاطعة عند حدوث حالة وفاة في العائلة، ولكن خلال رحلتنا إلى العِلِّيَّة أدركت أن الحال ربما لا تكون كذلك. تضمَّنَت المرحلة الأولى من مشاركتي في إصلاح السقف قَطع أجزاءٍ من غطاء بلاستيكي من لفافة كبيرةٍ ووضع الأجزاء على الفجوة في السقف بينما يثبتها كيفن في مكانها باستخدام مسدس تثبيت دبابيس الخشب. وخلال فترة الاستراحة، بينما كان كيفن يتحرَّك في المكان — شاتمًا ومشككًا في فعالية تقنيتنا لمقاومة تسرُّب المطر — وجَّهت مصباحي اليدوي إلى الحقيبة التي جاء فيها الغطاء البلاستيكي. تجوَّلت بالضوء إلى أن وجد الشعاع الأصفر ما أبحث عنه. كان مكتوبًا على حقيبة التغليف: «منتج عالي الجودة من إنتاج وورب بروس، شيكاجو، إلينوي.» وكان يوجد بجوارها علم أمريكي مع عبارة «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» بجانبه. نما لقلبي جناحان وطار من الفرحة.

إذن، مَن الذي أخدعه؟ إذا ما كنت أواصل التفكير في المقاطعة وسط المخاطرة بالتعرُّض للصعق بالكهرباء وهجوم من الجرذان في عِلِّيَّةٍ قذرة في درجة حرارة تبلغ

١٠٠ درجة فهرنهايت، فإنه ربما يكون من المعقول أن أستنتج أنه ما من ظروف يمكن أن تجعلني أتغاضى عن المقاطعة.

قلت لكيفن: «دروس بيانو، مثل العام الماضي.»

كان كيفن يريد أن يعرف ما أريده في الكريسماس، وهو الأمر المنذِر بالخطر؛ لأن كيفن شخصٌ مسترخٍ لا يبدأ عادةً التفكير في الكريسماس حتى العاشر من ديسمبر، وذلك يكون مبكرًا جدًّا بالنسبة إليه؛ فإذا كان يفكر في الكريسماس في سبتمبر، فلا بد أنه يبدو يائسًا.

فقال: «ولكنكِ لم تشتركي فعليًّا قط في الدروس؛ لذلك فإنني لم أُقدِّم لك أي شيءٍ في العام الماضي.»

فأكَّدتُ له قائلة: «أعلم، ولكنها لا تزال هدية جيدة للكريسماس؛ فهي لم تكلفنا شيئًا، وأقنَعَت العديد من صديقاتي أن لديك روح شاعر. كُنَّ يرَيْنَ أن هذه الهدية رومانسية. أعتقد أنك ربما أوقعت بعض الأزواج الآخرين في ورطةٍ لأنهم لم يستطيعوا تقديم أي شيءٍ تقريبًا بهذه الجودة.»

فتساءل: «هل لديكِ صديقات يعتقدن أن من الرومانسية أنني لم أُقدِّم لك أي شيءٍ في الكريسماس؟»

فقلت: «إنهن لا يعرفن أنني لم أتلقَّ أي دروسٍ قط. ما يعرفنه هو أنك جئت بفكرة دروس البيانو بنفسك؛ وهو ما يمثل منطقة مكتشفة حديثًا بالنسبة إلى الأزواج وهدايا الكريسماس، بقدر ما أعرف.»

فتنهَّد وقال:

«حسنًا، ولكن هذه المرة سوف أجد لك مُعلمًا وأسجل اسمك حتى تحضري الدروس فعليًّا.»

فردَدْتُ مبتسمة:

«كما تشاء.»

سعدتُ بنفسي؛ فمرةً أخرى راوغت قيود المقاطعة ووفَّرت مبلغًا كبيرًا من المال في هذه العملية؛ إذ إنه لا توجد احتمالية أن يجد كيفن أو أنا وقتًا للبحث عن معلم بيانو، فقلت لنفسي: «أحسنتِ.»

في إحدى الليالي، دخل ويس الغرفة حاملًا منشورَ ألعابٍ تسويقيًّا به صفحات مطوية الزوايا، وفتحه على صفحةٍ ما وأشار إلى صورة لشاحنة تعمل بجهاز تحكُّم عن بُعد تُسمَّى «مورفيبيان». وادَّعى الوصف المكتوب أنها تستطيع «السير على الأراضي الوعرة والجري عبر المياه.»

ثم سألني ويس: «هل يمكنني الحصول على هذه الشاحنة في الكريسماس؟»

أعطيته جوابًا مراوغًا؛ وهو ما يعني أنني لم أُعطِه أي جوابٍ على الإطلاق؛ إذ قلت له: «أضفها لقائمتك لسانتا. وسننظر ماذا يرى.»

الفصل العاشر

الانهيار

سألتُ كيفن: «ما سراويل عُمال النظافة؟»

حدَّق في وجهي لحظة طويلة قبل أن يقول ما هو بديهي.

«السراويل التي تُشبه ما يرتديه عُمال النظافة. سراويل مستوية من الأمام، وعرض الساقين ثابت من أعلى لأسفل، وبها مكان لتعليق المفاتيح.»

كانت الساعة السابعة إلا الثلث صباحًا وأشار كيفن للتو إلى أنه سيرتدي أي سراويل أشتريها له ما دامت تُشبه سراويل عُمال النظافة. نظرت لأسفل لأتصفَّح صفحة منشور جيه كرو التسويقي المفتوح في حِجري. لم يكن يذكر أي عُمال نظافة أو أعضاء في أي مهنة أخرى.

غامرت بسؤاله: «هل تعني سراويل من قماش تشينو؟» ثم رفعت المنشور التسويقي بحيث يستطيع كيفن رؤية صورة السراويل القطنية، فتنهد ليُعلِمني أن أسئلتي تُثير ضجره، ثم مال إلى الأمام من مكانه على الأريكة بين الطفلين ثم حدَّق في الصفحة عبر الظلام شبه الدامس.

ثم قال: «نعم، تلك هي سراويل عُمال النظافة. ثم تذمَّر قائلًا: سراويل تشينو! مَن سمع عن تلك السراويل؟»

ثم وجَّه انتباهه إلى شاشة التليفزيون المضيئة مرةً أخرى.

كان هناك تطوُّر مفاجئ في زواجنا؛ فقد أعلن كيفن، في وجود عددٍ من الشهود، أنه على استعداد لارتداء أي ملابس أشتريها له لو كان ذلك يعني أني سأتوقف عن تعليقاتي الساخرة على خزانة ملابسه، التي تتكوَّن في معظمها من السراويل الكاكية المهترئة والقمصان دون الأكمام المغطاة بالشعارات، التي حصل عليها مجانًا مقابل المشاركة في سباقات الجري المحلية لمسافة عشرة كيلومترات. هذه هي مجموعة الملابس المعتادة

خلال الوقت الذي يعمل فيه في التدريس، عندما يكون شديد الاعتناء نسبيًّا بمظهره. وفي عطلات نهاية الأسبوع يتخلى عن رسميته تمامًا؛ حيث يرتدي سراويل وقمصانًا بلا أكمام مليئة بثقوب كبيرة كلٌّ منها بحجم كلب صغير، وربما فاق حجمها أحيانًا حجم الكلاب الصغيرة.

كانت أخت زوجي بين الحضور عندما أعلن كيفن أنه مستعد للخضوع لتغيير تام في طراز ملابسه إذا ما كنتُ مستعدةً لتحدي قيادة هذا التغيير. وبينما لم يكن كيفن ينظر إليها، منحتْني إشارة تشجيع من الناحية الأخرى من الغرفة. وفي بعض الأحيان، عندما لم يكن لدينا ما نتحدَّث عنه، كنا نتبادل انتقادات حزينة حيال تدنِّي ذوق كيفن في انتقاء الملابس.

قالت لي وهي تهز رأسها: «يا لها من خسارة. ينبغي عليكِ حقًّا أن تفعلي شيئًا حيال ذلك.»

ربما تكون مُحِقَّة، ولكن مشاعري مشوَّشة حيال التدخُّل في خزانة الملابس، فجزء مني معجب بعقلية كيفن غير المكترثة بمظهره. وجهل كيفن في ارتداء الملابس عنصر أصيل من مكونات شخصيته؛ فهو ليس مزهوًّا بنفسه على الإطلاق؛ فلم أرَه يومًا يسترقُ نظرات نحو انعكاس صورته في نافذة متجر، ومجموعة أدوات التجميل خاصته تتكوَّن من مشط قديم وشفرة حلاقة. إذا كان يوجد شخص يختال بمظهر كيفن، فإنه أنا. وهذا ليس تردُّدي الوحيد إزاء تغيير كيفن؛ أنا أيضًا لا أريد أن أخاطر بوجود مزاعم حول لعب دور المرأة المتسلطة المستبدة لزوج منقاد أو — لا سمح الله — أن ألعب دور أمه. ثم كذلك، كم من مرة تسنح الفرصة لزوجة أن تلعب نسخة البالغين من لعبة تلبيس الدمية مع زوجها، بموافقته؟

وضَع كيفن شرطًا واحدًا لهذه الصفقة: «فقط لا تجعليني أذهب للتسوق معك.»

ظَلِلْتُ أماطل لعدة أيام غير متأكدة هل يعني حقًّا ما قاله، ولكن عندما استيقظت ذلك الصباح كنت مستعدةً لقَبول مهمتي. ما زال الظلام سائدًا عندما بدأت تصفُّح المنشور التسويقي لجيه كرو، ورفعت بعض الصفحات ليراها كيفن. حصلت على الموافقة على السراويل الجديدة في حوالي السادسة وإحدى وأربعين دقيقة، وبعد دقائق كنت أجلس إلى طاولة المطبخ وأطلب رقم خدمة العملاء. وصلت إلى شابٍّ بدا مندهشًا ولكنه كان ودودًا عندما قلت له إنني أريد أن أعرف بلد منشأ سراويل تشينو وحزام أنيق مصنوع من شريط ملوَّن، اتفقت مع كيفن على أنه «سوف يبدو جيدًا على السروالين.» أبقاني الشاب منتظرةً على الخط، أستمع إلى موسيقى راقصة لمدة سبع دقائق.

سأل الشاب عندما عاد: «هل ما زلتِ على الخط؟»

أخبرني أن السراويل تُصنع في هونج كونج والحزام من الصين. قلت له إنني أرغب في المُضي قدمًا في شراء السراويل ولكنني سأتخلى عن الحزام الصيني. شعرت أنه متردد.

فتساءل مستفسرًا بتردُّد: «هل لي أن أسأل لماذا لا تريدين الحزام؟ كنت أتساءل أنا ومشرفي عن سبب رغبتك في معرفة بلاد منشأ هذه الأشياء؛ فالناس عادةً لا يسألون عن ذلك.»

أخبرته أنني أحاول أن أعيش سنة كاملة دون شراء أي شيءٍ مصنوع في الصين، لأرى مدى صعوبة القيام بذلك.

وأضفت: «إنها تجربة.»

فقال ضاحكًا: «هذه فكرة رائعة.»

وأخبرني أن كل الأحذية في المنشور التسويقي إيطالية والأشياء المصنوعة من الكشمير قادمة من منغوليا لكنه لا يعرف أصل الأشياء الأخرى. قلت له إنني ربما سأتصل بشركة جيه كرو في يناير لشراء الحزام الصيني، وهذه العبارة مغازلة صريحة؛ فأنا لا أستطيع مقاومة المعجبين بالمقاطعة.

فقال لي: «آمل أن أُجيب أنا على الهاتف عندما تتصلين حينها.»

أنهينا المكالمة ودلفت مرةً أخرى إلى غرفة المعيشة وألقيت جسدي على الأريكة، ثم بدأت في التفكير في هونج كونج، وهل هي في الواقع جزء من الصين، وهل ربما ينبغي أن أنهض وأتوجَّه عائدةً إلى المطبخ، وأتصل مرةً أخرى بصديقي الجديد في جيه كرو لإلغاء طلبي لسروالَيْ عُمال النظافة اللذين من المحتمل أن يكونا صينيين. أقلقني هذا الاحتمال لبضع دقائق، مفكرةً في كيفن وخزانته المليئة بالسراويل المثقوبة. ثم تذكرت مَن يستطيع مساعدتي في حل هذه الورطة: وكالة المخابرات المركزية.

قبل شهور، عندما سألت أخي الأصغر — الذي عاش سنوات عديدة في آسيا — هل هونج كونج الآن جزءٌ من الصين أم لا، قال لي إنه يعتقد أنها «منطقة إدارية خاصة تابعة للصين» نوعًا ما. شكرته، على الرغم من أن كلماته بدت وكأنها هراء بالنسبة إليَّ؛ فما معنى «منطقة إدارية خاصة»؟ مصطلح لا معنى له في رأيي. ألم يستطع أخي — ذو العقل الكبير والأفكار الخبيرة بالحياة وشئونها — أن يأتيَ بشرح أفضل لمكانة هونج كونج في العالم؟

لا، لم يستطع. وعلى ما يبدو، لم تستطع وكالة المخابرات المركزية أيضًا؛ فعندما توجَّهت لكتاب «حقائق العالم» الذي تُصدره وكالة المخابرات المركزية على شبكة الإنترنت

للقراءة عن هونج كونج، وصفها بأنها «منطقة إدارية خاصة تابعة للصين.» والأسوأ من ذلك أن اسمها الرسمي، وفقًا لوكالة المخابرات المركزية، هو «منطقة هونج كونج الإدارية الخاصة»، والرئيس جين تاو، الرئيس الصيني، هو رئيسها، واليوم الأول من يوليو هو يوم عطلة وطنية يحتفل بتأسيس منطقة هونج كونج الإدارية الخاصة. هذا تطوُّر مثير للقلق، ليس فقط لأنني لا يمكن أن أتصوَّر اسم مكان أقل شاعريةً من «منطقة هونج كونج الإدارية الخاصة»، ولكن أيضًا لأنني واثقة تمامًا من أنني اشتريت شيئين على الأقل من هونج كونج خلال الأشهر الماضية. كان ينبغي عليَّ مراجعة الجغرافيا السياسية الآسيوية قبل أشهر، عندما كانت المقاطعة في مهدها.

بدت أخطائي التي تشمل هونج كونج سيئة بما فيه الكفاية، ولكني بعد ذلك تذكَّرت أنني اشتريت أيضًا لصوفي ثوبًا من ماكاو، المنطقة البرتغالية القديمة في هونج كونج؛ لذا بحثت عن ماكاو في كتاب «حقائق العالم» الذي تصدره وكالة المخابرات المركزية. اسمها الرسمي؟ «منطقة ماكاو الإدارية الخاصة» التابعة للصين.

ما تأثير هذا على سروالَيْ كيفن الجديدين؟ هل ينبغي أن أعيدهما؟ أم يمكنني الاحتفاظ بهما ثم أتجنب هونج كونج وماكاو لبقية السنة؟ درست خياراتي بدقة، ثم قرَّرت أن المقاطعة عمل لا يزال يتطور، مشوب بالعيوب لا محالة، مثل الكثير من أمور الحياة.

وهكذا احتفظ كيفن بسروالَيْه الجديدين.

اصطحبنا الأطفال لتناول الإفطار في مطعمٍ صغير شهير وقذر إلى حدٍّ مذهل. جلبَت النادلة لِويس فوطة مائدة وعلبة تحتوي أربعة أقلام تلوين صينية. وظَلِلْتُ أعبث بأدوات المائدة الفضية أثناء الانتظار لإبقاء عينيَّ بعيدتين عن الجدران، التي كانت مبقعة بقِطَع بيض قديمة. وعلى الجانب السفلي من مقبض سكيني قرأت الحروف «صنع في البرازيل». ولم أجد أي شيء مطبوع على شوكتي أو قاع فنجاني وصحنه، ثم أحضرَت النادلة طعامنا ونسيتُ الصين لبرهة من الوقت. وعندما عدنا إلى المنزل قررت القيام بشيء كان يدور بخلدي خلال الأيام القليلة الماضية: تحديد ما إذا كانت هانا ويجنز صينية أم لا.

هانا ويجنز هي دمية موجودة في الصفحة الثانية من منشور تسويقي للألعاب وصل في البريد هذا الأسبوع. وتأتي الدُّمية مع مجموعةٍ من أربع باروكات يمكن التبديل بينها مصنوعة من خيوط تُعلَّق على رأسها بشريط فيلكرو لاصق. ويقول المنشور التسويقي: «مثل معظم الفتيات، هي تحب تغيير شعرها عندما تُغير ملابسها.» ترتدي هانا ويجنز

في الصورة جوربًا زاهيًا مخططًا بالبرتقالي والأحمر. صوفي أيضًا تملك جوربًا مخططًا بالبرتقالي والأحمر. كنت مغرمةً بها. تمثل هانا ويجنز هدية مثالية لصوفي في الكريسماس.

والسؤال هو هل هانا ويجنز — على غرار كل دميةٍ أخرى تقريبًا تُباع في أمريكا — من الصين أم لا. جلستُ على الأريكة ممسكةً المنشور التسويقي، وأخذت نَفَسًا عميقًا، وطلبت رقم الهاتف. ردَّ بول على الهاتف فورًا، فأعطيته رقم العنصر، ثم سألته عن بلد المنشأ. ساد صمت مؤقت دام عشر ثوانٍ، كانت هادئة تمامًا حتى إنني لم أكن متأكدة هل بول ما زال يحدثني أم لا. وهو بعيد كررت في داخلي عبارة: «رجاءً قل فيتنام، رجاءً قل فيتنام.»

قال بول: «الصين.» فكتمت الأنين في نفسي.

فقلت: «شكرًا، هذا كل ما أحتاجه.» وأنهيت المكالمة على نحوٍ مفاجئ؛ كنت محبطة لدرجة منعتني من ملاطفة بول.

تجهمت لبضع ساعات ثم فعلت ما أفعله في الغالب عندما أشعر بالحزن. اتصلت هاتفيًّا بأمي، وقدَّمت لها موجزًا لآخر أخبار الأسرة بطريقةٍ مرحة، ثم انسللت عرَضًا إلى موضوع دمية هانا ويجنز. وتمكنت من ذكر اسمَيِ المنشور التسويقي والدمية مرتين. كانت تعرفني حق المعرفة.

فسألت: «أي منشور دعائي هو؟»

أخبرتها باسمه ثم أضفت: «لا أقترح عليكِ شراء الدمية لها بالطبع؛ فإنني أخبرك فحسب بما حدث، فقط لكي تعرفي ما يجري هنا.»

أنهيت المكالمة وقضيت بضع دقائق وأنا أشعر بأنني كاذبة آثمة. وبعد برهة قصيرة جاءني ويس عند الأريكة وطلب مني طلبًا غيَّر مزاجي من الشعور بالذنب إلى الشعور بالذعر. أرادني أن أضيف شيئًا آخر لقائمته المخصصة لسانتا.

قال لي: «أنياب مصاص دماء، ولكن ينبغي أن تكون حادة للغاية.» أنياب مصاص دماء بلاستيكية صينية حادة، على ما أعتقد. نعم.

أرادت صديقة لي أن تعرف خططنا للعام الجديد.

فسألتْني: «هل ستعودين للتعامل مع المنتجات الصينية مرة أخرى؟»

ثم روت لي أنها حاولت استعادة صديقها القديم من الكلية مرةً أخرى، ولكنهما لم يبقيا معًا طويلًا بعد عودة أحدهما للآخر.

وأضافت: «بالطبع، لم نكن قط في علاقة عميقة مثلك أنت والصين؛ ففي حالتنا، لم يكن مكتوبًا للعلاقة أن تدوم.»

يجب أن أعترف أنني لم أفكر في الأمر كثيرًا، فطالما اعتبرتُ مقاطعة الصين انفصالًا تجريبيًّا، رحلةً تدوم لعامٍ كامل للحصول على فرصةٍ لالتقاط الأنفاس قليلًا قبل التصالح الحتمي القائم على الراحة لا الحب. قرأت عن أشخاصٍ خرجوا عن قواعد المجتمع وعاشوا في مجمعاتٍ سكنية في ولاية إيداهو دون كهرباء أو مياه جارية، ولكن الحقيقة هي أنني لست متأكدةً ما إذا كنت أستطيع أن أتخلى للأبد عن شيءٍ أساسي في الحياة الحديثة مثل البضائع الصينية. لا أستطيع أن أتخيل نفسي أعيش بهذه الطريقة على المدى الطويل. لست متأكدةً من أنني أستطيع أن أرى نفسي أعيش بهذه الطريقة مدة الشهرين والنصف التالية. كانت مدة الأشهر التسعة والنصف الأولى من العام مثيرةً بما فيه الكفاية، لكن في هذه اللحظة بدا الكريسماس دون الهدايا الصينية تحت شجرة عيد الميلاد شيئًا بالغ الكآبة. شعرت بالإرهاق.

علاوةً على ذلك، كما اكتشفت هذا الأسبوع، توجد أيضًا مسألة تأثير مقاطعة الصين على سعادة صبيٍّ صغير معين، التي تعتمد أحيانًا على حيازة شيءٍ أرجواني بلاستيكي صيني. إنه درس تعلمتُه خلال رحلة عائلية إلى متجر تارجت لشراء زينة عيد الهالوين. كانت الرحلة من اقتراح كيفن. وكان ينبغي أن أستشعر الخطر منذ البداية؛ فرغم كل شيء، ما من أحدٍ أعلم منِّي بالأماكن التي تُصنِّع الزينة لكل عيدٍ أمريكي. ولكنه كان يوم سبت خريفيًّا منعشًا مع سماءٍ زرقاءَ شاسعةٍ تبثُّ فيَّ الشعور بحُسن الحظ، واعتقدت أن هذا الشعور بحُسن الحظ ربما يمتدُّ إلى قسم زينة الأعياد في تارجت.

لم يحدث هذا.

كان كل شيءٍ صينيًّا. كل جزءٍ منه، وكان ينبغي أن أعرف ذلك. شبكات العنكبوت الرقيقة المصنوعة من البوليستر، واليد الزائفة ذات الأصابع المتحركة، والمصابيح الكهربائية المُشكَّلة على هيئة يقطينة مرعبة، والصخرة المضيئة المكتوبة عليها الرسالة المُهدِّدَة «عُدْ أدراجك!»، كل ذلك كان محظورًا. لمعتْ عينا ويس بترقُّب ونحن نتنقل عبْر الممرات، متفحصين للملصقات «صنع في الصين»، آملين في الحصول على ما نبحث عنه. راح بريق عينيه يتلاشى ونحن نمرُّ بشيءٍ صيني تلو الآخر. وبعد عشرين دقيقةً من دخولنا المتجر، وعندما أصبح من الواضح أن الصين تُهيمِن على منتجات عيد الهالوين، وكانت عربة التسوق الخاصة بنا لا تزال فارغة، تجمعنا في دائرةٍ حزينة في نهاية الممر، وحينها تخلت

شجاعة ويس عنه، وتدلَّت كتفاه كما لو أنهما كانتا تحملان العالم كله. ثم نظر إليَّ وبدأ يبكي.

فقال منتحبًا: «ألا يمكن أن يكون هذا وقتًا استثنائيًّا لأنه عيد الهالوين فنتمكن من شراء أشياء من الصين؟»

أمسَك بذراعي، وتدلى بجسده. طفل بائس يزن أربعين رطلًا يشدُّ معصمي. كان طفلي البكر، أميري ذو الشعر المجعد، في أمسِّ الحاجة إلى السعادة التي تأتي من امتلاك شيءٍ جديد متوهِّج بلاستيكي. لاحظت أنه لم يوجِّه نظرةً واحدة إلى الحلقة الأضعف — كيفن — الذي يقف على بُعْد بضع أقدام حاملًا الرضيعة ومحدقًا فيَّ. عرف ويس بالغريزة أنني مصدر عذابه، حارسة المقاطعة، وعدوة الأشياء الصينية اللذيذة المحظورة، القوة التي يجب أن يكسرها بصرخاته البائسة. تسارعتْ دقات قلبي، وكان معصمي يؤلمني، وبكاء ويس يقتلني.

لم أستطع للحظةٍ أن أُفكِّر في شيءٍ أقوله، ولكن بعد ذلك، وبِحسٍّ تشاؤميٍّ سريع خليق بأفضل محتال في فيجاس، تذكرت الكلمات التي أنقذتْني في مناسباتٍ عديدة خلال العام الماضي.

فقلت لِويس بصوتٍ مرتعش غير مُقنِع — حتى بالنسبة إليَّ — ولكني كنت آمل ألا يلاحظ ويس: «في المرة القادمة؛ في عيد الهالوين القادم يمكننا الحصول على أي شيءٍ تريده.»

لكن ويس ضاق ذرعًا بانتظار المرة القادمة، فاكتفى من السعادة المؤجَّلة والألعاب الصينية الممنوعة. كان يأسه يزداد أكثر في هذه اللحظة، فبدأ يجذب ذراعي بعنف.

فقال في توسل: «دعيني أُرِكِ الشيء الوحيد الذي أريده. إنه شيء واحد صغير فحسب.»

تركته يجرُّني معه بينما كان عقلي يعمل ويحاول التوصُّل إلى طريقةٍ لتغيير وجهة هذه السفينة قبل أن تتحطم على الصخور وتغرق للقاع. اجتزنا أكوامًا عالية من الرءوس البلاستيكية وأزياء الأبطال الخارقين الوامضة، التي لا ريب في أنها جميعًا صينية. قادني ويس عبر منعطفٍ حتى طاولةٍ تَعرِض ثمار يقطين كهربائية من مختلِف الأحجام مرصوصة في صفوف برتقالية وأرجوانية بالتناوب. وترك ذراعي ورفع يقطينة برتقالية صغيرة تجاهي. كانت مغطاة بخرز برتقالي وأسود صغير وعليها ابتسامة شيطانية بأسنان ثلاثية.

وقال: «هذه هي ما أريده. أترَيْن؟ إنها صغيرة!»

نظر إليَّ ويس بعينَين واسعتَين لا يزال يلمع فيهما بصيصٌ من الأمل، وكان يضم اليقطينة البرتقالية إلى صدره بقبضة قوية؛ هنا بدأ شيء ينهار في داخلي، وبسرعة.

سألني بصوتٍ يكاد يكون هامسًا: «ألا يمكننا كسر القواعد هذه المرة؟» وأشار إلى صفوف اليقطين الكهربائي الأكبر وأضاف: «لا أريد واحدة كبيرة، فقط هذه اليقطينة الصغيرة.»

ثم كرَّر قائلًا: «إنها صغيرة.» تحسُّبًا لئلا أكون قد سمعتُه في المرة الأولى.

تجمَّدت في مكاني ووقفت صامتة بينما انهار هذا الشيء داخلي بسرعةٍ ساقطًا نحو الأعماق. هل يمكن أن تكون مقاطعة الصين قاسية إلى هذا الحد على ويس؟ قلت لنفسي لا، مستحيل. كنت سأتراجع عن قراري في يناير لو أني اعتقدت أنه كان يعاني حقًّا. وبطبيعة الحال، كنت أعلم أنه لم يعانِ ولو قليلًا بمعنى المعاناة الحقيقية الموحية بالفقر المدقع، لكنه أيضًا لم يعانِ بالمقارنة مع زملائه في المدرسة التمهيدية من الطبقة الوسطى المُرَغَّدة بوجهٍ عام في أمريكا. ربما سمع عبارات «لا»، و«في المرة القادمة»، و«ماذا عن مجموعة ليجو؟» أكثر مما كان يودُّ سماعها، ولكن هذا لا يمتُّ للمعاناة بِصِلة. وهذا أمر أنا متيقنة منه أيضًا. بالتأكيد شبه متيقنة منه.

بالتأكيد، كان يضع نُصْب عينَيه جائزة السيف المضيء الصيني في مكانٍ ما في مستقبله، ولكنه لم يكن قلقًا من التخلي عن لُعَب صينية أخرى، على الأقل قبل هذا الحين؛ فهو لم يكن مستاءً ولا ضَجِرًا؛ فقد كان يعيش أيامه كما يعيشها دائمًا، بابتسامةٍ وفيضٍ لا يتوقَّف من النِّكات التي لا يفهمها سوى مَن هم في الرابعة من العمر. كان يرضى بلُعَب ليجو وأقلام التلوين الإيطالية، ولم يكن الأمر كما لو أنه لا تأتيه ألعاب جديدة على الإطلاق؛ فمنذ وقتٍ ليس ببعيدٍ وجدت له سيف فقاعات بلاستيكيًّا مصنوعًا في تايوان يُخرج فقاعاتٍ من الصابون بحجم ست أقدام. كانت الفقاعات الضخمة تطير فوق العشب وتُحوِّل كلبنا ريك إلى كرة طائرة من الفراء تُقرقع بأسنانها وتُزمجر وتُدمر الفقاعات. إذا لم يكن هذا ترفيهًا، فلا أعرف ماذا يكون.

وكان لدى ويس شيء آخر تحت تصرُّفه طوال الوقت ليساعده على تجاوز الأوقات العجاف في مجال الألعاب: طاقة والده غير المحدودة، وشخصيته الساحرة الخفيفة المُسلية للأطفال؛ إذ يُقدِّم لهم تلك النوعية من التسلية التي تقع في المنتصف ما بين التسلية التي تُقدِّمها الجِراء وتلك التي تُقدِّمها القِرَدة حين ترتدي السراويل. فلا يكاد يمرُّ يوم دون

أن يُمرجِح فيه كيفن الأطفال في الهواء، أو يقلد الغوريلا، أو يساعدهم على بناء قِلاع شاهقة في غرفة المعيشة، وهي تُهدد سلامة الأطفال أنفسهم وكذا سلامة المصباح القائم إلى جانب الأريكة، ويجبرني على الجلوس على زنبركات الأريكة دون وسادات وأنا أشاهد نشرات الأخبار المسائية. لست من نوعية الأمهات اللاتي يفتقرن إلى حِسِّ الفكاهة واللاتي يبحثن عن أي فُرصٍ لهدم لحظات المُتعة؛ فأنا أسمح للأطفال بركوب الدراجات الصغيرة (الاسكوتر) في المنزل، ومطاردة بعضهم بعضًا بسرعة شديدة حول طاولة المطبخ، وغرس أصابعهم المغطاة باللُّعاب في عجينة الكعك. وذات مرةٍ نصبنا خيمة مناطق مفتوحة في غرفة المعيشة، وظلَّت في مكانها لعدة أسابيع. كيف يمكن لِلُعب الأطفال الصينية أن تنافس ذلك؟

لذا، قلت لنفسي لا، لم يعانِ ويس بسبب المقاطعة. ولو لحظة واحدة؛ فهذا غير وارد، وسخيف.

مع ذلك، عندما نظرت إلى العينَين اللتين تحدقان فيَّ وأنا واقفة في قسم زينة الهالوين في تارجت، لم أستطع أن أنكر أن هاتين عينان تُعانيان. لا يوجد أي فرصة للمراوغة. كنت أنظر إلى عينين زرقاوين واسعتين تعانيان وتتوسلان استجداءً للشفقة وتوسلًا للحصول على يقطينة برتقالية صغيرة. هذا طلب بسيط، وهو ما كانت هاتان العينان اللتان تعانيان تقوله لي. وفجأة، شعرت بسخونةٍ في رأسي، وبجفافٍ في فمي. ربما كان ويس يعاني طوال الوقت — هذا ما دار بخلدي — وربما كنت في حالة إنكارٍ لهذا وحسب.

وفجأة، كنت على استعدادٍ للاستسلام، للتخلي عن المقاطعة وإلقاء اليقطينة البرتقالية في عربة التسوق، وربما حتى إضافة يد زائفة وبعض شبكات العنكبوت المصنوعة من البوليستر؛ فبعد تسعة أشهر ونصف من التخلص من طلبات السيوف المضيئة والشاحنات الوحشية بدهاء، لم أستطع في هذه اللحظة أن أفكر في شيءٍ واحد أقوله، باستثناء وداعًا للمقاطعة ونعم لابني الحبيب صاحب العينين الزرقاوين الواسعتين اللتين تعانيان. ولكن عندما فتحت فمي لأتكلم، لم أقل نعم، بل قلت شيئًا مختلفًا تمامًا.

قلت لويس: «نحن على وشك الانتهاء من تجرِبة مقاطعة الصين. عليك فحسب الصمود لفترةٍ أطول قليلًا، هل توافق؟»

ثم أضفت رشوة، كما كنت أفعل في كثيرٍ من الأحيان على مدى الأشهر الماضية.

استطردتُ قائلة: «يمكننا اختيار لعبةٍ من ليجو لك الآن، وفي العام المقبل يمكننا الحصول على يقطينة كهربائية، بل حتى يمكننا الحصول على واحدةٍ كبيرة إذا أردت. ربما اثنتين، واحدة برتقالية وواحدة أرجوانية.»

ظل ويس مدليًا كتفيه بينما مددت يدي كي يعطيَني اليقطينة.

وبعد ذلك، ولدهشتي، استسلم. اختفت المعاناة منه دفعةً واحدة. وتطلع في وجهي بصمتٍ للحظة، ثم أومأ موافقًا ومسح أنفه الراشح بظهر كُمِّ قميصه. ثم أعطاني اليقطينة البرتقالية الصغيرة، فأعدتُها مرة أخرى إلى طاولة العرض. ثم مددت يدي فشبك أصابعه في أصابعي.

ثم قلت: «دعنا نذهب لإلقاء نظرةٍ على لُعَب ليجو.»

كانت بقية الرحلة في المتجر روتينية. أخذتُ جوارب كورية لصوفي، وشاحنة شرطة دنماركية من ليجو لِويس، وشاحنة أخرى لطفلٍ صغير كنا سنذهب إلى حفل عيد ميلاده في وقتٍ لاحق من اليوم نفسه. قلت لنفسي إنني يجب أن أشعر بالارتياح لإنقاذ المقاطعة من حادثٍ آخر، ولكني في الواقع شعرت بوهن العزيمة؛ ففوزي في معركة اليقطين الكهربائي انتصار أجوف، لعدة أسباب؛ بداية: أوحى لي بأن النبضات في صدري لا يمكن أن تكون ناتجةً عن قلبي لأنني ليس لديَّ قلب. ثانيًا: لم يتوقَّف كيفن عن تسديد نظرات كراهية لي حيث أصبح واضحًا أن المقاطعة ستفسد احتفال أسرتنا بالهالوين؛ فقد كان يتطلع لتزيين المنزل من أجل الهالوين، وكنا جميعًا نتطلع لتزيين المنزل من أجل الهالوين. والآن، قضيت على كل هذا. وجعلت ويس يبكي، حتى لو كانت شاحنة ليجو قد أسكتته في ذلك الوقت.

خلاصة القول هي أنْ لا أحد يحب مفسدي المتعة، خاصةً أنا، لا سيما عندما يكون مفسد المتعة هو أنا.

وجهت ناظرِيَّ للخارج عبر نافذة سيارتنا التويوتا خلال طريق عودتنا إلى البيت وبحثت عن جانب مضيء. قلت لنفسي إنني حللت بمهارةٍ مسألة سخط ويس، وواسيت نفسي بفكرةٍ مريحة هي أن حزنه على اليقطينة كان مجرد حزن «سطحي»، وليس حزنًا حقيقيًّا يتغلغل في داخلك ويستمر معك لفترةٍ طويلة. لقد اشتريت شهرين ونصفًا من الصبر — السبعين يومًا الباقية حتى النهاية الرسمية للمقاطعة في ٣١ ديسمبر — من ويس بشاحنة ليجو ثمنها ستة دولارات ووعْد بيقطينة كهربائية في العام الجديد. ولن يواصل كيفن العبوس لفترةٍ طويلة؛ فليس من طبيعته أن يلعب دور مُفسِد المتعة. وجميعها أمور تشير إلى أنه على الرغم من أن الأمر لم يكن ممتعًا، فإنني نجحت في تجنيب المقاطعة مهانة عملية شراء أخرى للبضائع الصينية المحظورة. وعند وصولنا إلى مدخل المنزل، اعتبرت حالة اليقطينة البرتقالية قضية منتهية، وأُغلِقَت ملفاتها.

واتضح أني كنت مخطئة في هذا الصدد.

في ذلك المساء على الأريكة، بعد أن أنهينا للتوِّ قراءة قصة ما قبل النوم بفترةٍ وجيزة، انهار ويس مرةً أخرى، فجأةً وتمامًا ودون سابق إنذار.

قال منتحبًا على نحوٍ مفاجئ: «لماذا لم نَعُد نستطيع شراء أشياء صينية؟» وانكمش في نفسه على الأريكة بجانبي كما لو كان يتألم: «لا أريد أن نمتنع عن شراء مزيدٍ من الأشياء الصينية؛ هذا صعب جدًّا.»

حدث هذا على حين غِرة. فتحتُ فمي لتذكيره بشاحنة ليجو، ولكني في هذه اللحظة أدركت بوضوحٍ تام أن شاحنة ليجو ليست كافية لعلاج هذا المستوى من الأسى، وأنني ربما كنت مخطئة حتى في الحزن السطحي مقابل الحزن الحقيقي. ورأيت ويس يُلقي كتابًا إلى الأرض بينما كان يتلوَّى جرَّاء اضطرابه الداخلي. لم أنظر إلى كيفن أو صوفي، اللذين تجمعا معًا عند الطرف الآخر للأريكة وراحا ينظران إليَّ نظرات استهجان.

ثم جاءتني معجزة صغيرة من الفراغ؛ رأيت شيئًا كنت نسيته لعدة أشهر؛ صندوق المال المعدني في الدُّرج العلوي في خزانة غرفة نوم ويس. في آخر إحصاءٍ لمحتوياته كان يحتوي على تسعة عشر دولارًا، على الرغم من اعتقادي أنني اقترضت منه خمسة دولارات ووضعت مكانها ورقة تحمل عبارة: إني مدينة لك، عندما نَفِدَتْ مني النقدية في إحدى الليالي وكنت متعجِّلة للخروج للقاء صديقة لي. التفتُّ إلى ويس وقدَّمت عرض سلام.

قلت له: «حسنًا، يمكنك شراء اليقطينة، ولكن بأموالك. لن تشتريَها لك والدتُك. سوف أصطحبك مرةً أخرى إلى المتجر في الصباح، وأساعدك على إعطاء المال لموظف الخزانة، ولكن ستكون أنت الذي يشتري اليقطينة الصينية، وليس أنا.»

جلس ويس وفرك عينيه، وتنشق بشِدةٍ في محاولة لِلَمْلَمة شتات نفسه ثم سألني: «ولكن لو لم أكن أمتلك ما يكفي من المال، فهل ستُعطينني بعضًا منه؟»

أخبرته أنني أعتقد أن لديه ما يكفي من المال.

وأضفت: «فقط هذا الشيء الصيني. ثم بعد ذلك لن نشتريَ أشياءَ صينيةً مرة أخرى حتى بعد الكريسماس. لا شيء.»

لست متأكدةً من أنني اتخذت القرار الصحيح، ولكن كيفن أقرَّه.

فقد قال لي لاحقًا بينما كنا نأوي إلى الفراش: «لستِ قاسيةً للغاية.»

بدا عليه الارتياح، كما لو أنه كان يجد صعوبةً في تحديد مسألة طيبتي أو قسوتي، وفقط مؤخرًا حُلت هذه المسألة لصالحي.

قال ويس لي في صباح اليوم التالي ونحن نركب سيارتنا التويوتا: «أنا سعيد أننا نشتري أشياء صينية أخيرًا.» حاولت أن أرى عينيه في مرآة الرؤية الخلفية.

ذكَّرته قائلة: «أنت ستشتري شيئًا صينيًّا، وليس أنا. وهذا يحدث هذه المرة فحسب.»

كنت أستطيع أن أشعر بعينَيْ ويس العاشقتين لي من خلف رأسي بينما كنا ندلف للطريق السريع. استغرقنا عشر دقائق للوصول إلى تارجت، وكان يدندن مع نفسه طوال الطريق. وفي المتجر، غيَّر ويس فجأةً تعلُّقه باليقطينة البرتقالية الصغيرة إلى يقطينة أرجوانية صغيرة. كان ملصق الثمن يقول ٤,٩٩ دولارات. أبقيت أصابعي بعيدًا عن الفاتورة بينما كان ويس يدفع المال لأمينة الصندوق. وكان في سعادةٍ بالغة حين أعطتْه اليقطينة في كيسها البلاستيكي الخاص. كان يطير فرحًا بجانبي ونحن نعبُر موقف السيارات وصولًا إلى السيارة، ملقيًا نظراتٍ سريعةً في كيس التسوُّق عدة مرات للتأكد من أن اليقطينة الأرجوانية لا تزال فيه، ولا تزال معه.

في المنزل، أوصل ويس اليقطينة بمقبس كهرباء في الحائط، ووضعها على ظهر أريكةٍ مستندة إلى نافذة بحيث يستطيع المارة أن يُعجَبوا بها. شاهدتُه مع مزيج من الشعور بالذنب جرَّاء انتهاك المقاطعة — مرةً أخرى — والسرور لرؤيته يتمتع بقطعته الصغيرة من البلاستيك المتوهِّج. وجلس قرب النافذة في انتظار أن يمرَّ شخص ما بجوار المنزل حتى يتمكَّن من التلويح له ويشير إلى يقطينته.

بعد بضع دقائق، توجَّه نحوي ناظرًا إليَّ بعينين حزينتين.

وبدأ عبارته: «أمي، هل ستنجبين طفلين آخرين وعندما يصلان هنا ستخبرينهما أنه لا بأس من شراء أشياء صينية؛ لأنني لا أريدهما أن يبكيا طوال الوقت، ويمكنكِ أن تقولي لهما إنهما يستطيعان شراءها وهما صغيران ولكن لا يستطيعان الشراء عندما يصبحان أكبر سنًّا؟»

فهمت ما كان يقصده على الرغم من مشكلات القواعد النحوية في عبارته.

اتصلتْ بي والدتي هاتفيًّا لتسأل عن اقتراحات هدايا الكريسماس للطفلين، وهو أمر غريب؛ لأنها أمضت الأسابيع القليلة الماضية في التفاخر كيف أنها انتهت تقريبًا من تسوُّقها من أجل العيد.

سألتْني: «ما هذا؟» عندما كنت أقول لها إن ويس سوف يطير فرحًا بأي شيء له علاقة بسكوبي دو.

قلت: «ماذا تقصدين بـ «ما هذا»؟»

«سكوبي دو؟»

شعرتُ بالحيرة. بدا وكأن والدتي سألتْني للتوِّ عمَّن يكون سكوبي دو.

سألتُها بتشكُّك: «ألم تسمعي قط بسكوبي دو؟»

أجابت: «لم أسمع به قط. هل هذا شيء جديد؟»

قلت لها مَن هو، أو بالأحرى ما هو، سكوبي دو، وأحجمت عن ذِكر أنه كان يُمثِّل كلبًا بطلًا على الأقل لجيلين من أجيال الأطفال الأمريكيين، بما في ذلك أطفالها. كما أنني لم أذكر أيضًا أن أي شيءٍ قد تجده يحمل صورة سكوبي دو سيكون صينيًّا على الأغلب، وأنني أُفضِّل عدم معرفة هذا الأمر إذا كان كذلك بالفعل.

اتصلتْ بي مرةً أخرى في اليوم التالي لتخبرني أنها وجدت آلة صنع فشار على شكل سكوبي دو.

وأضافت: «تَخرُج حبَّات الفشار من فمه.»

لمْ أسألها عن مكان صنع الجهاز، بل بدلًا من ذلك، سألت والدتي عما تودُّ الحصول عليه كهدية للكريسماس.

أجابت: «أنا عجوز. لا أريد أي شيء.»

قلت: «جيد. يمكنني إذنْ حذف اسمكِ من القائمة.»

كان هذا الموضوع امتدادًا لموضوعٍ تناولتْه أمي خلال زيارتنا إلى سان دييجو في الصيف. عندما علَّقت على عدم وجود رف لتجفيف الصحون؛ مما يؤدي إلى فوضى من الأطباق والأواني في الحوض، فأجابت بأنها عجوز لدرجةٍ تمنعها من الاستفادة الكاملة من رفٍّ جديد؛ ومن ثَمَّ فما الهدف من شرائه؟ وبينما أخطأتُ وسألتُها عن الأمر، كانت أمي تستخدم مصفاة سلطة للغرض نفسه، رغم أن النتائج كانت فوضوية.

فقلت لها: «يمكنني أن أشتريَ لك رف أطباق. أعتقد أنه يكلف حوالي ٥ دولارات في محل الخردوات.»

قالت بغضب: «لا تفعلي.»

فلم أفعل.

هذه المرة لم أكن مقتنعةً بِرَدِّها «لا تشتري لي شيئًا.» فهي تريد شيئًا كهدية للكريسماس، لكنها لم تُرِدْ أن تكون صريحةً وتعترف به لسبب لا يعرفه أحد سواها. يمكن أن يكون فهم والدتي صعبًا.

بالتأكيد لا يجد حفيداها مشكلة في الاعتراف بأنهما يريدان هدايا بمناسبة الكريسماس؛ فمؤخرًا عندما كنت أسأل ويس هل يريدني أن أقرأ له قصة، كان يطلب مني أحيانًا قراءة قائمته التي كتبها لسانتا بدلًا من ذلك. وفي كل مرةٍ كنت أُذكِّره بأنه لا يوجد ضمان بأن سانتا سيجلب له أيًّا من الأشياء الموجودة في القائمة، ولكن كان باديًا لي أنه لا يُصغي إليَّ.

فيقول لي بعينين حالمتين: «سيكون من الرائع الحصول على سيفٍ مضيء.»

كان إيمان ويس الذي لا يتزعزع بالكريسماس واحدًا من العديد من التطوُّرات التي تُشعرني بالضآلة. بدايةً، اكتشفتُ شيئًا مقلقًا إزاء حذاء التنس الإيطالي الخاص بِويس، الذي ارتداه منذ ما يقرب من سبعة أشهر. إنه ليس إيطاليًّا.

توصلت إلى هذا الاستنتاج المفاجئ على نحوٍ غير مباشر، بعد أن سألَتْني عرابة ويس عن مقاس حذائه. دفعني سؤالها لإلقاء نظرةٍ داخل إحدى فردتَي حذائه حيث كان مكتوبًا في الجزء السفلي من لسان الحذاء إما «صنع في سي إس آر» أو «صنع في سي إس إيه». كانت الطباعة على الملصق مهترئة؛ لذلك لم أستطع أن أتأكد من الكتابة، على الرغم من أنه من الواضح أنها لا تشير إلى أنه مصنوع في إيطاليا. ثم مرةً أخرى، لا تشير أيضًا إلى أنه مصنوع في الصين؛ لذلك كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. على أي حال، كانت أصابع ويس تتقدَّم ببطءٍ على نحوٍ خطير نحو نهاية حذائه، وهذا يعني أنني سأُضْطَرُّ لخوض تجربة بحثٍ عن حذاء تنس غير صيني جديد قريبًا. قرَّرت عدم التفكير في ذلك الآن؛ فلديَّ ما يكفي من الأشياء التي تدعو إلى القلق فعليًّا.

يتمثَّل أحد دواعي قلقي في طابعة مكتبي المنزلي، التي بدأتْ فجأةً تُسيء السلوك بعد أسابيع من اعتقادي أني انتهيت من مشكلاتها بشراء الخرطوشة البديلة المصنوعة في اليابان/إلينوي. كانت لوحة العرض تشير إلى أني أواجه خطأً، وهو الأمر الواضح للغاية؛ حيث إن الطابعة لا تُصدر أي صوتٍ عندما أُرسِل أمرًا بالطباعة. ثم اختفت رسالة الخطأ تمامًا؛ وهو الأمر الذي بدا نذير سوءٍ على نحوٍ أكبر.

في ظهيرة أحد الأيام استجمعت شجاعتي لأطلب من كيفن أن يبدأ طباعة صفحاتٍ لي في مكتبه مرةً أخرى، فأشاح بنظره، لكنه لم يرفض، وهو أمر جيد بما فيه الكفاية بالنسبة إليَّ. وفي هذا الوقت لم أكن أتوقَّع أن تأتيَ هذه الخدمة بابتسامة.

قمت برحلةٍ ذليلة للمركز التجاري لإصلاح نظارتي الشمسية الإيطالية. كانت الرحلة ذليلةً لأنني كنت أفترض لشهورٍ أن نظارتي الشمسية مميزة للغاية — «إيطالية» للغاية — حتى إن عددًا قليلًا من متاجر النظارات خارج ميلانو بإيطاليا ستجرؤ على محاولة إعادة العدسة مرةً أخرى في الإطار المزخرف. وحتى في معظم الوقت لا أستخدم كلمة نظارة شمسية لوصف نظارتي الشمسية؛ كنت أدعوها روميو جيجليو خاصتي، أو أحيانًا روميو فحسب، احترامًا لمصمم الأزياء الإيطالي الذي ابتكرها. وضعتُ وجهي لأسابيع وراء نظارة كيفن الجليدية وتجاهلتُ النظرات الفضولية التي كانت ترمقني، معتقدةً أنه ليس لديَّ أي خيار في عالَم تُمثِّل فيه خيارات النظارات الشمسية طرفَي نقيض: النظارات الشمسية الإيطالية أو الأمريكية باهظة الثمن بدرجةٍ فاحشة، أو النظارات الشمسية الصينية الرخيصة.

لذا تفاجأت حقًّا عندما ألقتْ شابة من متجر لينسكرافترز في المركز التجاري — في الممرِّ على الناحية المقابلة من الكافتيريا وعلى مقربةٍ من متجر سيرز — نظرةً سريعةً على نظارتي الشمسية الإيطالية المكسورة وقالت لي إنها سوف تُصلحها خلال عشر دقائق.

وبعد عشر دقائق، أعادتها إليَّ.

وقالت: «لا توجد تكاليف إصلاح.»

كبحتُ جماح نفسي ولم أقفز من فوق المنضدة الزجاجية لاحتضانها. هل تحمَّلتُ صداع النظارة الجليدية ونظرات التحديق الفضولية التي يرمقني بها المارة لأجل هذا الأمر البسيط؟ لُمْتُ نفسي على هذا طوال الطريق إلى السيارة. لُمْتُ نفسي، ولكني لم أُضيِّق عينَيَّ؛ فقد أعدتُ نظارتي الشمسية الإيطالية — روميو — إلى مكانها الصحيح، على وجهي.

حاولتُ عدم التفكير في الكريسماس، الذي ربما يكون منهجًا خاطئًا لأنني في حاجةٍ إلى الانخراط في التسوُّق، وأيضًا لأنه من المستحيل تقريبًا عدم التفكير في الكريسماس. كانت كومة المنشورات التسويقية للألعاب الموجودة في صندوق البريد تزداد كل يوم، وبين المنشورات التسويقية كان هناك واحد يبيع ألعاب أطفال غالية الثمن معظمها مصنوع في أوروبا، وكان من بينها دُمًى يدويةُ الصنع من الخشب والقطن مصنوعة في ألمانيا يفوق ثمنها مائة دولار للقطعة. تصفحتُه لمعرفة هل الشركة تبيع سيوفًا مضيئة، أو لعبة أدوات رجل شرطة، أو أي شيء مبتذَل مثل السيارات المورفيبيان، لكنه لم يكن يحتوي على أيٍّ منها.

حتى الأخبار كانت مُقلِقة في الآونة الأخيرة. أشهرتْ صانعة قطع غيار السيارات دلفي إفلاسها، مقللةً عدة آلاف من الوظائف الأمريكية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى المنافسة من العمالة الصينية الأرخص بكثير. وفي الوقت نفسه، أرسلَت الصين رائدي فضاء إلى الفضاء. لا أحسد الصين على هذا الإنجاز، ولكن كنت أتمنى ورود أخبار جيدة من الوطن أتعلق بها. وواصل عمال النسيج الأمريكيون الذهول أمام تخفيض العمالة الذي يُسبِّبه غزو المصانع الصينية للسوق. كانت أكثر الأخبار المحلية إثارةً للبهجة التي مررْتُ بها خلال أسابيع هي خبر مُطمْئِن على نحوٍ غريبٍ عن مؤتمر بيج فوت في ولاية تكساس الذي جذب مئاتٍ من الحضور.

كثَّفتْ والدتي من سخريتها مني. روتْ لي أنها اشترتْ مؤخرًا كيسًا للنوم من أجل ويس، وقطعت الملصق المكتوب عليه «صنع في الصين».

ثم أضافت: «لذلك لا يوجد ما يدعو إلى القلق.»

تمنيت لو أنه لا يوجد ما يدعو إلى القلق بحق.

في أسبوع عيد الهالوين، قمتُ برحلةٍ إلى متجر الأدوات وعدت إلى المنزل حاملةً قماشًا أحمر وذهبيًّا وأزرق من كوريا ونموذجًا أمريكيًّا لصُنْع رداءين للطفلين. ووجدت خيطًا ألمانيًّا قديمًا في خزانة المطبخ. وقضيت فترة طويلة من اليوم منحنيةً على آلة الخياطة، وقرصَت الماكينة إصبعي.

قدَّمت في نهاية اليوم للطفلين النتائج النهائية: زي أمير باللونين الأزرق والذهبي لِويس، ومتمَّمًا بتاجٍ من الورق المقوَّى مغطًّى بالقماش، ورداءً أحمر لصوفي يشبه رداء ذات الرداء الأحمر. وإذا دقَّق شخصٌ ما النظر بما يكفي فسيجد خطوطًا متعرِّجة غير مُتعمَّدة على طول الطرف السفلي للرداءين، ولكني استغلَلْت الجمهور غير المنتقد، واستخدمت قماشًا لامعًا أُخفِي غُرَزي المتذبذبة وعدم قدرتي على الانتقال من مستوى المبتدئين إلى مستوى المتقدمين في الخياطة، على الرغم من سنواتٍ من المحاولات.

ارتدى ويس زي الأمير عند ذهابه إلى المتجر، حيث جذب نظرات استحسانٍ من المتسوِّقين الآخرين الذين لم يُظهروا انتقادًا لخطوط الخياطة غير المستوية أو التجعيدات المحتمَل وجودها في غُرَز الكتف. حتى كيفن بدا راضيًا عن زي ويس، على الرغم من أن ابنه الوحيد يرتدي قماشًا ذهبيًّا احتفالًا بالعيد بالمعنى الحرفي.

تلقَّيت أنا وكيفن دعوةً لحضور حفل هالوين للكبار. لم يكن ارتداء أزياء خاصة أمرًا لازمًا، ولكن كيفن ارتدى شعرًا مستعارًا أسود طويلًا ومثنيًا إلى الداخل عند الأطراف جعله يبدو مثل سوني بونو دون شارِب. لقد كان الشعر المستعار موجودًا لدينا منذ سنوات، وقبل أن يضعه كيفن على رأسه، نظرت داخل فروة الرأس الاصطناعية. كان مكتوبًا عليها «صنع في الصين».

وفي الحفل أخبرتُ صديقةً لي — لم أرَها منذ فترةٍ طويلة — بقصة اليقطينة الأرجوانية وويس. وأدركتُ في منتصف القصة أنها بدت كما لو كانت على وشك البكاء.

فقالت: «مسكين ويس!» وسكتتْ لبُرهة، ثم سألَتْني: «هل ستنزعجين لو أحضرت بعض الألعاب القديمة لطفليك؟ فأنا أشعر بالأسى الشديد حيالهما.»

ضحكتُ وقلتُ لها لا بأس في هذا، ولكن حقًّا، ويس على ما يرام.

وأردفتُ: «أقسم أنه على ما يرام.»

بدتْ غير مقتنعة.

نسيت أمر هذه المحادثة للأيام القليلة اللاحقة، ثم ذات صباح وأنا أخطو خارج الباب الأمامي، وجدت كومة من اللعب عند أسفل درجات السلم. وكانت توجد ملاحظة مكتوبة بخط اليد على صندوقٍ يحتوي على دُمية باربي تقول:

«أُغلق ملجأ مُشرَّدي الإعصار لدينا، وقد تُرِكت جميع الألعاب والأشياء التي يستخدمونها وراءهم. ولم أتمكن من العثور على مأوًى آخر في حاجةٍ لهذا الصندوق الأخير. هل يستطيع طفلاك قضاء وقت ممتع مع كل أنواع الأشياء الصينية التي ظهرت على نحوٍ سحريٍّ أمام باب منزلهما؟ لا تتردَّدي في الاتصال بي لأخذه لأحد صناديق التبرعات الخيرية التابعة لشركة جودويل؛ كنت سأفعل ذلك بنفسي ولكنني فكرت في قصة اليقطينة الأرجوانية و... تحياتي وقبلاتي، كارولين.»

نقلتُ معظم الألعاب سريعًا إلى الجزء الخلفي من السيارة، حيث غطيتها بغطاءٍ بلاستيكي. ثم ألقيت نظرةً سريعةً على ما يوجد بها. كان يوجد حيوانات وجنود كثيرة مصنوعة من البلاستيك، ومجموعة من أقنعة الغاز المزيفة، وسيارات لعبة، وصندوق يحتوي على ما يُدَّعى أنه حافلة مدرسية برمائية، والعديد من دُمى باربي، ولعبة مجسمات البيوت، وعشرات من قطع الأثاث الخاصة ببيوت الدُّمى المغطَّى بالزهور. تفحَّصتها بسرعة، وكنت قلقة من أن يتسكع الطفلان خارج المنزل ويقعان في حب المجموعة بأسرها. أخذت الأشياء التي اعتقدت أنهما سيحبانها أكثر من غيرها: مجسمات البيوت،

والحافلة المدرسية البرمائية، وقطع الأثاث اللعبة، وبعض أقلام التلوين، وبعض الحيوانات البلاستيكية. تركت دُمى الجنود، ليس بسبب مناهضة الحرب، ولكن لأنه لا يوجد باطن قدم بشرية شديد الصلابة لدرجةٍ تُمكِّنه من تحمُّل أن تخترقه البندقية البلاستيكية الصُّلبة لدمية جندي. قمت بجرد سريع لمكان صناعة الألعاب المختارة. كان كل شيءٍ مصنوعًا في الصين.

جلست في غرفة المعيشة مع الهدية الصينية الممنوحة للطفلين، اللذين هجما عليها بطمع. وحصلتُ على رد فعل رائع من كيفن بعد أن شرحت له أن اللعب كانت متروكة غير مرغوب فيها من المأوى المحلي.

قال: «حسنًا، هذا رائع! لقد أصبحنا مؤسسة خيرية للأطفال المحرومين.»

نأمل أن يدوم الحب إلى الأبد، ولكن ليست الحال هكذا دائمًا. وبالتأكيد حب ويس لليقطينة الأرجوانية الكهربائية لم يدم؛ فلم ينجح حبهما في تجاوز الأسبوع الأول من شهر نوفمبر.

بدأ افتتانه باليقطينة يقلُّ كل يوم حتى عيد الهالوين، وبعد يومين من العيد أصبح غير مبالٍ بها، حتى إنه لم يعترض عندما حملتْها صوفي في جميع أنحاء المنزل وأوصلتْها ونزعتْها عن كل مقابس الكهرباء في المنزل. كانت تُبقي ذراعيها ملفوفتَين حولها كأنها مِلْكها، ومع ذلك لم يَبدُ ويس معارضًا.

وأخيرًا سألتُه: «ألم تَعُدْ معجبًا بيقطينتك بعد الآن؟»

هزَّ كتفيه في لامبالاةٍ وقال:

«أعتقد أنه لا بأس بذلك.» ولم تتزحزح عيناه عن التليفزيون.

إنه «يعتقد» أنه لا بأس في التخلي عن اليقطينة الأرجوانية الكهربائية؟ ألهذا بعتُ مبادئي؟

حسنًا، هذا كل شيء. لن يحدث ذلك أبدًا مرةً أخرى. لا مزيد من التنازلات. لا مزيد من اللعب الصينية. لا مزيد من أي شيءٍ صيني. لا مزيد من مراوغةٍ أو كسرٍ لقواعد المقاطعة، بصرف النظر عن الدموع، والتوسلات، ونظرات الاستهجان من كيفن. سأواجه الجزء الأخير من المقاطعة الممتد لشهرين بحماسةِ مَن تحوَّل حديثًا لديانةٍ أخرى وأحقق ما افتقرتْ إليه المقاطعة طوال العام: الكمال.

الفصل الحادي عشر

موسم الصين

قال كيفن: «ليس لديَّ خطة بديلة. كانت هذه هي خطتي البديلة.»

اتصل بي ليخبرني الأخبار السيئة: أكياس النوم الصوفية التي كان يريد أن يطلبها من أجل الطفلين في الكريسماس مصنوعة في الصين.

قلت لكيفن إنني آسفة لسماع هذه الأخبار عن أكياس النوم، ثم انتظرت منه أن يقول لي إنني يجب ألَّا آسف لأنه ليس خطئي. لكنه لم يقل ذلك، ربما لأنه خطئي لأنني أنا صاحبة قرار مقاطعة الصين. ربما كان يفكر أيضًا أنه إذا كنتُ آسفة حقًّا فإنني كنتُ سأقول له لا بأس في أن يمضيَ قُدُمًا ويطلب أكياس النوم الصينية. لم يأتِ أي صوتٍ من جانبه، وهذا يعني أنه في مزاجٍ سيئ حقًّا.

حاولت أن أُدخل عليه البهجة، فقلت:

«يوجد الكثير من الصوف في متجر الأدوات الحرفية من كوريا. وهذا يجعلني أعتقد أن لديك فرصةً حقيقية حيال أكياس النوم تلك.»

ظل هادئًا لفترةٍ أطول قليلًا، ربما كان يحاول أن يجعلني أعاني. بعد ذلك، عندما تكلم، عاد إلى كيفن العادي، رجل لطيف شديد الحماس.

ثم قال: «أتعرفين ما سأفعله؟ سأصنع للطفلين كيسَيْ نوم. سوف أصنعهما بسحَّاب وصوف كوري. وسوف يكونان أفضل من أي كيس نوم صيني يمكنكِ الحصول عليه من منشور تسويقي.»

يستطيع كيفن بناء قوارب خشبية وقيثارات صوتية، ولكنه — وفق ما أعرف — لا يستطيع خياطة زر في مكانه من السروال، حتى لو كانت حياته ستتوقَّف على ذلك. وجدت نفسي مضطرة لإيقاف دفعة المشاعر الإيجابية هذه بتحذيرٍ من أني أرى دائمًا أن تركيب السحَّاب صعب بعض الشيء.

فقال ساخرًا: «ما مدى صعوبة ذلك؟ كل ما عليكِ هو خياطتها.»
انتفضَت الخيَّاطة المبتدئة في داخلي. وتوقف كيفن عن الحديث لبُرهة.
ثم أضاف: «بالطبع، سأحتاج لمساعدتك.»
فقلت: «أنا لا أريد أن أساعد، أريد أن أشاهد فحسب.»
ساد الصمت مرةً أخرى، ثم قال:
«ربما سأستخدم شريط فيلكرو لاصقًا.»

ربما يجب أن أكون أكثر تعاطفًا مع إخفاق كيفن الأول فيما يخص المنشور التسويقي لأكياس النوم. وأنا أيضًا بدأت عملية الاتصال بالشركات صاحبة المنشورات التسويقية لمحاولة اكتشاف هل يوجد أي شيءٍ على قائمة ويس لسانتا يأتي من أي مكانٍ غير الصين. إنه عمل مُمِل، وكنت غالبًا أخفق في اتصالاتي. في الواقع، حتى الآن أخفقتْ جميع محاولاتي؛ حيث إن كل الألعاب التي اتصلتُ للاستفسار عنها كانت صينية الصنع.

اتبعَت المكالمات نمطًا متوقَّعًا؛ كنت أطلب رقم شركة المنشور التسويقي، وأسأل عن بلد المنشأ لعنصرٍ معين، وأستمع إلى تنهيدة أو غيرها من علامات الضِّيق من جانب مندوب خدمة العملاء المنزعج، فأشكره وأنهي المكالمة بعد أن يخبرني أن اللعبة مصنوعة في الصين. أصبحت هذه المكالمات مُمِلة حتى إنني كنت أشعر بالامتنان لأي انحرافٍ عن القاعدة، بما في ذلك الحوار الغريب الذي حدث في اليوم الذي اتصلتُ فيه للاستفسار عن صاروخ يندفع بقوة الهواء يمكنه إطلاق قذيفة من الفوم لمسافة ٤٠٠ قدم في الهواء.

وصفه الكتالوج بأنه «متعة كبيرة للأطفال من سن ثمانية أعوام وأكبر.»

طريقة جيدة لإصابة عينك على ما أعتقد.

شطبت الصاروخ من قائمة ويس في ذهني بمجرد أن قرأت عن قوته، ولكني اتصلت من أجله على أي حال بسبب فضولي لمعرفة أيُّ بلد يصنع لعبة يحتمل أن تكون مضرة للعين كهذه. وهكذا انتهى بيَ الأمر على الهاتف مع كينيث، وهو شخص كثير الكلام أظهر حماسة استثنائية لمكالمتي، ولكنه لم يستطع إخباري بمكان صُنْع الصاروخ.

فقال مستغربًا: «لا فكرة لديَّ! يا له من سؤال!»

قال لي كينيث إنه سيتعيَّن عليه ملء استمارةٍ لي وتقديمها إلى «مختص» في المنشور التسويقي إذا كنت أريد أن أعرف أين يُصنع الصاروخ. وأخبرني أن شخصًا ما سيتصل بي مرةً أخرى ليخبرني بالمعلومات في غضون يوم إلى ثلاثة أيام عمل. بدأنا ملء الاستمارة،

وهي العملية التي بدتْ روتينية حتى أعطيته اسم مدينتنا. وحينها كشف كينيث ما كنتُ أعتقد أنه ميل مؤسف لإخبار العملاء بأمور عن نفسه تتجاوز ما ربما يرغبون في معرفته.

قال كينيث: «قضيت ليلة في مدينتك ذات مرة. هذا لا يعني أنني أتذكَّر الكثير عنها. ها، ها، ها. لن أرويَ هذه القصة، مستحيل؛ فهذا أشبه بالجنون، حتى لو كنتُ أستطيع تذكُّرها بأكملها. ها، ها، ها.»

وبينما واصلنا ملء الاستمارة، واصل كينيث تقديم تلميحاتٍ عن ليلته الجامحة في بلدتنا، مكررًا مراتٍ عدةً أنه بالتأكيد لن يُخبرني عنها، مهما حدث، كأنني كنت أتوسَّل إليه أن يفعل هذا. حاولت عدم إبداء رأيي لإبقائه مُركِّزًا على الاستمارة.

استطرد قائلًا: «نعم يا سيدتي، كان وقتًا جامحًا. الرمز الكودي للمنطقة من فضلك؟»

فأعطيته الرقم.

فقال كينيث: «لا، لا، مستحيل، هذا غير ممكن. رقم الهاتف؟»

سمعتُ ضجيجًا في الخلفية عنده واضْطُرَّ كينيث أن يسألني أكثر من مرةٍ عن المنشور التسويقي الذي أتصل من أجله، وهو ما بدا سؤالًا غريبًا حيث أوحى لي أنه لا يعرف الشركة التي يعمل فيها. تخيَّلت كينيث جالسًا في مركز اتصال واسع في ساوث داكوتا أو نبراسكا، ومحاطًا برجالٍ ونساءٍ كانوا يعملون في المصانع التي تدفع لهم الأجور التي تُحدِّدها النقابات العمالية، ولكن خُفِّضَت وظائفهم إلى خدمة العملاء براتبها البالغ ٧٫٥ دولارات في الساعة بسبب المنافسة من المصانع الصينية. ربما كان بعض هذه المصانع — منذ فترةٍ طويلة، أو ربما منذ وقتٍ ليس ببعيد — كانت متخصصةً في صُنْع بعض الألعاب التي أتصل بشأنها، والتي تباع في المنشور التسويقي، والتي أصبحَت الآن تأتي من الصين؛ على نحوٍ شبه مؤكد.

شعرت بإغراءٍ حيال سؤال كينيث ما إذا كان تصوُّري لمكان عمله يقترب من الواقع أم لا، ولكنَّ شيئًا ما منعني؛ إذ أدركت أنني إذا أعطيت كينيث أي تشجيعٍ فسوف يُبقيني على الهاتف طوال فترة الظهيرة على الأرجح ليُقدِّم وصفًا مفصلًا لحياته العملية، بدءًا من رأيه في رئيسه والمال الذي يكسبه إلى نوع الزينة الموجودة على جدران حُجيرة العمل التي يعمل بها. وبطريقةٍ ما أو بأخرى طوال حديثه من المؤكَّد أنه كان سيُقحِم ذكرياته الغامضة من ليلته المنسية في بلدتنا.

لم تكن المسألة أنني لا أحب مزاح كينيث. وليس الأمر حتى أن لديَّ أشياء أكثر أهميةً أقوم بها. معارضتي للأمر عملية؛ فأنا في عجلةٍ من أمري هذا اليوم. وعليَّ إجراء

مكالماتٍ لشركات المنشورات التسويقية من أجل صانعة مثلجات وإنسان آلي أزرق إذا كنتُ أريد التمسُّك بالجدول الزمني الذي وضعتُه لفرز قائمة الكريسماس الخاصة بويس التي تأتي كل بنودها من الصين.

شعرت أنني تصرفت بوضاعةٍ بينما كنت أودِّع كينيث. هل كنت سأموت لو أنني استمعت إلى حكاية ليلته المليئة بالعربدة؟ كان هذا هو الشيءَ اللطيفَ الذي ينبغي القيام به، وكنت أشكُّ في أن كينيث سيحتاج قريبًا أكبر قدرٍ يمكنه الحصول عليه من التعاطف. فكَّرت في هذا لأنني عندما أنهيت المكالمة كنت متأكدةً من أن كينيث سيُطرد قريبًا من وظيفته في مركز الاتصال لمحاولة إدخال العملاء مثلي في محادثاتٍ غير لائقةٍ عن مغامراته في فترة شبابه.

من المؤسف أن كينيث لم يكن يمتلك قدرًا أكبر من الحذر. ربما الرَّد على مكالمات الناس الذين يسألون عن منتجات منشور تسويقي ليست فكرة أي شخص عن وظيفة أحلامه، ولكن في عصرِ تفشِّي تعهيد الوظائف الأمريكية إلى الصين، يمكن أن تكون هذه أفضل فرصةٍ لكينيث لوظيفةٍ بأجرٍ ثابت.

يا لكينيث المسكين. آمل أن ينتظروا إلى ما بعد فترة الأعياد لفصله من العمل.

لم يعاود أحد الاتصال بي من شركة كينيث.

ثَمَّةَ مكالمة هاتفية أخرى بشأن أحد المنشورات التسويقية أيضًا لا تُنسى. أبلغتْني المرأة التي أجابت على الهاتف، بصوتٍ مرتجف، أنه سيُحتَّم عليَّ إرسال طلبٍ لمحامٍ يُدعى السيد كلاين، إذا أردت معرفة معلومات عن بلد المنشأ لمجموعة مكعبات في صندوق عملاق في الصفحة الثالثة عشرة من المنشور التسويقي الخاص بهدايا عيد الميلاد. وأعطتْني عنوانًا في جراند فيو بولاية ميسوري، ولكن أخبرتْني أنني سأحصل على إجابةٍ أسرع إذا أرسلت إلى السيد كلاين خطابًا عن طريق الفاكس. وأشارت إلى أنها ليست لديها فكرة عن الوقت الذي سيستغرقه للرَّد، وسألتْني عما إذا كنت أريد رقم الفاكس أم لا، فدوَّنته.

لم أجد قط وقتًا لإرسال رسالة إلى السيد كلاين. بدا في الأمر مشقة أكثر من اللازم. وبدلًا من ذلك، تخليت عن فكرة شراء صندوق المكعبات، الذي كان سيُمثل هدية رائعة لصوفي، حتى لو لم تكن موجودةً على قائمتها لسانتا.

في إحدى الأمسيات، انتزع ويس قائمته لسانتا من باب الثلاجة وأشار إلى أنه يريد أن يكتب واحدةً جديدة. استلقى على بطنه على أرضية المطبخ وأسند ذقنه إلى كفيه. وطلب

مني إعادة نسخ قائمته على ورقة جديدة وأمرني أن أقرأ البنود المدرجة على قائمته القديمة. وقال إنه يحتاج إلى أن يُحدِّد الأشياء التي يُبقيها في القائمة الجديدة، في حال غيَّر رأيه عمَّا يريده حقًّا.

قال لي: «سأقول نعم أو لا.»

بدأنا.

حقيبة ظهر عليها بطل خارق؟

ضيَّق عينيه ونظر عبر المطبخ، وكأنه يفكر في هذا بعناية وأنه قرار صعب، ثم قال: «نعم.»

أدوات بطل خارق داخل حقيبة الظهر؟

أبقى عينيه نصف مغلقتين فيما يشبه نوعًا من الأوضاع التأمُّلية: «نعم.»

سيف مضيء؟

دون تردُّد: «نعم!»

خطاف معدني حقيقي وحبل؟

«نعم.»

يويو؟

«نعم.»

سيف؟

«نعم.»

درع؟

«نعم.»

دراجة نارية صغيرة قابلة للفك والتركيب من ليجو؟

«نعم.»

شعرت بالارتياح لسماع ذلك؛ لأن الدراجة النارية من ليجو بدت كأنها البند الوحيد الذي ربما يكون غير صينيٍّ على القائمة حتى الآن.

سيارة إطفاء يمكن ركوبها؟

«نعم.»

عربة نقل باليد؟

«نعم.»

صاروخ يندفع بقوة الهواء؟

قال: «نعم.»

فكرت قائلة في نفسي: «عذرًا أيها الطفل، هذا غير وارد.» ولكني دوَّنته على أي حال. سوف نخوض معركة الصاروخ المندفع بقوة الهواء في يومٍ آخر.

لعبة أسماك القرش الطائرة؟

«نعم.»

سيارة مورفيبيان؟

«نعم.»

أنياب مصاص دماء؟

«نعم.»

صندوق غداء؟

«نعم.»

سيارة ضخمة؟

«نعم.»

دمية دب محشوة؟

«نعم.»

صانعة مثلجات؟

«نعم.»

شارة شرطي؟

توقف للتفكير في هذا العنصر. ثم قال ببطءٍ ودون اقتناع: «لا.»

قبعة رجل شرطة؟

هز رأسه. وقال بثقةٍ هذه المرة: «لا، لا أريد واحدة.»

خزانة؟

«نعم.»

صافرة تُعلَّق حول عنقك؟

«نعم.»

أصفاد؟

سكت وفكَّر مُضيِّقًا عينيه: «نعم.»

نظارة شمسية؟

«نعم.»

إنسان آلي؟ واحد أزرق وجميع الألوان الأخرى، أيضًا؟

«نعم.»

تجهَّمت أمام القائمة الجديدة. بدت مطابقة تقريبًا للقائمة القديمة، باستثناء حذف شارة وقبعة رجل الشرطة، اللتين لن أفتقدهما لأنهما بالتأكيد مصنوعتان في الصين. نهض ويس عن الأرض، ووقف إلى جانب ركبتي، وطلب مني إضافة عنصرين إضافيين من منشور الألعاب التسويقي الجديد الذي كان بجانبه على الأرض.

فقال: «شاحنة ضخمة تعمل بموت كاترول.»

وحمل المنشور التسويقي. ورسم لي دائرة حول الشاحنة الضخمة.

وأضاف: «وسيارة سباق بموت كاترول. أخبري سانتا أني أرغب بشِدة في واحدة منها.»

ثَمَّةَ شيء لا أفهمه. «موت كاترول»؟ لم أفهم ذلك. هل هذا شيء جديد صُنع من أجل الأطفال العصريين؟ هل أنا في خطرِ أن أُصبِح مثل والدتي، غافلةً عن الدعائم الأساسية للطفولة المعاصرة مثل سكوبي دو؟ أو مثل والدي، الذي أحضر مؤخرًا ملصقًا لفيلم الرسوم المتحركة الأمريكي «عائلة سمبسون» كتذكار من رحلته إلى السويد؟

كرَّرت في داخلي: «موت كاترول.» ثم فهمتها: «جهاز تحكُّم عن بعد (ريموت كنترول).» أضفت الشاحنة الضخمة وسيارة السباق إلى القائمة، ولكنهما لن تفيدا ويس بشيء، ففي آخر مرة تفحصتهما فيها، كانت الألعاب ذات أجهزة التحكم عن بُعد تنتمي إلى الصين بقدر ما ينتمي ماو تسي تونج إليها.

سمحتُ للطفلين بالبقاء في المنزل وعدم الذهاب إلى المدرسة بعد أن استيقظا مصابُين برشحٍ من الأنف. وجلسا في شبه غيبوبةٍ أمام التليفزيون معظم فترة الصباح، وبعد ذلك اصطحبتهما إلى الصيدلية لشراء دواءٍ للبرد.

كنا محاطين بمعروضات الكريسماس الصينية الصنع؛ فرفَّهنا عن أنفسنا بالضغط على زر تمثالٍ لرجل الثلج فروستي الراقص المصنوع في الصين، ثم قضينا عدة دقائق في إلقاء نظرةٍ على الملصقات أسفل أشجار كريسماس مصغرة، وشمعدانات على شكل منازل سيراميكية، وغيرها من معروضات الكريسماس، التي كانت جميعها مصنوعة في الصين.

اعتقدتُ أن ويس ربما أثبت أنه طفل مبكر النضج وعلَّم نفسه القراءة لأن كل مرة كنا نفحص فيها ملصقًا معًا، كان يهز رأسه ويعلن بحزمٍ أنه من الصين. ثم أعطاني علبة قصديرية بها شمعة وكان مكتوبًا على أسفلها «صنع في هونج كونج».

قال ويس متنهدًا: «شيء آخر من الصين.»

أمسكت لساني عن الحديث.

جعلني ويس أَعِدُه بأنه يستطيع في العام المقبل شراء شجرة كريسماس مصغَّرة بزينة ملونة صغيرة معلقة عليها. ووجَّه حديثه لصوفي ليُعلِمها بالأخبار الجيدة.

فقال لها رافعًا الشجرة: «أمي تقول إنه يمكنني الحصول على هذه عندما يحين موسم الصين.» بدت صوفي منبهرة.

كانت وسيلة ممتعة لتمضية الوقت مع الأطفال، لم أشعر بالقلق إلا في لحظة واحدة. سمعت ويس يصيح: «أوه، لا!»

قفزتُ وقطعتُ بضع خطوات في الممرِّ نحوه، معتقدةً أنه ربما جرح يده بشيءٍ ما. وبحثت عن الدم ولكني لم أرَ شيئًا. كان ويس يحمل علبة دواء البرد في يده وينظر باهتمام للكتابة الموجودة عليها من الخارج.

وأخبرني بينما كان يعطيني العلبة: «أرعبني هذا لأنني اعتقدت أن الدواء ربما يكون مصنوعًا في الصين.» تفحَّصت علبة دواء البرد ووجدت عنوانًا في رود آيلاند، فأكَّدت له أنه ليس صينيًّا.

غادرنا المتجر ومعنا دواء البرد وعلبة من المناديل الأمريكية. على الأقل حتى الآن لا يزال بإمكانك تنظيف أنفك من المخاط دون الاستعانة بالصين.

مزيد من الملاحظات عن مقاطعة الصين:

أوقفتْ صديقة لنا شاحنتها الصغيرة (ميني فان) بعد الظهر في الشارع ولوَّحت لي عبر نافذة السائق.

ثم قالت: «ابنتي البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا توقفتْ عن شراء الأشياء المصنوعة في الصين من أجلك. ظننت أنك ستُحبِّين معرفة ذلك. وهذا بالإضافة إلى مقاطعة وول مارت، الذي قاطعتْه من أجلك أيضًا. إنها تحبك.»

لم أكن متأكدةً مما يجب أن أقوله. شكرًا؟ هذا رائع؟ «هل» هذا رائع؟ فلم يقاطع أحدٌ من قبلُ وول مارت أو الصين من أجلي، على الأقل ليس بإرادته. كنت لا أزال أحاول معرفة ما يجب أن أقوله عندما أغلقتْ صديقتي نافذة سيارتها وواصلَت القيادة.

طلبتُ صندوقًا من لُعَب الكريسماس الألمانية من منشور تسويقي مزخرف للأطفال. وصُدمْتُ عندما وصل الصندوق. ما صدمني هو حجم الصندوق؛ فلم يكن أكبر من صندوق حذاء، على الرغم من أنني أنفقت حوالي ٢٠٠ دولار مقابل محتوياته.

بدا طلبي هائلًا ومسرفًا عندما اتصلت بشركة المنشور التسويقي، ولكن عندما فتحت الصندوق بدا كل شيء صغيرًا ومتواضعًا. كانت هذه الألعاب ساحرة وعالية الذوق ومصنوعة بجودة عالية، ولكن عندما تفحَّصتها أدركت أن هذه الصفات نفسها ربما تُمثل عيوبًا من وجهة نظر الأطفال، الذين يحبون اللعب الكبيرة ذات الصوت العالي والذوق المثير للجدل. بعبارةٍ أخرى، اللُّعَب العادية، التي تعني اللعب الصينية. وكما ذكرت، كانت هذه اللعب «صغيرة جدًّا»؛ فتلك الأسرة المكونة من أربع دُمًى مطلية بيدٍ ألمانية وتكلفت ٨٠ دولارًا يمكن أن توضع داخل فنجان قهوة. لا يمكن أن يكون طول دُمية الأب أكثر من خمس بوصات. كما كانت هناك أيضًا مجموعة من قطع الأثاث الصغيرة الألمانية الصنع لبيت الدُّمى، وإكسسوارات ألمانية أصغر حجمًا لبيت الدُّمى، بما في ذلك محمصة خبز وغيرها من أدوات المطبخ الدقيقة بالمعنى الحرفي.

ثَمَّةَ مفاجآت غير سارَّة أخرى في الصندوق؛ كان يوجد قارب خشبي لحوض الاستحمام أكَّد مندوب خدمة العملاء لي أنه مصنوع في بولندا، ولكن كان هناك شيء آخر مكتوب على صندوقه من الخارج، وهي الكلمات: «صنع في الصين».

صدمني أنني أنفقت ما يقرب من ثلث ميزانيتنا لعيد الميلاد على صندوق اللعب هذا الذي يضاهي حجمه حجم صندوق حذاء. اقترحتُ مؤخرًا على كيفن أن نُحدِّد سقف الإنفاق للعيد بـ ٦٨١ دولارًا بعد أن قرأت في مكانٍ ما أن مجموعة إن بي دي — وهي شركة أبحاث سوقية — تتوقَّع أن تنفق الأسرة الأمريكية المتوسطة هذا المبلغ على الهدايا خلال فترة الأعياد. ونحن أسرة متوسطة بما فيه الكفاية في رأيي، على الرغم من أننا في هذه المرحلة لسنا أسرة عادية؛ فالأسرة الأمريكية العادية ستنفق معظم مبلغ الـ ٦٨١ دولارًا على هدايا الكريسماس الصينية التي ستُذهل أطفالها الأمريكيين العاديين في صباح يوم الخامس والعشرين من ديسمبر.

بدا لي المبلغ إسرافًا في ذلك الوقت، ولكن فجأةً قلقت من أنه سيكون صعبًا الامتناع عن كسر الحد الأقصى للإنفاق البالغ ٦٨١ دولارًا. رغم كل شيء، لم يحتوِ الصندوق الصغير على أكثر من لعبتين لِويس: القارب الخشبي من بولندا/الصين، الذي سأُضْطَرُّ إلى إعادته، وقارب خشبي ثانٍ مصنوع في ألمانيا ويعمل عن طريق أربطة مطاطية. بعبارةٍ

أخرى: لقد استهلكت للتوِّ ما يقرب من ٣٠ بالمائة من ميزانيتنا للكريسماس وما زال ويس يواجه احتمال عدم وجود هدايا له تحت الشجرة، بما في ذلك عدم وجود شيء واحد يعمل بـ «موت كاترول». ليس هذا وحسب؛ فبعد تفحُّص طلبي من البضائع الألمانية، أدركت أن ما كنت بحاجةٍ إليه حقًّا هو هدايا غير صينية كبيرة للأطفال، والتي كان العثور عليها في رأيي أصعب من العثور على الهدايا الصغيرة.

وهناك أيضًا مسألة الأصدقاء والأقارب الذين سيرسلون إلينا هدايا، آملين على نحوٍ محتمل أننا سوف نرسل شيئًا إليهم، على الرغم من أنني كنت أُفضِّل عدم التفكير في ذلك في هذا الوقت؛ فلديَّ ما يكفيني.

بدأت أُشفِق على نفسي؛ لذلك اتصلت بأمي، على أمل أن تُشفِق عليَّ أيضًا.

قالت لي بعد أن شكوت لها أنني أُنفِق الكثير من المال مع قليلٍ من النتائج حتى الآن: «آمل بالتأكيد أنكِ لا تفكرين في التوفير فيما يخص لُعَب الطفلين؛ فرغم كل شيء، كانت هذه السنة طويلةً بالنسبة إليهما، فقد كانا …»

توقفت أمي عن الكلام، فأنهيتُ عبارتها بدلًا منها.

قُلتُ متسائلة: «محرومين؟ يمكنكِ أن تقوليها.»

فقالت: «لم أستخدم هذه الكلمة، بل أنتِ من قلتِها.»

صحيح أنها لم تقل هذه الكلمة في الواقع، ولكني كنت أسمعها على أي حال، بصوتٍ عالٍ وواضح.

اشتريت ثانيَ حذاءٍ لي في هذا العام، حذاءً جلديًّا دون كعبٍ من البرازيل بسعر ٢٩ دولارًا. وصل إجمالي إنفاقي على الأحذية لهذا العام حتى الآن، دون احتساب الضرائب والشحن، إلى ٣٩ دولارًا مقابل ثمن هذا الحذاء وثمن الحذاء القطيفة ذي الرقبة القصيرة الإسرائيلي البالغ عشرة دولارات الذي اشتريته قبل أشهرٍ من متجر يبيع أحذية مصنوعة من الألياف الصناعية. لم أكن أعرف ما سيحدث في الأسابيع التالية، عندما يهزمنا الإنفاق من ميزانية الكريسماس المدفوع بالذعر على لُعَب الطفلين الكبيرة المفترض أنها ألمانية، إلا أن المقاطعة وفَّرت لي مبلغًا صغيرًا جرَّاء الابتعاد عن شراء عديدٍ من الأحذية المصنوعة في الصين.

وجدت هدية غير صينية كبيرة ممتازة لِويس. علَّقتُ آمالي بشيء يُسمَّى «سيارة البلازما»، وهي سيارة حديثة يمكن ركوبها تعمل بالجاذبية وقوة الطرد المركزي وتتحمَّل أوزانًا

تصل إلى ٢٠٠ رطل، وهو ما يعني أنني يمكنني ركوبها أيضًا. تخيلتُنا نمرح بحماسٍ بينما نتناوب الانطلاق بها في أنحاء المنزل. سألت كيفن عن اللون الذي يعتقد أن ويس سيفضله.

أجابني: «اطلبي اللون الأحمر.»

لا أستطيع أن أقول بقناعةٍ مطلقة إن سيارة البلازما ليست مصنوعة في الصين لأنني شاهدتها فقط على الإنترنت ولم تُتَحْ لي فرصة للاتصال للحصول على مزيدٍ من المعلومات. لكني أشعر بالتفاؤل حيال الاحتمالات لأن الشركة التي تصنعها كندية وتؤكد على هذه الحقيقة بشعار ورقة القيقب على موقعها على شبكة الإنترنت؛ لذا لم أشعر بأي قلقٍ عندما اتصلتُ بالمقر الرئيسي لشركة سيارة البلازما في أوتاوا صباح يوم الإثنين للحصول على تأكيدٍ بأن السيارات مصنوعة بالفعل في كندا.

قالت المرأة التي تجيب على الهاتف: «لا ليس في كندا، السيارات مصنوعة في الصين.»

وضعتُ السماعة في مكانها وقضيتُ بضع لحظاتٍ جالسةً إلى طاولة المطبخ مذهولة. واستقرَّت فوقي غمامة من الكآبة. التفتُّ وألقيتُ نظرة على التقويم الموجود على الحائط. يفصلنا عن الكريسماس أكثر من شهرٍ بقليل. كان حظ صوفي طيبًا من ناحية توافر نصيبها من الألعاب، حتى لو كانت لعبًا صغيرة. على الأقل سيكون لديها شيء تفتحه، وربما كانت صغيرةً للغاية على أن تدرك أن مجموعتها من الألعاب الألمانية الرزينة تتسم بصغر الحجم.

لكني لم أشترِ شيئًا لكيفن، أو لأقاربي الآخرين، فقط لعبتين من لُعَب حوض الاستحمام لِويس، بما في ذلك القارب القادم من بولندا/الصين الذي ينبغي أن أعيده مرةً أخرى. بالنسبة إلى ويس، لن يوجد سيف مضيء، ولا إنسان آلي، ولا أصفاد، ولا سيارة بلازما.

نظرتي إلى التقويم دفعتْني للتفكير في مناسبةٍ أخرى قريبة للغاية تحتاج عمومًا إلى كثيرٍ من لُعَب الأطفال الصينية، على غرار الكريسماس. سوف يبلغ ويس خمسة أعوام خلال أقل من أسبوعين؛ وهو ما لا يحتمل سوى معنًى واحد:

كارثة.

قال كيفن: «دعينا نذهب لإلقاء نظرة. ربما لن يكون بهذا السوء.»

رأى كيفن أننا يجب أن نذهب للتسوق من أجل عيد ميلاد ويس في موقع يقع في الجوار خاص بسلسلة متاجر ألعاب إقليمية. قلت إننا سوف نُهدر وقتنا.

ثم استطردتُ قائلة: «لقد تفحَّصتُ لُعبًا هذا العام أكثر مما تفحَّصتَها أنت. صدِّقني، لن نجد أي شيءٍ سوى حفنةٍ من الأشياء الصينية هناك. لا جدوى من ذلك. اللُّعَب تأتي من الصين، هذه نهاية الكلام. هكذا هي الحال.»

أصرَّ قائلًا:

«إني أقول إنه يستحقُّ أن نُلقيَ نظرة.»

وافقت على الذهاب معه، والسبب الرئيسي هو توفير الدعم العاطفي الذي سيحتاجه عندما يكتشف بنفسه مدى فداحة وضع اللُّعَب، وأيضًا لكي أستطيع أن أخبره أني قلتُ له ذلك؛ لذلك لم يكن أحد أكثر اندهاشًا مني مما حدث بعد ذلك. لم نكن قد أمضينا سوى عشر دقائق داخل المتجر عندما بدأنا نجد الألعاب غير الصينية التي قضيت العام بأكمله بحثًا عنها ولم أكن أجدها إطلاقًا تقريبًا. في غضون دقائق كان يوجد في سلتنا لعبتان: نَبْلَة من تايلاند ومجموعة من كتب ألغاز المتاهة من إسرائيل.

لم يكن ينبغي أن أتفاجأ بتغيُّر حظنا؛ فكيفن يمتلك موهبة الاصطدام بما هو غير متوقَّع؛ فمنذ سنوات، في رحلةٍ إلى هاواي، كنت أنا وكيفن نَسبَح في مياه ضحلة عندما انتهى بنا الأمر في وسط مجموعةٍ من السلاحف البحرية. اصطدم كيفن بواحدة، ولم أعرف مَن كان أكثر اندهاشًا، كيفن أم السلحفاة. وعندما وصلنا إلى الشاطئ، قالت زوجة أخي كيفن متبرِّمة: «لقد حدث ذلك لأن كيفن كان هناك. يذهب الأشخاص الآخرون للسباحة ويرَوْن عددًا قليلًا من الأسماك. أما أنتِ فتذهبين للسباحة مع كيفن ويتحوَّل الأمر إلى فيلم وثائقي عن الطبيعة.»

يصادف كيفن فعليًّا أيضًا رجال السياسة (حسنًا، أحد رجال السياسة، السناتور الراحل بول سايمون، الذي بدا خائفًا عندما رآه كيفن في المطار وهتف «بول سايمون!»)، والمصارعين المحترفين (حسنًا، أحد المصارعين المحترفين، سارجنت سلوتر، الذي سحق أصابع كيفن أثناء مصافحته بعد لقاء مفاجئ في موقف للسيارات)، ونجوم موسيقى الروك (حسنًا، أحد نجوم موسيقى الروك، جوناثان ريتشمان، الذي جلس بجانبه في إحدى الحانات وربما لم يكن أحد نجوم موسيقى الروك له متابِعون أكثر منه)، ورؤساء أوروبا الشرقية (حسنًا، واحد منهم على أي حال، فيكتور يوشينكو، الرئيس الأوكراني الذي تحوَّلت بشرته إلى اللون الرمادي وامتلأت بالبثور بعد أن تعرَّض للتسمم؛ إذ التقى به كيفن في الشارع الصيف الماضي في باريس، وقال إن الرجل بدا أشدَّ مرضًا مما يبدو على شاشة التليفزيون). وفي عالم الحيوان، اصطدم كيفن بدببة ودلافين وسلاحف بحرية وأغنام برية أيضًا. عندما تكون مع كيفن، لا تعرف أبدًا ما سيحدث.

هذه نقطة تنطبق على رحلتنا إلى متجر اللُّعَب؛ حيث أوحت الأشياء القادمة من تايلاند وإسرائيل إلى أن كيفن سوف يُنقِذ عيد ميلاد ويس؛ وهو ما يعني أنه قد يُنقِذ الكريسماس له أيضًا. وقد بدأ كيفن لتوِّه؛ فطلب من الفتاة البائعة السماح له بإلقاء نظرة على بندقية معروضة على الحائط في مكانٍ عالٍ. أعتقد أنه كان يُجرِّب حظه.

همست لكيفن بينما ذهبت الفتاة لإحضار سلم: «لا يمكن أن تكون هذه البندقية مصنوعة في أي مكان غير الصين. يجب ألَّا تجعلها تتسلق إلى هناك.»

قدَّمَت الفتاة البندقية لكيفن الذي ألقى نظرة فاحصة على غلافها.

وقال: «تايلاند.» وألقاها في سلة المشتريات والزهو ينضح على جبينه.

بعد ذلك تجوَّل مُلقيًا نظرةً على الألغاز. والتقط واحدًا مرسومًا عليه فارس من العصور الوسطى وقذفه في السلة.

وقال متفاخرًا: «أمريكا.»

بدأتُ التفكير في أنه ربما لا توجد مصاعب شديدة في مقاطعة الصين. ربما أنني السبب. ربما تكون غرائزي الشرائية سيئة، أو أنني أتسم بسوء حظ، أو أن غرائز كيفن الشرائية جيدة ويتمتع بحُسن حظ.

أيًّا كان ما في الأمر — حظ أو غريزة — فإنه اليوم أنقذ عيد ميلاد ويس.

شهد كيفن معركة بين سيدتين أرستقراطيتين في متجرٍ أرستقراطي لأدوات المطبخ حيث ذهب للبحث عن أداة لمساعدتي في صنع عجينة الفطائر. أراد أن يُقدِّمها لي في الكريسماس.

كيفن لا يمانع الشراء من المحلات التجارية الأرستقراطية، إما لأنه لا يُدرِك هذا أو لأنه ببساطةٍ لا يهتم به بشكلٍ أو بآخر، ولم تخرج هذه الزيارة عن هذا النهج. قادتْه إحدى البائعات الأرستقراطيات إلى قسم الخَبْز وأحضرَت الأداة التي يريدها. ثم تذكَّر كيفن المقاطعة وفحص الملصق عليها.

وقال لها: «عذرًا، لا يمكنني شراؤها؛ فأنا لا أشتري الأشياء المصنوعة في الصين.»

رمقتْه البائعة الأرستقراطية بنظرةٍ باردة — وهي سمة مميزة لهؤلاء البائعات — وسمعتْ تعليقَه مصادفةً سيدةٌ أرستقراطية أخرى، كانت عميلة تسير في الممر.

«هذا جيد.» قالتها السيدة بصوتٍ مدوٍّ لا يَصدُر إلا عن امرأةٍ اعتادت أن يكون العالم بأكمله طوع بنانها، ثم أضافت: «يمكنك الذهاب إلى وول مارت إذا كنت تريد الأشياء التي يصنعها العمال الصينيون العبيد. هذا ليس سبب قدومنا إلى هذا المكان.»

أعجبتْني هذه القصة، فسألت كيفن:

«ماذا قالت السيدة الأرستقراطية الأولى بعد ذلك، تلك التي تعمل في المتجر؟ كيف ردَّت على ذلك؟ أم كادت تموت غيظًا وحسب؟»

أجاب: «لم تقل أي شيء.»

فسألته: «كيف يمكن أنها لم تقل أيَّ شيء؟ لا بد أنها قالت شيئًا.»

هزَّ كتفيه في لامبالاة. ضغطتُ عليه من أجل مزيدٍ من التفاصيل؛ فهذا مشهد رائع — سيدة أرستقراطية تتعالى عليها سيدة أرستقراطية أخرى — أريد أن أعرف كل شيءٍ بالتفصيل.

«حسنًا، كيف كانت تعبيرات وجهها حينها؟ هل كانت تشعر بالمرارة؟ هل ثار جنونها؟»

هزَّ كتفيه مرةً أخرى.

فسألتُه بعدها: «هل وقفتم أنتم الثلاثة تنظرون بعضكم إلى بعض؟»

فقال: «ابتعدتُ فحسب. وعندما غادرت، كانت كلتاهما تقفان في صمت.»

استلقيت للخلف حاملة كأس نبيذ وأعدت تكرار هذا المشهد في رأسي. كان من الأفضل أن أحصل على مزيدٍ من التفاصيل بالطبع. تمنيت لو أنني كنت هناك أيضًا. إنني أحتاج حقًّا أداةً لمساعدتي في صنع عجينة الفطائر، ولكني أعتبر هذه القصة تعويضًا كريمًا بدلًا منها، انتقامًا لطيفًا ضد كل بائعات المتاجر الأرستقراطيات اللاتي لاحقنني أثناء الخروج من متاجرهن بنظراتٍ غاضبة. اعتبرتها هديةً لي من مقاطعة الصين، أفضل من عجينة فطيرة جيدة في أي يومٍ وأحلى لأنها لم تُكلفنا شيئًا.

استغلت أمي مناسبة عيد ميلاد ويس الذي بلغ من العمر خمس سنواتٍ لتوضِّح من جديدٍ شعورها حيال المقاطعة؛ مقاطعتي.

أزالت أمي ملصق «صنع في الصين» من صانعة الوافل على شكل سكوبي دو، ولكن استخدمتْ تقنية مختلفة لتغيير العلبة الخارجية التي تحتوي على كيس النوم الصيني الذي أحضرتْه لويس؛ استخدمتْ قلم تلوين أسود لتغيير الحروف المطبوعة بحيث أصبحت الآن «صنع في شيلي». كانت لا تزال تُصر على أنني صعبة المِراس ولن أقبل الهدايا الصينية، على الرغم من أنني قد شرحتُ في مراتٍ كثيرةٍ أن هذا ليس هو الحال وفقًا لقاعدة إعفاء الهدايا من المقاطعة.

قالت لي عبر الهاتف: «أوه، أعرف كيف تشعرين حيال هذه الأمور. لا يمكنكِ خداعي.»

أحضر جميع الضيوف لعب أطفال صينية للحفلة، بما في ذلك حقيبة ظهر عليها بطل خارق ومجموعة من لُعَب الأبطال المنقذين. استسلمتُ أمام هذا التسرُّب المتوقَّع للمنتجات الصينية إلى المنزل واستخدمتُ المناسبة للنظر إلى الجانب المشرق؛ فشطبت حقيبة الظهر التي عليها صورة بطل خارق وأدوات البطل الخارق من قائمة ويس لسانتا.

وعلى غرار إسرائيل وتايلاند، ساعدت المكسيك في إنقاذ اليوم. نفخ كيفن ما لا يقل عن مائة بالون مكسيكي ونثرها حول المنزل. واستخدم الأطفال مضربًا لتدمير تمثالٍ مكسيكي على شكل ديناصور مليء بالحلوى. وهذه المرة، أعدنا الضيوف إلى منازلهم حاملين أكياس حفلات تحتوي على شاحنات ليجو دنماركية. شعر ويس بسعادة غامرة حيال كومة اللعب، وكان سعيدًا إلى حدٍّ واضح بالنبلة التايلاندية، التي كان يستخدمها لرشق أخته بكراتٍ من الفوم عندما لا نكون منتبهين.

إذن، أنهينا نوفمبر بنجاح؛ تقريبًا بنجاح، على أي حال.

في آخر ليلةٍ من شهر نوفمبر، بينما يحوم الكريسماس حولنا كروحٍ شريرة، ذكَّرني ويس بأن كل شيءٍ ليس على ما يُرام، وأن هذا ليس بالوقت المناسب للاعتماد على ما حققناه من نتائجَ جيدةٍ في عيد ميلاده.

فقال وأنا أضعه في السرير: «اقترب الكريسماس للغاية يا أمي. وهذا يعني أن سانتا سيأتي قريبًا وسوف يجلب لي كل ما أريد. حتى السيف المضيء.»

الفصل الثاني عشر

نهاية الطريق

كنت قد مصصت حلوى قصب السكر الخاصة بي وحوَّلتها إلى ما يُشبه الخنجر الهش المصنوع من السكر الأحمر والأبيض عندما فكرت أن أُلقيَ نظرة على أنقاض علبة الحلوى المبعثرة بجانبي على الأريكة.

كان قرارًا مرتجلًا. ولم أعرف لماذا فعلتُ ذلك. لا يوجد أي سبب منطقي للتفكير في أن هذه الحلوى قادمة من الصين. لم أكن حتى أفكر في المقاطعة. كنت أستمتع بمشاهدة الأطفال يُعلقون الحلوى على فروع شجرة الكريسماس المنخفضة وأتساءل هل كلبنا ريك — الذي يعشق الحلويات ولا تردعه الأغلفة البلاستيكية — سيخلعها عن الفروع في الأيام التالية. كانت لحظةً من اللحظات النادرة التي لا أفكر فيها في الصين؛ لذا ربما أنني لم أكن أتصرَّف إلا بحكم العادة عندما مددتُ يدي إلى العلبة الممزقة القابعة على بُعد بضع بوصات من يدي وأمسكتها وقلبتها.

لسعني النعناع في فمي عندما قرأت الملصق. جلست وحدقت في الكلمات. «صنع في الصين.» لا بد أنهم يمزحون معي.

كنت أعتقد أني أصبحت خبيرةً في المنتجات الصينية، أو على الأقل قريبة جدًّا من ذلك. لُعَب الأطفال الصينية، والأحذية الصينية، والأدوات الصينية، والمزيد من لُعَب الأطفال الصينية، والإلكترونيات الصينية، والأمتعة الصينية، والملابس الصينية المناسبة لجوينيث بالترو، ثم المزيد من اللُّعَب الصينية؛ كل هذه الأشياء كنت أتوقَّعها، لكن حلوى صينية من المتجر بسعر ٩٩ سنتًا للدستة؟ لم أكن أتوقَّع قط أن أراها، ليس هنا في غرفة معيشتنا، وليس الآن، في الأيام الأخيرة من المقاطعة.

اعتقدتُ أننا أصبحنا خبراء في تجنُّب البضائع الصينية. واعتقدت أننا تعلَّمنا بعض الأمور منذ يناير، وأننا يمكن أن نُدبِّر أمر مقاطعة مثالية ونحن نسير بسرعةٍ نحو خط

النهاية. لكن علبة الحلوى الصينية توحي لي بخلاف ذلك. ما زلنا هواة، حتى في هذا الوقت المتأخر، جاهلين بالبضائع الصينية الكامنة في المتجر ومهملين في فحص البطاقات التجارية. توقفتُ عن التفكير. كنت قاسيةً للغاية على نفسي. كان ينبغي أن أقول إن الحلقة الأضعف لا يزال هاويًا. رغم كل شيء، كانت الحلوى فكرة كيفن. كان يعتقد أنها قد تعيد إحياء الشجرة الحزينة ذات الأضواء الصينية القديمة القابعة في ركن غرفة معيشتنا.

دعوته إلى المطبخ في الحال: «مهلًا، كِيف، هل يمكنني أن أُريَكَ شيئًا؟»

دلف كيفن إلى المطبخ واضعًا منشفة أطباقٍ على كتفه وكان قميصه مغبرًا بالدقيق من الأمام جرَّاء خبز رقائق البسكوت مع الأطفال. قطَّب جبينه أمام الصندوق الفارغ الذي لوَّحت به أمامه، ثم اجتاحته موجة من عدم التصديق عندما فهم ما أقصده. كان بالفعل شاحبًا جرَّاء عدم التعرُّض للشمس بما فيه الكفاية. وبدا في هذه اللحظة أكثر شحوبًا.

ثم قال: «لا، لا أصدق ذلك. أنتِ تمزحين بالتأكيد.»

نظرت إليه نظرة لئيمة، ثم قلت:

«أتمنى أن يكون الأمر كذلك.»

«حلويات؟ من الصين؟» قالها برسمية غريبة جعلتْه يبدو بريطانيًّا. «لم يكن لديَّ أي فكرة. لم أفكر حتى في إلقاء نظرةٍ على العلبة.»

فكرت في نفسي أن هذا واضح.

قلت له: «لا يمكنكَ أن تكون بالغ الحذر، خصوصًا عند اقتراب الأعياد.»

هزَّ رأسه وعاد إلى المطبخ، مغمغمًا بكلماتٍ لنفسه.

سمعته يسأل جدران الغرفة الأربعة: «مَن يظن أن حلويات الكريسماس تأتي من الصين؟»

ليس أنا، ولا الحلقة الأضعف أيضًا. لن يحدث أبدًا.

عزوت فعلة كيفن الخرقاء مع الحلوى الصينية إلى سببٍ مثير للسخرية: إنها الثقة المفرطة في قدراته على مراوغة الصين. بالتأكيد، كان قد بدأ يشارك بحماسٍ في المقاطعة في الآونة الأخيرة، لكنَّ تصرفاته في هذا الصدد بدتْ تتسم بالغرور والاستهتار. إنه يستعرض بالمقاطعة. أعلم ما يحدث قبل السقوط — التفاخُر — ولكن كيفن نسي هذه القاعدة

الأساسية في كل مرة كان يعود فيها إلى المنزل حاملًا المزيد من بضائع الكريسماس غير الصينية أمامي، مع ابتسامةٍ ماكرة على وجهه. كان كيفن أفضل مني في مقاطعة الصين، وكان يحرص على ألا أغفل عن هذه الحقيقة.

خذ مثلًا رحلته إلى متجر اللعب في وقت سابق من هذا اليوم. مع بقاء ٢٢ يومًا فقط للتسوُّق قبل الكريسماس، ذهب ليتجوَّل في متجر اللُّعَب نفسه الذي حالفه فيه الحظ قبل عيد ميلاد ويس. وبعد نصف ساعة، دخل من الباب حاملًا مجموعة بيسبول من تايلاند، ولعبة القرود الساقطة من رومانيا، ومجموعة من ملصقات السقف التي تتوهَّج في الظلام على شكل نجوم من أوروجواي، ومزيدًا من كتب ألغاز المتاهة من إسرائيل. وأيضًا كانت هناك مجموعة من السيوف الملوَّنة المصنوعة من الفوم، وقرص دائري صُلب يتمدَّد ويتحوَّل إلى منشفة مرسوم عليها ديناصور بعد نقعه في الماء من تايوان.

نفخ صدره مثل الديك وهو يُفرغ حقيبة التسوق على طاولة المطبخ حتى أتمكَّن من رؤية ما أحضره.

قلت: «لا أستطيع أن أصدق ذلك ...» كنت أقول ذلك لنفسي أكثر مما كنت أقوله له. «كيف وجدت هذه الأشياء؟»

فقال لي: «الأمر بسيط للغاية. ينجح الأمر على نحوٍ أفضل عندما تسترخين وتتركين اللُّعَب غير الصينية تأتي إليك بنفسها. لا يمكنكِ الإفراط في بذل جهد. عليكِ أن تَدَعِي هذه الأمور تحدث من تلقاء نفسها.»

شعرت بقليلٍ من الغَيرة. حسنًا، بل كثير من الغيرة. أحضر كيفن كومة من اللعب غير الصينية التي تتضمَّن لُعَب أطفال كبيرة وملوَّنة قد يلعب الأطفال بها فعليًّا، على النقيض من صندوق الهدايا الألمانية الرزينة والحسنة الذوق الصغير الذي أحضرتُه. أنفقت ما يقرب من مائتي دولار على محتويات ذلك الصندوق الصغير. ألقيت نظرة على إيصال رحلة تسوُّق كيفن. في مقابل ٩٣ دولارًا أمَّن لويس هدايا الكريسماس، التي تضمَّنت لُعبًا كبيرة.

كان بإمكاني أن أَذكر لكيفن أن السيوف التايوانية المصنوعة من الفوم ليست مثل السيوف المضيئة الصينية التي تعمل بالبطاريات. السيوف المصنوعة من الفوم لا يمكن أن تؤذيَ أي شخص فعليًّا. أعتقد أن من الممكن افتراض أنه ما من أحد فقدَ عينه من قبلُ بسبب سيفٍ مصنوع من الفوم. ولست متأكدةً من أنه يمكن قول الشيء نفسه عن السيوف المضيئة البلاستيكية الصُّلبة الحقيقية. وأيضًا هذه السيوف الآمنة القابلة للثني

المصنوعة من الفوم غير مدرَجة على قائمة أمنيات ويس لسانتا، وهو العامل الإضافي الذي يمكن أن يُقلل من جاذبيتها في عينَيْ ويس صبيحة الكريسماس. كما آثرت الصمت حيال واقعة إلقاء ويس نظرةً واحدةً على كتب ألغاز المتاهات الإسرائيلية التي تلقاها في عيد ميلاده، ثم إلقائها جانبًا، ومنذ ذلك الحين لم يمسَّها مرةً أخرى؛ مما يشير إلى أن كتب ألغاز المتاهات الجديدة أيضًا ربما تكون مُملة.

وإذا كنتُ سأفعل ذلك، يمكنني أيضًا أن أُخبِر كيفن أنه إذا كان يتوقع فرحة كبيرة من ويس حيال منشفة الديناصور المتمددة التايوانية، فربما عليه إعادة التفكير مرةً أخرى. تنص علبتها على أنها منشفة، ولكن أبعادها النهائية تشير إلى أنها ستكون أقرب إلى منشفة وجه بعد أن تتمدَّد لحجمها الكامل، وهي النقطة التي لن يغفل عنها ويس.

كما لم أرَ أي شيء في حقيبة كيفن يحمل رسمة بطل خارق، أو أي شيء ذي عجلات، أو أي شيء يعمل بوحدة تحكُّم عن بُعد. ولا يوجد أي علامة على سكوبي دو أو إنسان آلي ولا يوجد شيء واحد يُصدر ضوضاء، وخلُصتُ من ذلك إلى أنه مثلما ستخلو صبيحة كريسماس ويس من الأشياء الصينية، فإنها ستخلو أيضًا من أشياء كثيرة أخرى.

ترفَّعتُ عن الأمر، وتركت كيفن يستمتع بفرحته، واحتفظت بأفكاري لنفسي. وقلت لنفسي إنه عاجلًا أو آجلًا سوف تعيده المقاطعة إلى حجمه الطبيعي وسوف يتعلم بالتجرِبة المؤلمة — كما حدث معي — أن الصين تُهيمن على الكريسماس، على الرغم من امتلاكه لزوجٍ من السيوف التايوانية المصنوعة من الفوم وقليل من الحظ الحسن من إسرائيل وأوروجواي. حين يحين ذلك سيشعر كيفن بالتواضع، ولا محالة من أن هذا سيحدث.

أتت لحظة تواضُع كيفن في وقتٍ أقرب مما كان متوقَّعًا. أتت في تلك الليلة، بعد ساعات من عودته مبتهجًا من متجر الألعاب، عندما مددتُ يدي بذهولٍ لأشلاء صندوق الحلوى وكشفت حقيقة دخول الصين في صناعة حلوى الكريسماس.

أو كما يُسمِّيها كيفن، الحلويات.

كانت هذه أولى اللحظات المُوهنة من بين عدة لحظات في الأسابيع التي سبقت الكريسماس.

كبداية، اكتشفنا أن تمثال الفارس البلاستيكي الذي جاء داخل الصندوق الذي كان يحتوي على لعبة الألغاز في عيد ميلاد ويس — والذي يُفترض أنه أمريكي — كان مصنوعًا في الصين. فات أوان إعادة اللغز؛ فقد بدأ ويس بالفعل يُضيِّع قطع اللغز، بما في ذلك

القطعة التي حشرها في الصدع الموجود في بيت الدرج المؤدي إلى غرف النوم في الطابق العلوي. لم يستقبل الخبر في رضًا عندما شرحت له أن هذه القطعة ستبقى هناك إلى الأبد.

تجمدتْ شاشة التليفزيون وأنا كيفن في منتصف لغز جريمة قتل. ضغطنا على جهاز التحكم عن بُعد الخاص بمشغل أقراص دي في دي من زوايا مختلفة ولكن لم يفلح ذلك في إعادة تشغيل الفيلم. أجبرَنا هذا التوقُّف على ترك الفيلم متوقفًا عند مشهد الأرستقراطي الإنجليزي المُعلَّق من معصمَيه مسدود الفم والقاتل طليق؛ حيث أسرع كيفن إلى راديو شاك لمعرفة هل يمكنه الحصول على جهاز تحكُّم عن بُعد جديد أو إصلاح القديم. وبينما كان يقف في الطابور، رأى مجموعات كبيرة من مشغلات دي في دي جديدة صينية الصنع تباع بمبلغ ٢٩ دولارًا.

قال الرجل العامل في راديو شاك لكيفن: «ليس العطل في جهاز التحكم عن بُعد. أنت في حاجة إلى مشغل أقراص دي في دي جديد.»

غادر كيفن المتجر خاليَ الوفاض.

كانت نتائج هذا الأمر كارثيةً بالكاد؛ فبعد أن عاد كيفن إلى المنزل اكتشفنا أن مشغل أقراص دي في دي لا يزال يعمل، ولكن كل ما في الأمر أنه لا يستجيب لجهاز التحكم عن بُعد؛ وهذا يعني أننا يجب أن ننهض عن الأريكة من أجل الضغط على أزراره يدويًّا. وطوال بضعة أيام راح كيفن يُبدي ملاحظات تنضح بالمرارة حول مشغلات أقراص دي في دي الصينية التي تباع بسعر ٢٩ دولارًا فقال: «كأن الأجهزة كانت تستفزني.» ولكن اختفت المرارة التي كان يشعر بها، وبعد ذلك لم يذكر هذه المسألة مرةً أخرى.

دُعي ويس إلى حفلة عيد ميلاد أخرى. وعاد منها بلعبة من ليجو حصل عليها كهدية. أقيمت الحفلة في استوديو رسم حيث علَّمَت امرأةٌ الأطفالَ كيفية رسم صورة لشيءٍ يختاره صاحب عيد الميلاد. وعندما عاد ويس إلى المنزل أراني رسمه لوحش ذي أجنحةٍ وذيل أفعواني ينفث نيرانًا من فمه.

وقال: «إنه تنين صيني؛ فالتنانين تعيش في الصين.»

كان أفضل رسم رسمه ويس على الإطلاق. أَلصقتُ رسمة التنين على جدار المطبخ وحاولت تجاهل شعوري بأنه يراقبني من الخلف بينما أغسل الأطباق.

ظهر صندوق صابون من شركة تُدعى سوبس جن باي في هرسبورج بإلينوي («حيث يمكن العثور على صابون الأمس اليوم!») على درجات سُلَّم المنزل الأمامية في ظهيرة أحد الأيام. كان الصندوق مُرسَلًا إلى كيفن، الذي أخبرني بالفعل أن أتوقَّع وصوله

وما كان يحتوي عليه: عشر قطع من صابون فيلز نفثا، كهدية لي في الكريسماس. الصابون مصنوع في الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكنه إزالة أي بقعة تقريبًا، وربما يكون سامًّا، وربما قابل للاشتعال، ويعيش إلى الأبد تقريبًا. اشترينا قطعةً واحدة من صابون فيلز نفثا منذ نحو ١٥ عامًا ورُميت القطعة الصغيرة التي تبقت منذ بضعة أشهر، عندما أصبحت صغيرة للغاية لدرجة لا يمكن إمساكها.

حدَّقت في ملصق سويس جن باي على الصندوق، وحاولت السماح لحقيقة ما حدث بالظهور. زوجي — الرجل الذي جلب لي في السابق زهورًا وملابس داخلية إيطالية ومنامة فرنسية — اشترى للتو صابونًا سيعيش لمدة ١٥٠ عامًا، ربما يكون سامًّا، هدية لي في الكريسماس.

إنها ليست حتى مفاجأة.

جذبَت انتباهي رسالة مُرسَلة إلى مُحرِّر في إحدى الصحف المحلية.

كان عنوانها: «انسَ الصين، وتذكر الكريسماس.» بدأ الكاتب بوصفٍ موجز لسوء تصرفات بعض المتسوِّقين في العيد، وبعد ذلك عاد إلى شكواه الرئيسية: الصين تستولي على الكريسماس.

كان بإمكاني أن أخبره بذلك.

كتب جيم إيه يقول: «اليوم ليس العمال الأمريكيون والمصانع الأمريكية هم مَن يستفيدون من موسم الكريسماس، إنما المستفيد هو عدونا، الصين «الحمراء» الشيوعية ... بالنسبة إلى الصينيين، يمثل الكريسماس وقت الاحتفال بتراكم المزيد من الثروة الأمريكية في خزائنهم؛ فلأسبابٍ لا يمكن تفسيرها، منحنا الوصول الكامل والشامل للصين الشيوعية إلى أسواقنا الاستهلاكية ... قبل بضعة أشهر فحسب، اشترت الصين شركة آي بي إم. وكانت تضع عينيها أيضًا على أونوكال ومايتاج. وما هذه إلا بداية غزو المشاريع التجارية الصينية الحمراء لأمريكا.»

بعد ذلك، انتحب جيم إيه قائلًا: «لقد عُهِد بسانتا كلوز إلى الصين.» وحثَّ القراء على تذكُّر الدلالة الدينية للعيد وأشار إلى أن فعل أشياء تخالف هذه الدلالة يعني مواجهة اللعنة الأبدية.

أثار خطاب جيم إيه أعصابي، من وجوه عدة؛ أولًا: أنفعل قليلًا عندما يبدأ شخص في ذكر اسم يسوع، واسع الغفران، بينما في الوقت نفسه يُلقي بكلمة «عدو». كانت أمي

ستردُّ على هذه النقطة بحديث مسهب لكنها ليست هنا؛ لذلك انتقلت إلى سبب امتعاضي الثاني من الخطاب: تهمة الشيوعية.

الصين ليست ديمقراطية — بل أبعد ما يكون عن ذلك، وأنا أرى أن ذلك مؤسف — ولكن هل كان جيم إيه مضطرًّا حقًّا لوصف الصينيين بـ «الحمر»؟ ليس الأمر أنهم ليسوا شيوعيين حمرًا، ولكن وصفهم بالحمر تنابز يوحي بالتفاهة، وهو أمر لا يفرق كثيرًا عما يفعله الأطفال الأشقياء في فناء اللعب ولكنهم في نهاية المطاف ينضجون، أو على الأقل نأمل أن ينضجوا.

لا يقتصر الأمر على ذلك، فوصف «الحُمر» هذا وصف مندثر، مثل امرأة لا تزال تستخدم تسريحة الشعر العالية التي تُشبه خلية النحل بعد ٤٠ عامًا من اختفائها من عالم الموضة. وهذا يوحي بعدم استعداد جيم إيه لقَبول تغيُّر العالم، أو أنه كان من الأساس أبعد ما يكون عن الكمال. لقد حكم جيم إيه على نفسه بخيبة أمل لو أنه كان يتوقَّع أن يُحسِن المتسوقون — من أجل مستلزمات العيد — في أنحاء البلاد التصرُّف في مراكز التسوق المزدحمة، أو تذكُّر المعنى الحقيقي للكريسماس عندما يتلقَّوْن تلك المطالب التجارية الصرفة، كالتي عبَّر عنها طفل يبلغ من العمر خمس سنوات لم يُخفِ رغبته في امتلاك شاحنة ضخمة تعمل بـ «موت كاترول»، والتي أُذكِّرك يا جيم إيه أنها تأتي من الصين.

كما شعرت أيضًا أنه من إساءة الأدب أن أقول للغرباء إنهم سوف يذهبون إلى الجحيم إذا لم يكبحوا جماح إنفاقهم على البضائع الصينية سريعًا.

أزعجني شيء آخر عندما ألقيت نظرةً على الرسالة، شيء أكبر وأكثر إثارةً للقلق، وهو حقيقة أنني أفعل حاليًّا بالضبط ما يحثُّ جيم إيه — الغاضب المطلِق لتهمة الشيوعية والمطلِق للألقاب — الجميعَ على القيام به؛ سواءٌ أكانت نتيجة ذلك جيدة أم سيئة؛ وهو كف يدي عن البضائع الصينية خلال الأعياد.

بدا أننا، أنا وجيم إيه، لدينا قليل من القواسم المشتركة. لا أعتبر الصينيين أعدائي. ولم يسبق لي أن وصفت أحدًا بأنه «أحمر». لقد تربَّيت على أيدي اثنين من دعاة السلام في ولاية كاليفورنيا. وتربَّى جيم إيه في منطقة «الحزام الإنجيلي». إننا حتى نقاطع الصين لأسباب مختلفة: فبالنسبة إليه، الأمر شخصي؛ فالصين الحمراء تُسيء إلى شخص جيم إيه، بينما أُحب أن أقول لنفسي إن مقاطعتنا الأسرية تجرِبة موضوعية في العولمة. بالتأكيد، أعاني نوبات ذعر من أن «الصين تُحكِم قبضتها على العالم»، خاصةً في مَمرِّ الألعاب

في المتجر، وخاصةً قبل الكريسماس، ولكن في جوهرها، مقاطعتنا ليست أمرًا شخصيًّا، لماذا؟ أحب أن أعتقد أنها «علمية» من الناحية التطبيقية. ومع ذلك، ففي مرحلة جنون الإنفاق على البضائع الصينية التي تصيب الناس قبل الكريسماس في أنحاء البلد، ربما أكون أقربَ مواطنٍ إلى النموذجية يمكن لجيم إيه أن يلتقيه.

لا أحب هذه العبارة الأخيرة.

في الآونة الأخيرة، كنت أتفكر فيما سألتْني عنه صديقتي منذ فترةٍ ليست بالطويلة: هل سنعود للتعامل مع الصين بعد انتهاء المقاطعة في ٣١ ديسمبر. دفعتْني رسالة جيم إيه في اتجاه إعادة التعامل مع الصين، ولو حتى نكايةً فيه، ولِكَي أُثبت لنفسي أنني لست مثله. هذا القرار سيأتي لاحقًا، بالتشاور مع الحلقة الأضعف، الذي أثق في أنه سيلوح للصين مرحبًا مرةً أخرى عبْر الباب الأمامي وكأنها صديق قديم.

في غضون ذلك، سأواصل فعل ما يُصرُّ جيم إيه أنه ينبغي على كل أمريكي فعله ولكن يبدو أنه ما من أحدٍ تقريبًا يفعله. سوف أتجنَّب هدايا الكريسماس الصينية كما لو أن نجاتي تعتمد على ذلك؛ وهي بالفعل تعتمد على ذلك من وجهة نظر جيم إيه.

صرخ كيفن: «لا تنظري داخل الكيس. لقد أحضرتُ بعض الهدايا لكِ فيه.»

اندهشت للحظات؛ فالكيس الذي وضعه للتوِّ على طاولة المطبخ من متجر أوفيس ديبوت. لا بد أنه يوجد خطأ ما؛ فورق الطباعة يأتي من أوفيس ديبوت. وخراطيش الطابعة تأتي من أوفيس ديبوت. والأقلام تأتي من أوفيس ديبوت. وهدايا الكريسماس من كيفن لي لا تأتي في أكياس أوفيس ديبوت، أو على الأقل لم تأتِ من قبلُ فيها.

سألتُه: «هل تعني أنه يوجد كيس آخر من مكان آخر داخل كيس أوفيس ديبوت؟ كيس به عِطرٌ ما، أو قُرطَا أُذُن؟ أو كتاب؟ أو وشاح؟»

لم يكن كيفن منصتًا إليَّ. كان يُصفِّر بصوتٍ منخفض للغاية ويفرغ كيس أوفيس ديبوت.

ثم قال: «أحضرت دباسة صغيرة للأطفال من ألمانيا، وأقلام تلوين من إيطاليا، وأقلامًا بألوان مختلفة لا أعرف مِن أين ولكنها ليست من الصين، وشريطًا لاصقًا عليه علامة أوفيس ديبوت التجارية مصنوعًا على ما أعتقد في الولايات المتحدة الأمريكية.»

كان يُخرج كل عنصر وهو يتحدَّث:

«ويوجد بضعة أشياء لك، فيها شيء مصنوع في كندا، ولا يزال في السيارة شيء كبير. وهكذا يصبح لك ثلاثة أشياء.»

ثلاث هدايا كريسماس لي من أوفيس ديبوت؟ لا أستطيع أن أفكر في شيءٍ واحد حتى من أوفيس ديبوت أرغب فيه في الكريسماس، ما لم يكن أوفيس ديبوت غيَّر معروضاته وبدأ يبيع العطور والأقراط والأوشحة وكتبًا تتناول مواضيع أخرى غير إدارة شئون الموظفين.

مدَّ كيفن يده في الكيس وأخرج مبراة ألمانية الصنع.

وقال: «الدقة الهندسية.»

وأمسك مجموعة من أوراق الملاحظات اللاصقة ثم قال:

«مصنوعة هنا في الولايات المتحدة الأمريكية.»

كانت حالة كيفن المعنوية مرتفعة. لم يَحدثْ قط في تاريخ أوفيس ديبوت أن أسعدتْ منتجاتُهم أيَّ شخصٍ سعادةً أكبر من سعادة كيفن. أخذتُ الكومة المتزايدة من الأدوات المكتبية من على طاولة المطبخ بابتسامةٍ مصطنعة، في محاولةٍ لكتمان شعوري البائس بالخوف لئلا يبدوَ في عيني.

قال كيفن: «واحد من الأشياء التي أحضرتها لكِ لم يكن عليها أي معلومات عن مكان صُنْعها، ليس على العلبة أو على الشيء نفسه، ولكني أحضرته على أي حال.» ثم نظر إليَّ وأشار بإصبعه وأضاف: «لأنكِ لن تستطيعي إثبات العكس.»

كنت أشعر بالإحباط، ولكن العبارة الأخيرة رفعت من معنوياتي قليلًا.

وبقليل من الانزعاج سألت: «مَن قال لك إنه لا يمكن إثبات العكس؟»

رد كيفن: «العلم.» ثم بدأ بإعادة الأدوات المكتبية الخاصة بالكريسماس إلى الكيس.

فسألتُه: «هل أنت متأكد؟ أليس الأمر أنه لا يمكنك إثبات أنها من الصين ولكن بإمكانك «فقط» إثبات أنها ليست من الصين؟ أم أن بإمكانك أن تدحض أنها من الصين؟ أعتقد أن هذا هو ما في الأمر.»

يحب كيفن النقاش الحيوي. وعادةً يلتقم الطُّعم هنا. سيبدأ بتذكيري أنه حصل على درجة امتياز في الفلسفة في الكلية وبعد ذلك نتجادل حول طبيعة النظريات العلمية حتى نتفق على الاتصال بأخي الأكبر، عالم الأحياء البحرية، للسماح له بحل هذه المعضلة، ولكن كان كيفن حَسَن المزاج إلى حدٍّ كبير في هذا اليوم؛ فتجاهلني وضم الجزء العلوي من كيس أوفيس ديبوت لإغلاقه. ثم غمز بعينه لي.

وأضاف: «أما بقية ما في الكيس هنا فهو منطقة محظورة عليك، حتى صباح الكريسماس. سوف أُخبئ كل هذا في خزانتنا. عِدِيني أنكِ لن تختلسي النظر فيه. ولا تسترقي النظر في السيارة أيضًا حتى أستطيع إخراج الشيء المصنوع في كندا منها.»

هززتُ رأسي موافقة. لا أشعر بالتأكيد بأي إغراء حيال إلقاء نظرة خاطفة على كيس أوفيس ديبوت، أو السيارة.

شق كيفن طريقه عبْر الصالة وتركني مع أفكاري، أو فكرتي الوحيدة، وهي أنه لم يُقدِّم لي قط صابونًا أو أدواتٍ مكتبيةً كهدية في الكريسماس طوال سبعة عشر عامًا من الزواج. ثم تذكَّرت أنه كان من المفترض أن يشترك لي في دروس العزف على البيانو مرةً أخرى هذا العام، التي تُرجمت في العام الماضي إلى عدم وجود هدية كريسماس على الإطلاق. بدا عدم وجود هدية كريسماس على الإطلاق أفضل على الدوام، لا سيما إذا كان البديل هو صابونًا وأدواتٍ مكتبيةً كندية. كان كيفن دائمًا يُقدِّم هدايا رائعة، وكان لديه ذوق جيد على نحوٍ مثيرٍ للدهشة في الملابس والأدوات المنزلية بالنسبة إلى رجل قضى الجزء الأكبر من حياته مرتديًا السراويل القصيرة الممزَّقة والشباشب. لم يكن عليه خوض كل هذه المعاناة؛ لأن دروس العزف على البيانو سوف تُخرجه من ورطته دون اضطراره إلى مغادرة المنزل. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث له؟

كان الجواب واضحًا حتى إنني أنَّبت نفسي على عدم رؤيته على الفور. ما حدث له هو مقاطعة الصين. لم يكن يفكر بطريقةٍ سليمة. إما هذا، وإما أنه يعتقد أن الصابون والأدوات المكتبية تُمثِّل هدايا جميلة في الكريسماس.

أرسل أخي الأصغر رسالة بالبريد الإلكتروني من ولاية كاليفورنيا يسألني عما يجب أن يرسله للأطفال من أجل الكريسماس.

كتب فيها: «أخبريني بما تريدينه أنتِ وكيفن أيضًا.»

لم يقل فعليًّا: «اكتبي قائمة وأرسليها إليَّ، في الحال.» لكن رسالته كانت تعني هذا ضمنًا.

في الظاهر، ليس هذا طلبًا غير معقول، حتى لو جاء في ١٦ ديسمبر، والذي يُعَد وقتًا متأخرًا للبدء في التفكير في الهدايا إذا فكرتَ في الأمر. أراد أخي إحضار شيءٍ يريده الأطفال في الكريسماس، بدلًا من ترك الأمر للصدفة وخوض رحلة مذعورة إلى تويز «آر» أص. هذا عادل بما يكفي. أكثر من عادل حقًّا، بل لطيف ومراعٍ للآخرين. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا اهتاج عقلي عندما قرأت بريده الإلكتروني مرةً أخرى؟

سأخبركم السبب.

أُكرِّر أنه كان يوم ١٦ من ديسمبر. لم يبقَ سوى ما يزيد قليلًا عن أسبوع على الكريسماس؛ فأخي — الذي يتمتع بسمعةٍ مستَحقَّة في التسوق في اللحظة الأخيرة —

يريد مني تزويده بقائمة مرتَّبة من البضائع المقبولة حتى يتمكَّن من تخصيص عشرين دقيقة من يوم عمله للتسوُّق عبر الإنترنت وينتهي من أمر العيد بحلول الساعة الخامسة عصرًا بتوقيت منطقة المحيط الهادئ. ويريد استخدام عقلي المشوَّش بالمقاطعة لمساعدته على القيام بذلك، «سريعًا». ولكن عقلي مستنفَد. لقد استنفدتُه في المحاولة الشاقة العصبية للمشاركة في أكبر انغماس استهلاكي في السنة دون مساعدةٍ من الصين.

كانت نتائج جهودي متفاوتة. أحضر كيفن سروالًا كمبوديًّا لي، وهو يُعَدُّ أكثر رومانسيةً قليلًا من الصابون والأدوات المكتبية التي سوف أتلقاها منه. وسيحصل كيفن من الأطفال على علبتين من الملابس الداخلية الباكستانية الرخيصة اشتريتُهما مقابل لا شيء تقريبًا في عرض تصفيةٍ في متجرٍ كبير متنوع الأقسام من الدرجة الثالثة. كانت أتعس تجرِبة شراء في ذكرياتي القريبة. كان عليَّ أن أختصر تسوُّقي للملابس الداخلية عندما بدأ مدمن مضطرب يتبعني عبر الممرات. وفي قسم ملابس الأولاد سمعتُ امرأةً ضخمة ذات وجه أحمر تقول لابنها الصغير إنها ستُلقيه خارج المتجر إذا فعل «ذلك» مرةً أخرى.

على المستوى الفعلي، أحضرتُ هدايا لجميع الأشخاص على قائمتنا: كُتُبًا لست متأكدةً من أنهم سيحبونها، وقمصانًا، وأطعمة فاخرة؛ هذه الأنواع من الأشياء. لقد أنفقت بالتناوب الكثيرَ من المال على بعض الأشخاص (سوف تحصل والدتي على وشاحٍ حريري رائع من الهند) والقليلَ للغاية على أشخاصٍ آخرين (أخويَّ، اللذين سيحصلان على قميصين من بنجلاديش؛ كان القميصان يبدوان جيدَين في المتجر، لكن حين وصلت إلى البيت لم أرَهما سوى قطعتي قماش مهترئتين). لم أتمكن من التوصُّل إلى أي شيء من أجل والدي وانتهى بي الأمر بشراء بطاقة هدايا له، فأصبحتُ معرَّضة لاحتمال أن يستخدمها في شراء شيءٍ مصنوع في الصين.

كان تأثير المقاطعة ضارًّا بسلوكي في التسوق على نحوٍ خفي؛ فقد أضعت كثيرًا من الوقت والمال في محاولة شراء لُعَب أطفال غير صينية لصوفي وَويس حتى لم يَعُد لديَّ سوى أفكار قليلة وأموال شحيحة لأي شخصٍ آخر.

لم يمنعني أيٌّ من هذا من الإنفاق. منذ بضعة أيام طلبت مهد دمية أمريكيَّ الصنع لصوفي من المنشور التسويقي الفاخر نفسه الذي أرسل إليَّ الأشياء الألمانية الصغيرة في العلبة التي تُشبه علبة الحذاء. كان منطقي مثيرًا للسخرية: كنت قلقة من ألا تتلقى صوفي شيئًا كبير الحجم تحت شجرة الكريسماس. هذا النوع من التفكير أطاح بميزانيتنا لهدايا

العيد التي كانت تبلغ ٦٨١ دولارًا. أعتقد أننا تخطينا هذا المبلغ بمائتي دولارٍ على الأقل، على الرغم من أني لم أمتلك الشجاعة للجلوس وحساب إجمالي الفواتير. شعرت بدوارٍ من التفكير في الأموال. لم أسمح لنفسي بتأمُّل فكرة «كلما زاد الشيء كان الأمر أفضل» الفاسدة التي نغرسها للأطفال. كنت أشعر بالتعب بدرجةٍ كافية فعليًّا.

كل هذه الأمور ليست خطأ أخي الأصغر؛ فقد كان غافلًا عن الضغوط التي تضعها مقاطعة الصين على عاتقي؛ حيث إنني أبقيت معظم الشكاوى لكيفن ووالدتي. كان أخي ضحيةً للمقاطعة بنحوٍ غير مباشر؛ فلم يكن يعرف أنها حولتْني إلى شخصٍ عصبي للغاية على استعدادٍ للهجوم على أول شخصٍ يطلب مني وضع قائمةٍ بلُعَبٍ للأطفال، وعلى الفور. ومع ذلك، كانت رسالته الإلكترونية مؤلمة. ألم يدرك ما كنت أصارعه؟ كيف يمكن أن يكون جاهلًا إلى هذا الحد؟ ألا يمكنه أن يدرك أن لديَّ مشكلاتي الخاصة بالكريسماس؟

لذا أعترف بأنني لم أكن منصفة. ولم أكن منصفةً عندما فعلتُ ما فعلتُه بعد ذلك. جلست أمام لوحة المفاتيح لبضع دقائق بعد وصول بريده الإلكتروني في صندوق الوارد وحدَّقت في الشاشة، ثم كتبت الرد.

بدأتُ بعبارةٍ ناقدة؛ قلت له لا داعيَ للقلق إزاء الهدايا لي ولكيفن في هذه المرحلة، قاصدةً أن الوقت قد تأخَّر على ذلك، ألا تظن ذلك؟ ثم أخبرته أن ويس سيُحب الحصول على شاحنةٍ ضخمة تعمل بجهاز تحكُّم عن بُعد. ودُمية على شكل طفلةٍ رضيعة ستكون مثاليةً لصوفي. وأضفت ملاحظة في النهاية طالبةً منه التأكد من أن الشاحنة والدمية ليستا مصنوعتين في الصين، وتمنيت له التوفيق. كانت هذه مناورة بارعة من النفاق والمعاملة القاسية أيضًا؛ حيث إن إعفاء الهدايا من المقاطعة يُخرج أخي من ورطته فيما يتعلق بلُعَب الأطفال الصينية؛ الأمر الذي لن يتذكره على الأرجح أثناء استعجاله المربك للتسوُّق في اللحظة الأخيرة.

لم يبقَ سوى تسعة أيام قبل الكريسماس. لقد طلبت للتو من أخي فِعل المستحيل: العثور على دمية وشاحنة مصنوعتين في مكانٍ آخر غير الصين، وبسرعة.

لست من النوع الذي يستمتع بتعذيب الآخرين، على الأقل ليس حتى وقتٍ قريب. لكن في بعض الأحيان عليك التلذُّذ بمتعتك حيثما تجدها.

عندما رن الهاتف بعد بضع ليالٍ، شعرت بأن شيئًا مروعًا قد حدث والتقطت السماعة بسرعة.

قال كيفن: «إنها السيارة التويوتا»، ثم أضاف: «لقد سُرقت. أحتاج شخصًا ليُقِلَّني.»

صدمتْني سخرية القدر على الفور كطنٍّ من الطوب؛ ففي الأيام الأخيرة من مقاطعة الصين، سُرقت سيارتنا من موقفٍ للسيارات تابعٍ لمطعمٍ صيني.

بدا كيفن مذهولًا بعد أن أقله أخي الأكبر وأوصله عند باب منزلنا. جلسنا على الأريكة وروى ليَ الأحداث التي أدَّت إلى اختفاء السيارة بالتفصيل.

كانت أسرة أحد طلاب الدراسات العليا في قسم كيفن في الجامعة قد دعتْه لتناول العشاء في مطعمٍ صيني. أمضى كيفن نحو ساعةٍ ونصفٍ في المطعم يتناول الدجاج الحار ويشرب الماء المثلج، وعند خروجه كانت السيارة قد اختفت. وأمضى ساعةً أخرى يدور في أرجاء موقف السيارات في المركز التجاري، أولًا في عربةٍ مع حارس أمن المركز التجاري، ثم مع نائب المأمور، بحثًا عن السيارة مع وجود الاحتمال غير الوارد بأن يكون قد نسي المكان الذي أوقفها فيه وأنه كان يبحث في المكان الخاطئ فحسب.

قال: «اختفت وحسب.»

فسألتُه: «هل أنت متأكد أنك لم تنسَ أين وضعتها؟»

ردَّ كيفن: «نعم، إن لم أكن فقدتُ عقلي، وأعني فقدان عقلي تمامًا لأنني متأكد من المكان الذي أوقفتُها فيه. هذا مؤكَّد.»

قال إنه كان متأكدًا من آخر موقعٍ معروف للسيارة؛ لأنه عندما وصل إلى المطعم الصيني كانت كل الأماكن في مرآبه مشغولة؛ لذلك قاد السيارة عبر شارعٍ جانبي ليوقف السيارة في مرآب مطعمٍ للمأكولات البحرية في المجمع التجاري نفسه، حيث كانت توجد كثير من المساحات الخالية. خرج من السيارة ونظر حوله ليرى هل توجد لافتة تخبره أنه لا يمكنه إيقاف سيارته هناك، إلا إذا كان سيدخل مطعم المأكولات البحرية وإلا فستُقطَر سيارته. لم تكن هناك أي لافتة. بعد ذلك ابتعد بضع خطواتٍ عن السيارة قبل أن يلتفَّ ويعود أدراجه للتأكد من أنه أغلق الأبواب. كان قد أغلقها. ثم غادر، مودعًا السيارة عن غير قصدٍ للمرة الأخيرة.

بعد العشاء، مشى حتى موقف سيارات مطعم المأكولات البحرية. لا بد أن العمل نشِط في مطعم الأسماك؛ لأن هذه المرة لم يكن في مرآبه سوى مساحة واحدة فارغة؛ المساحة التي ركن فيها سيارتنا التويوتا. عاد مباشرةً إلى المكان. ثم دار في جميع أنحاء المرآب للتأكد من أنه لم يكن مخطئًا، ولكن لم يكن يرى السيارة في أي مكان. وكان متأكدًا من المكان الذي من المفترض أن توجَد فيه. وأعاد المشهد في ذهنه مرارًا وتكرارًا.

قال: «هذا هو المكان الذي تركتُها فيه، ولكن عندما عدت كانت قد اختفت؛ لذا، ما لم أكن فقدت عقلي، فإنها سُرقت.»

جلسْنا وأعدْنا رواية التفاصيل لدرجةٍ مملةٍ حتى منتصف الليل تقريبًا، وعندما فكرت أخيرًا أن أسأله عن عشائه تهللت أساريره.

قال: «كان لذيذًا. كما أن ورقة الحظ التي وجدتُها في قطعة البسكوت التي تناولتُها أخبرتْني أن حظي سيكون رائعًا.»

دسَّ يده في جيبه وأخرج قصاصةً من الورق لكي أقرأ حظه بنفسي. كان مكتوبًا في الورقة: «ستحظى بعديدٍ من الأيام المبهجة قريبًا.»

وتحت تلك العبارة كان يوجد سلسلة من أرقام الحظ: ١، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٣٤، ثم — لسببٍ ما — ظهر العدد ٢٠ مرةً أخرى.

قلت: «مهلًا لحظة.».

أخذت ورقة حظ كيفن ونهضت ودخلت المطبخ للتحقُّق من التقويم المعلق على الجدار. إنه يوم ١٩ ديسمبر، يوم سعيد الحظ لكيفن، وفقًا لكعكة الحظ. هذا حدثٌ مهم. في الواقع هما حدثان مهمان؛ الأول: سُرقت سيارتنا للتوِّ للمرة الأولى على الإطلاق؛ ومن ثَمَّ انضممنا إلى صفوف الملايين من ضحايا جرائم السرقة العاديين. والثاني: أعتقد أننا كشفنا عن فضيحة تلقِّي وعود كاذبة من قطع بسكوت الحظ الصينية.

مقاطعة الصين لم تمنع الاحتفال بالكريسماس. السيارة المسروقة لم تمنع الاحتفال بالكريسماس. لا شيء يوقف الاحتفال بالكريسماس. في اليوم التالي لضياع السيارة اتصلنا بشركة التأمين، وقدَّمنا بعض الأوراق، وعدنا لمهمة تجاوُز العيد دون بضائع صينية.

اعتقدتُ أن كيفن ربما تخلى عن فكرة خياطة حقائب نوم للطفلين بعد أن قرَّر بناء مكتبَين خشبيَّين لهما ليضُمَّا كافة الأدوات المكتبية التي اشتراها من أوفيس ديبوت. ولكن في يوم ٢١ ديسمبر، بعد ساعاتٍ من وضع اللمسات الأخيرة على المكتبين، طلب مني تجهيز آلة الخياطة على طاولة المطبخ حتى يتمكن من الشروع في العمل.

قال وظهره لي بينما كان يتوجَّه إلى الباب: «سأعود على الفور.» وذهب مسرعًا إلى متجر أدوات الأعمال الحرفية بسيارتنا الفولكس فاجن الباقية.

زوَّدت آلة الخياطة بخيطٍ ألماني قديم. عاد كيفن بعد عشرين دقيقة مع كيس بلاستيكي. كان يوجد في داخله قطعتان كبيرتان من الصوف الكوري، كان مرسومًا على

إحداهما سكوبي دو وعلى الأخرى ويني الدبدوب. وقرَّر تجنُّب المخاطر التي يمكن أن تنتج عن محاولة خياطة السَّحَّاب والاعتماد بدلًا من ذلك على الشريط اللاصق (فيلكرو) الأمريكي الصُّنع الذي وجده في متجر أدوات الأعمال الحرفية.

كنت منبهرة؛ فمتجر أدوات الأعمال الحرفية هو مكاني المفضل، وليس مكان كيفن المفضل، وهو مكان شاسع يفيض بأشياء لا نهاية لها، وكلها تقريبًا مصنوعة في الصين، وليست مرتَّبة وفق أي ترتيبٍ معين، وفق ما أعرفه. لا أذكر ولو مرةً واحدة رؤية رجُل في قسم الأقمشة؛ حيث يمكن للبائعات السيدات أن يكنَّ فظاتٍ إذا لم تتحدث بوضوحٍ عن كمية القماش التي تحتاج أن يقطعْنها لك. يمكن أن يكون مكانًا مرعبًا، لا سيما إذا كنتَ لا تعرف كيفية الخياطة، وربما خصوصًا إذا كنتَ رجلًا لا يعرف كيفية الخياطة، بل ربما يكنَّ عُدوانيات إذا كنت لا تعرف كمية الصوف التي تحتاج إليها لصُنْع أكياس نوم؛ حيث إنك لا تحمل نموذجًا وترتجل.

سألت كيفن: «إذنْ كيف عرفت كمية الصوف التي ينبغي أن تطلبها؟»

نظر إليَّ كما لو كان سؤالًا سخيفًا.

ثم قال لي: «باعدت فحسب بين يَدَيَّ وقلت للسيدة: حوالي أربعة أضعاف هذا الحجم.» موضِّحًا بفتح ذراعيه.

عندما جلس كيفن أمام آلة الخياطة وجدت أنه من الصعب أخذه على محمل الجد. كان يرتدي قلنسوةً برتقالية قديمة كانت جدَّتُه صنعتْها له في أوائل ثمانينيات القرن العشرين. وقبل حتى أن يبدأ الخياطة سألني: «هل للقماش وجه مناسب للخياطة وآخر لا؟»

بعدما انتهيت من مداراة ضحكي بالسعال، ساعدتُه على تطبيق قطعة الصوف التي تتخذ شكل سكوبي دو إلى طبقتين وأوضحت له طريقة وضْع الدبابيس بفاصل بضع بوصات بين أحدها والآخر على طول الحواف. ثم قدَّمت له تمهيدًا عن كيفية استخدام آلة الخياطة.

بدأت بالقول: «إنها مثل السيارة. الضغط على الدواسة يحدد زيادة السرعة أو إبطاءها، وعليك أن ترفع قدمك عنها عند الرغبة في التوقُّف؛ لا يوجد بها فرامل.»

فقال: «فهمت.»

«احترس لأصابعك، وتأكدْ من نزع الدبابيس قَبل أن تخيط فوقها حتى لا تكسر الإبرة.»

«حسنًا.»

تركتُه مع آلة الخياطة وتوجهت إلى المنضدة، حيث تظاهرت بإجراء حسابات دفتر الشيكات حتى أتمكَّن من مراقبته.

قال لنفسه: «سوف أبدأ الخياطة أولًا، ثم أتولى أمر شريط الفيلكرو اللاصق لاحقًا.»

ضغط كيفن على شفته مركزًا وضغط بحذرٍ شديدٍ على الدوَّاسة وبدأ الخياطة ببطء. لم أكن أعرف أن الآلة يمكنها الخياطة بهذا البطء. تَقدَّم على طول الحافة الأولى على نحوٍ منتظم، وقلت في نفسي إنه يعمل بطريقةٍ جيدة، إذا وضعنا في الاعتبار أنني كنت أتوقَّع كارثةً فورية ومباشرة. ولكن كيفن ليس حِرفيًّا صبورًا؛ إذ لم يكن قد أكمل بعدُ الحافة الأولى الطويلة من كيس النوم عندما رفع قدمه وأوقف الإبرة، وتطلَّع إليَّ. لا يزال يرتدي القلنسوة البرتقالية، التي انزلقتْ بزاوية أنيقة.

ثم سألني: «هل هناك حيلة ذكية للقيام بهذا؟ أريد الانتهاء من هذا الكيس وقد قضيت بالفعل خمس عشرة دقيقة في ذلك.»

أنهى كيفن معظم دروز كيس النوم الأول، وعندما رفعه أمامه لينظر إليه لم يَسعْني إلا ملاحظة أنه يبدو أشبه بشطيرة بوريتو صوفية كبيرة أكثر منه كيسَ نومٍ تقليديًّا، ولكن ذلك لن يُمثِّل فرقًا بالنسبة إلى الأطفال أو أي شخصٍ آخر.

قال كيفن وهو يتفقَّد عمله: «أرى أن عملية الخياطة هذه تتطلب مهارة. سوف أُنهي ذلك لاحقًا.»

كنت أتوقَّع جدلًا صباح هذا اليوم، ربما نتيجة إفراطي قليلًا في السخرية أو أن كيفن أصبح شديد الحساسية حيال دروزه. كنت على استعدادٍ لخوض جدلٍ مُزعِج يتضمَّن كلماتٍ غاضبةً عن انعدام الدعم المتبادل. ولكن ما أثار دهشتي هو أن الصباح كان مرحًا.

ثم اتصلتُ والدتي، وبدأ الشجار؛ بدأ على الفور تقريبًا، بعد أن ذكر كيفن أنه يخيط أكياس نوم للأطفال، وسكت بعد ذلك. سمعت من الجانب الآخر للمطبخ شكوى صارخة مكتومة آتية من بعيدٍ من جانب والدتي. وشاهدتُ كيفن يُطبِق فكَّيه المربعين، وهي علامة مقلقة.

ثم قال: «لا يا لويس، لم تُقدِّمي لأسرتنا أكياس نوم. نعم، أنا متأكد.»

كان صوته ينمُّ عن الصبر ورباطة الجأش.

صَمتَ كيفن مرةً أخرى، وبدأتْ شفتاه في التشنُّج. وواصلتْ أمي حديثها. نظرتُ إلى كيفن ونطقتُ بهذه الكلمات: «ما الذي تتحدَّث عنه؟»

غطىَّ كيفن السماعة بيده وقال هامسًا:

«إنها تُصِرُّ على أنها أرسلت إلى الأسرة بأكملها أكياس نوم منذ سنوات، إضافةً إلى كيس النوم الذي أرسلتْه إلى ويس في عيد ميلاده. وتتهمني بأنني أخيط أكياسًا جديدة لأنها ترى أنني بالتأكيد أعتقد أن الأكياس التي أرسلتْها ليست جيدة بدرجةٍ كافية.»

ردَدْتُ على كيفن هامسة: «لم تُقدِّم لنا أكياس نوم قط؛ لا بد أنها نسيت.»

وضع الهاتف مرةً أخرى على أذنه، وظل صوته رابط الجأش، بل ربما كان — في رأيي — ورعًا تحت هذه الظروف.

قال في السماعة: «لا، لم تفعلي.»

وضع يديه على السماعة مرةً ثانية وقال لي اتهامها الأخير:

«تقول الآن إنني أتهمها بعدم إرسال أكياس نومٍ إلينا. وتضيف أنني أتهمها بإرسال أكياس نوم إلى إخوتك وليس لنا لإظهار أنها تُفضِّلهم علينا. وقد سألتْني للتوِّ عما إذا كنت أتهمها بأنها ظالمة.»

مدَّ ذراعه مبعدًا سماعة الهاتف عن أذنه بينما واصلتْ أمي تعنيفه. وقبل أن يعيد السماعة مرةً أخرى على أذنه، فعل كيفن شيئًا فعله الكثير من أزواج البنات — وربما معظمهم — في مرحلةٍ ما من حياتهم خلال حواراتهم مع حمواتهم، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى لكيفن على حد علمي؛ التي قلَّب فيها عينيه في ملل.

عندما تحدَّث مرةً أخرى، تغيَّر صوته. كان تشوبه نبرة صرامة. كانت أمي تُسمِعه هراءً، وإذا كان ثَمَّةَ شيء في العالم لا يهتم به كيفن، فهو الهراء. لم تَقُلْ أمي أبدًا لكيفن هراءً من قبل، ولن يبدأ في تقبُّل الهراء منها في هذه الفترة المتأخرة.

قال لها: «هل تقولين إنه من الخطأ أن أخيط أكياس نومٍ لأسرتي؟ هل هذا هو ما تحاولين إخباري به؟»

ثم أبعد سماعة الهاتف مرةً أخرى عن أذنه وفعل شيئًا آخر لم يفعله أبدًا خلال محادثةٍ مع أمي؛ قطَّب جبينه. لم تكن أمي تراه، ولكن شيئًا ما أخبرني أنها بدأت تُدرِك ما يفعله. أعاد سماعة الهاتف مرةً أخرى على أذنه؛ فاستطعت أن أعرف أن والدتي تتراجع.

قال كيفن: «نستطيع مناقشة ذلك في وقتٍ آخر.» كانت عبارته في ذلك الوقت مقتضَبة ومهذَّبة.

وجاء مزيد من الاعتذارات البعيدة من طرف والدتي.

ردَّ عليها كيفن: «لا عليكِ، ينبغي أن أذهب الآن» ثم نظر إليَّ وأضاف: «ها هي هنا.»

أشرت بيدي رافضةً باهتياجٍ وقلت له: «لا تعطِني الهاتف.»

فقال: «بل أعتقد أن الوقت ليس مناسبًا. سوف أجعلها تتصل بكِ لاحقًا.»

أنهى كيفن المكالمة الهاتفية مع والدتي ثم نظر إليَّ بازدراء، كما لو كنتُ أنا الملومة على ذكرياتها الزائفة عن أكياس نوم أعطتْنا إياها في الماضي. نزع كيفن القلنسوة البرتقالية ورماها على المنضدة. لم ترهقه الخياطة، ولكن أمي هي التي فعلت.

ثم قال: «تدركين أنها لم تكن لتعلم أي شيءٍ بشأن هذا الأمر لو أننا طلبنا أكياس النوم من المنشور التسويقي.»

قلت: «أعلم، ولكنها كانت ...»

تحشرجت الكلمات في حلقي، ولم ننطق بالكلمة الباقية: «صينية.»

قضى كيفن يومين منقطعًا عن خياطة أكياس النوم. ثم في صباح ٢٣ ديسمبر، عاد إلى الجلوس مرةً أخرى في المطبخ أمام ماكينة الخياطة.

في هذا الصباح نَفِدَ حظ المبتدئين الذي كان يتمتع به كيفن؛ فبعد عشر دقائق من البدء كسر الإبرة بسبب طبقةٍ سميكة من الصوف؛ فاستقل السيارة الفولكس فاجن وتوجَّه إلى متجر أدوات خياطة عَرَفَ مكانه من دليل الهاتف. وعندما عاد إلى المنزل مرةً أخرى أشار إلى أن السيدة العجوز الصغيرة الحجم التي تدير المتجر استاءت عندما سألها هل الإبر التي يحتاجها مصنوعة في الصين.

فردَّت بازدراء: «ألمانيا.»

وأشار إلى أنه أثار اهتمامها عندما أخبرها بما يعمل على صنعه وأيضًا عندما سألها عن مجموعة دروس في الخياطة.

وبعد ساعتين، انتهى من أكياس النوم.

إذا وصفت أكياس النوم بأنها جميلة فسيكون ذلك تضليلًا وكذبًا؛ فقد كانت تحتوي على عشرات الخيوط البيضاء غير المقصوصة المتشابكة في الشريط اللاصق، وكانت خطوط الدروز متعرجة تعرُّجًا شديدًا، وثَمَّةَ حافة غير مَخيطَة على جانب أحد أكياس النوم تشير مُحذِّرة بحروف سوداء على خلفية بيضاء: «لا تستخدم القماش في صنع ملابس نوم للأطفال.»

هز كيفن كتفيه بلامبالاةٍ حين رأى التحذير، الذي لم نَرَه قبل هذه اللحظة.
ثم قال: «أعتقد أنهم يتحدَّثون عن المنامات. وهي لم تقل شيئًا عن أكياس النوم.»

كنت مخطئةً حين قلت إننا شاهدنا الفأر الأخير في هذه السنة، فقد قابلنا الفأر الأخير الحقيقي — الذي كان مشابهًا للآخرين تمامًا — في ظهيرة اليوم السابق للكريسماس. كان من الصعب عدم رؤيته. جرى الفأر على ألواح أرضية حجرة المعيشة في منتصف اليوم ونحن جالسون على الأريكة نشاهد التليفزيون.

قاد كيفن السيارة في ظهيرة هذا اليوم إلى متجر الحيوانات الأليفة مصطحبًا الأطفال وسأل البائع إن كانوا يبيعون مصائد فئران أم لا.

ردَّ الشاب المنزعج: «هذا «متجر حيوانات أليفة» يا سيدي.» كان يعني أن متاجر الحيوانات الأليفة تعمل على المساعدة في بقاء الحيوانات — بما فيها الفئران — على «قيد الحياة».

توجَّه كيفن إلى متجر الأدوات المنزلية واشترى مصيدة فئران أمريكية تقليدية.

في هذه الليلة وضعنا كعكًا لسانتا وسمحنا للطفلين بأن يفتح كلٌّ منهما هدية واحدة؛ فاختارا الصندوقين اللذين أرسلهما خالُهما من كاليفورنيا: كان صندوق ويس يحوي شاحنة حمراء عملاقة تعمل بوحدة تحكُّم عن بُعد، أما صندوق صوفي فكان يحتوي على دُمية ذات شعر أشقر طويل يخلو وجهها من التعبيرات.

لم أهدر أي وقتٍ إضافي. حملت مواد التغليف من الأرض لكي أستطيع فحص قاع صندوقَي اللعبتين. كان مكتوبًا على كلٍّ منهما «صنع في الصين». كان هذا تحديًا كبيرًا لمناورتي الخادعة. لقد ردَّ أخي لي الضربة، بقوةٍ شديدة.

بعد أن أوى الطفلان إلى فراشيهما، أنهينا لفَّ الهدايا أمام التليفزيون. لم نكن هذه المرة نشاهد قُدَّاس العيد من الفاتيكان، وإنما كنا نشاهد أداءً كوراليًّا لطيفًا لترنيمات تقليدية. أعدَّ كيفن مصيدة الفئران الأمريكية تحت الحوض قبل الذهاب للنوم مباشرة، وظل ويس مستلقيًا في يقظةٍ منتظرًا سماع أصوات الأجراس والحوافر على السقف. ونادى علينا عدة مرات طلبًا للماء وللاطمئنان على أن عربة سانتا الجليدية لن تُحطِّم السقف وتسحقه وهو يحلم. ووضع الشاحنة الضخمة على الأرض بجوار سريره لكي يستطيع مدَّ يده إليها خلال الليل للتأكد من أنها لا تزال موجودة.

وفي الدور السفلي، استلقينا على السرير وانتظرنا سماع صوتٍ آخر؛ صوت فرقعة المصيدة تحت الحوض.

نهض الطفلان من فراشَيهما ونزلا على السلم قبل بزوغ الخيط الأول من الفجر. انقضَّ ويس على كيس الكريسماس الشبكي الخاص به الذي كان مليئًا بالحلوى والأدوات المكتبية، مُمزِّقًا إياه. ثم أفرغ محتويات كيس صوفي على الأرض؛ فاستخرجتْ صوفي من الكومة كيسًا من حلوى الدببة المطاطية وقطعة حلوى على شكل مُلمِّع شفاه ووضعتْها على الأريكة. ثم توجَّه ويس نحو الشجرة.

تربَّيت على أيدي والدَين متحضرَين كانا يُصرَّان على فتح الهدايا بالتناوب في صباح الكريسماس، ولكني في هذا الصباح نحَّيتُ هذا التقليد جانبًا. لقد أنفقنا الكثير من المال على الكثير من الهدايا للطفلين؛ لذا بدا من المناسب أن أترك هذا الصباح يتحوَّل إلى معركة تمزيق أغلفة الهدايا دون محاولة فرض السيطرة.

راح ويس يُمزِّق أغلفة الصناديق الواحد تلو الآخر بفرحةٍ عارمة.

صاح قائلًا: «سيوف!» وذلك عندما فتح صندوق السيوف المصنوعة من الفوم التي أحضرها سانتا.

وبعد بضع دقائق كان يُطارد الكلب حاملًا منشارًا لعبة أحضرتْه والدتي. ألقيت نظرة على الصندوق، فوجدت أنه صينيٌّ بالطبع.

ارتمتْ صوفي على الأريكة مُخدَّرة من الإفراط في تناول حلوى الدببة المطاطية ووضع حوالي ٢٠ طبقة من حلوى مُلمِّع الشفاه على شفتيها. كانت ستسعد بهذين الشيئين فحسب كهديتين تحت الشجرة. ولم يكن لديها أي رغبة في فتح صناديق الهدايا؛ لذا انتهى الأمر بي بفتح معظم هداياها من أجلها. رمقتْني بنظرة عدم فهمٍ عندما رفعتُ أمامها الدُّمى الألمانية وملحقات منزل الدمية المصغرة، ولكنها ابتسمت عندما أريتُها ما أرسلتْه جدتها: دمية هانا ويجنز صينية. أما عربة الدمية الوردية المكشكشة القماش التي أرسلتْها لها أخت زوجي — وهي صينية الصنع أيضًا — فقد جعلتْها تنهض عن الأريكة لأول مرةٍ منذ ساعة.

انتهيت إلى أنه لا بأس في الحصول على أدوات مكتبية كهدية في الكريسماس. كان الشيء الكبير المصنوع في كندا كرسيًّا لمكتبي، والذي لم يكن رومانسيًّا ولكني كنت أحتاج إليه بشِدةٍ لأن كرسي الحديقة الخشبي الذي أستخدمه منذ سنواتٍ أصبح يُسبِّب ألمًا مبرحًا لظهري. واتضح أن الشيء الذي أحضره كيفن من أوفيس ديبوت والذي لا يوجد عليه ملصق يُبيِّن بلد المنشأ كان تقويمًا للمكتب. وهو أيضًا ليس هدية رومانسية، ولكنه عملي؛ حيث إنني في أغلب الأوقات لا أعرف في أي يومٍ من الأسبوع نكون، أو ما المفترض بي أن أفعله في هذا اليوم.

طار كيفن فرحًا بسرواله الكمبودي، وقال بابتهاج:

«هذا سروال جيد مثل سراويل عُمَّال النظافة.»

بحلول التاسعة صباحًا، كان الأمر قد انتهى. كانت غرفة المعيشة مليئةً ببواقي أوراق التغليف والصناديق الممزَّقة. ومرَّ الصباح وسط أجواء مكالمات العيد الهاتفية العاطفية. لم يأكل أيٌّ منا أي شيء سوى الحلوى.

لم أحظَ بفرصةٍ لجرد هدايا الكريسماس إلا في منتصف الظهيرة، عندما سقطتْ صوفي نائمةً في الطابق العلوي. على غرار العام الماضي، انتقيت أوراقًا من الأكوام لفحص الصناديق والبطاقات التجارية الملصقة ودوَّنت قائمة في مفكرتي بينما أقوم بعملية الفحص هذه. استغرق الأمر بضع دقائق، وكان عليَّ أن أتخذ بضعة قرارات، منها تحديد هل المعطف المصنوع في ماكاو الذي أرسلتْه لي أمي يُعد بضاعة صينية أم لا (وانتهيت إلى أنه صيني)، أو هل ينبغي أن أضع في القائمة أشياء صغيرة مثل مبراة الأقلام الرصاص وأوراق الملاحظات اللاصقة في الجرد النهائي (ولم أفعل).

جلست لتحليل نتائجي. جاءت نتيجة العد هذه السنة ١١ للصين مقابل ٤٢ لبقية العالم. كانت كل الأشياء «الصينية الصنع» هديةً من عائلتي، وكانت النسبة الأكبر البالغة ٦٠ بالمائة من والدتي وحدها. لم يفاجئني ذلك؛ فهي لم ترَ الهدف من المقاطعة قط، أو ربما أرادت أن تُوصل لي رسالة أخرى؛ وهي أنني لا يمكنني أن أُمليَ عليها ما تشتريه لحفيدَيها؛ كما لو كنت سأفعل ذلك. أو فعلتُه.

نهضتُ عن الأريكة وذهبتُ للبحث في مكتبي حتى وجدت قائمة العام الماضي. كانت نتيجة الجرد حينها هي ٢٥ منتجًا صينيًّا في مقابل ١٤ منتجًا من بقية أنحاء العالم.

لست متأكدةً مما ينبغي أن أفعله بهذه الأرقام. من الواضح أن حصيلتنا في هذا الكريسماس أقل في المنتجات الصينية بكثيرٍ عن العام الماضي، ولكن من الصعب رؤية العيد تكليلًا لجهود سنةٍ من العيش دون الصين بينما يلعب ويس بسيارته الوحشية في أنحاء غرفة المعيشة ويصدمها بأرجُل قطع الأثاث. كان من الألطف أن نُنهيَ العام نهايةً أنيقة بعدم وجود أي شيءٍ من الصين تحت شجرة الكريسماس، ولكن كما هو معتاد، هُزمتُ بسبب إعفاء الهدايا من قواعد المقاطعة. كان إبعاد الأشياء الصينية عن المنزل سيكون أسهل لولا أقاربي أو أصدقائي أو أطفالي أو حتى الحلقة الأضعف، رغم أنه وافق على المقاطعة بلطف. مرةً أخرى، ربما كنت أمتدح نفسي فحسب، ولم يكن إلقاء اللوم على العائلة متوافقًا مع روح العيد. وعلى أي حال، عليك التعامل مع الأمر الواقع.

على الجانب الآخر من الغرفة، جلس ويس وكيفن متربِّعَين على الأرض وسط دائرةٍ رسمها ضوء الشمس، وراحا يفحصان بعض صناديق الهدايا الفارغة على نحوٍ خيالي. كانا يتحدثان بصوتٍ خفيض؛ لذلك كنت مضطرةً للتركيز بشِدة لسماعهما.

قال كيفن حاملًا صندوق لعبة القرود الساقطة: «هذه اللعبة من رومانيا.»

بدا ويس مستغرقًا في التفكير، ثم قال:

«بالتأكيد يوجد الكثير من البلدان التي لم أزُرها.»

أمسك كيفن صندوق لعبة المنشار الذي أرسلتْه أمي وأضاف قائلًا:

«هذه اللعبة من الصين. جدتك تحب الأشياء الصينية، خاصةً لعبة المنشار.»

ضغط ويس شفتيه ثم قال: «لم أذهب من قبلُ إلى الصين، ولكني لا أريد الذهاب إليها.»

«لماذا لا تريد ذلك؟»

أجاب ويس: «لا يوجد ما يكفي من الطعام. قد أجوع هناك.»

ثم توقف لإعادة التفكير في الأمر وقال:

«ولكن لديهم الكثير من اللعب مثل شاحنتي الضخمة؛ لذا ربما نستطيع الذهاب إلى هناك وأخذ شطائر معنا.»

لم يذكر ويس أن السيوف المضيئة تأتي من الصين، أو حقيقة أن سانتا لم يحضر له واحدًا.

بعد يومين من الكريسماس، بينما كنا نستقل الطائرة إلى سان دييجو لاحتلال منزل والدي بحجة زيارة العيد، لاحظت أن شيئًا ما يحدث للحلقة الأضعف. كان كيفن يُحدق من نافذة الطائرة إلى غرب تكساس البعيدة تحتنا ثم التفتَ إليَّ وقال: «علينا التفكير في الإبقاء على المقاطعة.»

فكرت في نفسي: «ماذا؟»

وقلت: «ماذا؟»

فتململ في مقعده واعتصر عينيه على نحوٍ ذي مغزًى.

«الأمر أنها جعلتْنا وحسب أكثر، كما تعلمين ... لا أعلم.» ثم لوَّح بيديه في الهواء أمامه وأضاف: «أكثر عمقًا في التفكير.»

«أكثر عمقًا في التفكير؟»

قال: «في كيفية إنفاق الأموال.»

أشحت بوجهي بعيدًا عنه وتأملت ظهر الكرسي الموجود أمامي. هذه مفاجأة. أصبح كيفن خائفًا من العودة للطريقة التي اعتادت الأمور أن تسير وفقها. سيُحب جيم إيه — كاتب الخطابات المناهضة للصين إلى المحرِّر القاسي القلب — هذا الأمر.

نظرت إلى كيفن مرةً أخرى وقلت:

«كنتُ أعتقد أنك لا تطيق انتظار انتهاء هذه المقاطعة لكي تستطيع الذهاب إلى متجر هوم ديبوت لشراء بعض الخطاطيف المعدنية لتُعلق عليها أدواتك، ثم تشتري بعض الأدوات الصينية.»

فهز كتفيه في لامبالاة.

فاستطردتُ قائلة: «كنتُ مضطرة لمراقبتك مثل الصقر طوال الوقت لأنني كنت أعلم أنك ستميل بشِدة إلى خداعي. كنت أعتقد أنك تكره المقاطعة.»

«كنت أكرهها نوعًا ما.»

قطبت جبيني وقلت:

«ومع ذلك تريد الإبقاء عليها؟»

فهزَّ كتفيه في لامبالاة مرةً أخرى.

فسألتُه: «ماذا عن وعدنا بأن الطفلين يستطيعان اختيار أي ثلاث ألعاب يريدانها في رأس السنة، لما يتمتعان به من روحٍ طيبة؟ لا يمكننا التراجع عن ذلك.»

فقال: «أتعنين اختيار اللعب الصينية؟ هذه مناسبة خاصة لا تتعلق بما يحدث بعد ذلك.»

وفرك عينيه ثم أرسى يديه في حِجره، واستطرد قائلًا:

«حسنًا، دعينا لا نتخذ قرارًا الآن. أخبريني وحسب أنك ستفكرين في الأمر.»

كنت أفكر في الأمر بالفعل. كنت أفكر فيه بين حين وآخر طوال الأيام الأربعة التالية، وظَلَلْتُ أفكر فيه في الساعة الثامنة عشية رأس العام الجديد وأنا جالسة بجوار كيفن على الأريكة في حجرة المعيشة، ولكن هذه المرة في حجرة المعيشة في منزل والدي.

كان السبب في استمرار تفكيري في الأمر هو أنني لا أستطيع اتخاذ قرارٍ بشأن ما ينبغي فعله بعد ذلك. كان تغيُّر رأي كيفن تطوُّرًا مفاجئًا. كنت أعتقد أنه يرى العام الماضي على الأغلب كتمرينٍ على الحمق وعرض واقعي لمدى ما يمكن أن يفعله ليسخر مني. عندما سمَّيته الحلقة الأضعف، لم أكن أمزح، ولكن اتضح أنه أفضل قدرةً على المقاطعة، وذو أخلاق رياضية أفضل مما كنتُ أتوقَّع.

لم أقصد أن أنبذ قرار كيفن، لكنني لم أتوقَّع أن يتخذ قرارًا كهذا. كنت أعتقد أن تجنُّب شراء المنتجات الصينية هو كل ما يمكن أن آمل أن يفعله. لم أتوقع قط أن تصبح المقاطعة مهمة بالنسبة إليه بمرور الوقت. كنت أشعر أنني أنهكته حتى آخر رمق عاطفي فيه، ولم يتبقَّ شيء لديه لأتجرأ وأطلب مزيدًا من مقاطعة الصين. لم أُوَفِّه حقه. لقد غفلت عن شيءٍ إزاء عامنا الماضي أعتقد أنك يمكن أن تصفه بالرومانسية؛ فمن أجلي، ومن أجل الحب، دعم كيفن فكرتي وتخلى عن الصين لمدة ١٢ شهرًا طويلًا.

ولكن هل مقاطعة الصين طوال الحياة هي ما أريده حقًّا؟ لست متأكدةً على الإطلاق من ذلك؛ فمن ناحية، كان من المُرْضي أن أعرف أن الصين لم تهيمن حقًّا على كوكب الأرض أو على حياتنا، ليس على نحوٍ تامٍّ على الأقل، على الرغم من أن هذا ما كان يبدو عليه الأمر في بعض الأحيان، ولا سيما في ممرات الألعاب والأجهزة الإلكترونية وفي متاجر الأحذية. بالطبع لم نَعُد بعيدين عن الخطر بعدُ؛ فلديَّ إحساس أن الصين ما زالت في بدايات بسط هيمنتها على العالم.

ومن ناحيةٍ أخرى، لدينا خلاط معطل ودرج مطبخ عالق، وتليفزيون تبهت صورته بسرعة، وجميعها مشكلات تتطلب حلولًا صينية. وما زلنا نغلي الماء في الصباح لتحضير القهوة لأننا ليس لدينا آلة لإعداد القهوة، وإذا لم نتخلَّ عن المقاطعة، فربما لن نحصل عليها أبدًا. كثير من الأشياء الصغيرة في الحياة يأتي من الصين: شموع أعياد الميلاد، والمسدسات المائية، والسيوف المضيئة. وهذه أشياء صغيرة تافهة لا يمكن على نحوٍ مناسب وصفها بأنها مهمة، ولكنني لست متأكدةً من أنني أودُّ عيش حياتي بأكملها من دونها. ثَمَّةَ موضوع مكافحة الحشرات الضارة أيضًا؛ فقد سحقنا فأرنا الأخير لهذا العام في ٢٦ ديسمبر. إنني مستعدة للعودة إلى طريقة الاصطياد والإطلاق من أجل القضاء على الفئران، ومن أجل ذلك نحتاج إلى مصيدة فئران رحيمة، وهذه المصائد تُصنَّع في الصين.

إضافةً إلى ذلك، فكرة تجنُّب المنتجات الصينية للأبد تبدو كأن الشخص يُكِنُّ ضغينة أبدية ضد ١٫٣ مليار شخص. لست متأكدةً من امتلاكي طاقةً تكفي ذلك.

أيضًا، دعنا نواجه الحقيقة: لقد اجتزنا هذا العام بالحظ على الأغلب. هل كانت لديَّ الشجاعة للعيش دون تليفزيون صيني جديد لو أن تليفزيوننا تعطل مبكرًا؟ هذا غير محتمل. وقد كانت المنتجات الصينية تشقُّ طريقها إلى منزلنا بانتظامٍ على الرغم من المقاطعة، وليس من خلال إعفاء الهدايا وحسب، ولكن أيضًا من خلال الْتِفافنا حول القواعد وكسرها. احتال كيفن فيما يخص فُرَش تلوين صينية وأشياء أخرى، ولكنني

أتحمَّل اللوم على مُبرِّد بلاستيكي صيني واليوسفي الصيني ويقطينة ويس الكهربية، فضلًا عن مشترياتي من هونج كونج وماكاو.

مما لا شك فيه أن مزيدًا من الأشياء الصينية قد انسلت إلى منزلنا دون أن نعرف بشأنها، مثل الأزرار أو الأكياس البلاستيكية أو المكونات الموجودة في الأشياء التي تشير بطاقاتها التجارية إلى أنها مصنوعة في مكانٍ آخر. وربما يكون كيفن قد هرَّب بضعة أشياء لم أعلم بشأنها، وإن كنت أشك في ذلك؛ فالشعور بالذنب سيقتله.

مع ذلك، أشار كيفن إلى نقطةٍ مهمة؛ لقد جعلتْنا المقاطعة نتوقَّف ونفكر قبل أن نُلقيَ شيئًا آخر في عربة التسوُّق، أو على الأقل جعلتْنا نفعل ذلك حتى أصابني الذعر في الأسابيع التي سبقت الكريسماس. لقد جعلت تفكيرنا أعمق، وهذا لا يمكن أن يكون شيئًا سيئًا. ولا شك في أن المنزل كان أكثر نظافةً لأننا توقَّفنا عن مَلئِه بالأشياء الصغيرة التي لا نحتاجها ولكننا لم نستطع مقاومتها حتى جعلتْنا المقاطعة نقاومها.

قال كيفن بينما كنا ننتظر مع والدي أن تدقَّ الساعة معلنة منتصف الليل في تايمز سكوير: «من المحبط أن ننسى الأمر برُمَّته. يبدو من الحماقة أن نقضيَ عامًا في فعل شيءٍ ثم نستسلم كما لو أننا لم نَعِشْ هذا العام.»

ثم رمقني بنظرة استهجانٍ وسأل:

«هل تريدين حقًّا أن نعود ببساطةٍ إلى طريقة عيشنا القديمة؟ ألا يجعل هذا من هذه السنة وقتًا مُهدرًا؟»

رأيت أن الإجابة نعم، ثم لا. ليس لديَّ أي فكرة، ولكن ثَمَّةَ شيء واحد مؤكد؛ سوف أتوقَّف عن وصف كيفن بالحلقة الأضعف، حتى لو في عقلي فقط.

استيقظ ويس ممتلئًا بالحماس في الساعات الأولى لبزوغ الفجر. كنا نحن الأربعة محشورين جميعًا في حجرة النوم التي كانت لي عندما كنت طفلة. كان الظلام دامسًا في الخارج، ولكن ويس كان يعلم ما سيأتي مع أول ضوءٍ لليوم الأول من العام الجديد.

صاح ويس وسط الظلام: «إنني سعيد لأنني سأكون قادرًا في الغد على الشراء من كينج كونج.»

أشار له كيفن بالسكوت خشية أن يوقظ والدي.

كينج كونج؟

همست لكيفن متسائلة: «ماذا يعرف عن كينج كونج؟»

فهمس مجيبًا: «إنه يعني هونج كونج.»

كان آخر ما فكرت به قبل أن أغطَّ في النوم هو التساؤل عن كيفية معرفة ويس أن هونج كونج كانت جزءًا من الصين في حين أنني أنا نفسي لم أعرف ذلك إلا مؤخرًا.

خاتمة

دارت عملية اختيار الأطفال للألعاب الصينية في فترة ما بعد الظهيرة الممطرة في أول يومٍ من العام الجديد في جناح الأطفال في متجرٍ كبير للكتب بالقرب من منزل والدي.

قضينا ساعةً فوضوية في مطاردة الطفلين عبر الممرات قبل أن نتوجَّه إلى المنزل حاملين دُميتَي حيوانين وكومة من الكتب. اختارت صوفي أرنبًا أبيض، وتعلق ويس بدُمية على شكل حيوان إما أنه قط له جسد كلب أو كلب له رأس قط.

سألته: «أهذا كلب؟»

فردَّ عليَّ مصححًا: «بل قِط.»

رسميًّا، ليس من المفترض أن أعرف هل اللُّعَب الصينية المختارة تتضمَّن حقًّا منتجات صينية أم لا؛ حيث إنني أخبرت الطفلين أن رحلتنا هذه إلى المتجر مناسَبة خاصة، وأنني لن أفحص البطاقات التجارية الملصقة لأي شيء. على المستوى غير الرسمي، لم أستطع أن أمنع نفسي؛ ففي هذا المساء، عندما كنت بمفردي في غرفة نومي القديمة، قلبت قط ويس أو ربما كلبه وألقيت نظرة على الجهة السفلية.

كان مكتوبًا على الملصق: «صنع في الصين».

حينها دخل ويس الحجرة؛ فأمسكني متلبِّسة، إذ كان القط أو الكلب مقلوبًا وكانت بطاقته التجارية الملصقة بين أصابعي.

فقال: «إنك تلقين نظرة يا أمي.»

فقرَّرت أنه ربما ينبغي أن يعرف الحقيقة، فأخبرته:

«إنه من الصين.»

فجذب القط/الكلب من يدي وقذفه إلى الناحية الأخرى من الغرفة؛ فوقع مرتطمًا بصوتٍ عالٍ خلف السرير.

فحدَّق فيَّ وقال: «هششش! لا أريده أن يعرف ذلك.»

اتضح أن أرنب صوفي صيني أيضًا، وكذلك أحد كتبها. بعد أن أَوى الطفلان إلى الفراش جلست حاملةً الكتاب الصيني في يدي وتفحصت الكلمات المكتوبة في طيته: «صنع في الصين». توقَّعت أن تنتابني مشاعر قوية — إما بالندم وإما بالراحة — ولكن الشيء الوحيد الذي انتابني هو مدى غرابة الشعور بحمل شيءٍ صنع في الصين اشتريناه بأنفسنا.

نظر كيفن بحزنٍ من فوق كتفي إلى الكلمات المكتوبة على الطية، ثم قال:

«هذا محبط قليلًا، ألا تعتقدين ذلك؟»

انتهت المقاطعة رسميًّا، وكانت عملية اختيار اللُّعَب الصينية مناسَبة واحدة من نوعها. لا يفصلنا عن اليوم الثاني من شهر يناير سوى بضع ساعات ولم نُحدِّد بعدُ أين ستكون الصين في مخططنا في العام الجديد.

كنا لا نزال في إجازتنا في كاليفورنيا عندما اتصل بنا نائب المأمور ليخبرنا أنهم استعادوا سيارتنا التويوتا، على ما يبدو في مركز التسوُّق نفسه الذي اختفت فيه. كانت أبوابها مغلقة ونظيفة وفي حالة جيدة، حسبما قال. أجرى كيفن ترتيباتٍ لقَطْرِها إلى ورشة إصلاحٍ لفحص ما وقع بها من أضرار.

هذه أخبار جيدة، ولكنها طرحت سؤالًا واحدًا دون إجابة: لماذا لم يستطع كيفن إيجاد السيارة في ليلة ١٩ ديسمبر؟

لا بد أنه كان يعرف ما أفكر فيه؛ لأنه عندما أنهينا المكالمة التفتَ إليَّ وقال لي، دفاعًا عن نفسه: ««لم تكن هناك.» لم يكن موقف السيارات كبيرًا لهذه الدرجة. لا بد أن شخصًا ما سرقها ثم أعادها مرةً أخرى.»

أخبرته أنني أصدقه. واحتفظت لنفسي بحقيقة أنه لا يبدو أن أحدًا آخر يُصدِّقه بما في ذلك الضابط الذي اتصل ناقلًا الخبر، وأمي أيضًا، التي راحت تراقبنا باستمتاعٍ من الناحية الأخرى في المطبخ.

تلقينا مكالمة هاتفية غريبة أخرى في منزل والديَّ، هذه المرة كانت من مراسل صحفي صيني. كان المراسل الصيني يرغب في إجراء مقابلةٍ معي من أجل مقالةٍ عن السنة التي قضتْها أسرتنا دون منتجاتٍ صينية.

لم تكن مكالمة المراسل الصيني الهاتفية مفاجِئة على نحوٍ تام، ولكنها أصابتني بالتوتر؛ ففي أواخر ديسمبر، نشرت صحيفة كريسشان ساينس مونيتور مقالة كتبتها عن مقاطعتنا للمنتجات الصينية. ونقلت الصحف في إسرائيل وكندا ودبي وأماكن أخرى هذه المقالة. وأرسلت سي بي إس نيوز فريق تصوير إلى منزلنا في اليوم التالي للكريسماس. وأجرت محطة ناشونال بابليك راديو مقابلة معي.

تساءلتُ هل الفكاهة في مقالي ضاعت في الترجمة أم لا وما إذا كنتُ سأحظى بلقب عدوة الشعب. اتصلتُ بالمراسل الصيني على أي حال، بدافعٍ من الفضول أكثر من أي شيءٍ آخر. أجرى معي مقابلةً سريعة وفي اليوم التالي أرسل إليَّ مقالته بالبريد الإلكتروني باللغة الصينية؛ فأرسلتها إلى أخي الأصغر من أجل ترجمتها.

أضفى المراسل بعض الإثارة إلى الفكرة العامة للمقال وغيَّر في قليل من الحقائق.

ترجم لي أخي عبر الهاتف قائلًا: «لم يكن لدى الطفلين أي لُعَب ... واختفت الضحكات والابتسامات من على وجهيهما.»

فقلت في نفسي إن هذا ليس صحيحًا، وليس ما كتبته أيضًا.

ربما كان ينبغي أن أتعلم الدرس حينها، ولكني وافقت على إجراء مقابلةٍ مع الصحافة الصينية بعد أسبوعٍ أو نحو ذلك عندما عدنا من كاليفورنيا ووصلتْني مكالمة من طاقم تليفزيوني صيني. قضى الطاقم ثلاث ساعات في منزلنا ووقع ويس في حب المصوِّرة، التي قضت وقتًا طويلًا للغاية في تصوير ويس بينما يرمي الكرة للكلب وكان ويس يبتسم في جنون. وقبل أن يرحلوا، أهدَوْنا مزهرية جميلة من الخزف الصيني.

قالت لي جارتي الخبيرة بشئون الناس والحياة لاحقًا: «ابحثي فيها عن ميكروفون خفي. تذكَّري مَن تتعاملين معهم.»

تجاهلتُ مخاوفها. أعتقد أنني يجب أن أتذكَّر أنني ألعب بالنار، على الرغم من أنها لم تبدُ مثل النار في ذلك الوقت. كان طاقم التليفزيون رائعًا. كانت المراسِلة الرئيسية ذات جمالٍ مرهف وكانت تتمتع بحسٍّ دعابة رائع، وكانت لغتها الإنجليزية ممتازة. وقد أحببت حذاءها. وقد تشكلت بيننا علاقة صداقة على الفور. بدت تفاعلاتنا مع وسائل الإعلام الصينية طبيعية بنحو مدهش.

ثم جاءتني مكالمة هاتفية من مراسل تليفزيوني صيني عدواني قضي معظم الساعة التي استغرقتْها مكالمته معي في محاولة جعْلي أقول إن المقاطعة دمَّرت تقريبًا زواجي وسعادة أطفالي ونبذتْني من المجتمع. جاءت أسئلته كالآتي:

ألم يكن من الغريب عدم شراء سلع صينية بينما جميع أصدقائكِ يفعلون ذلك؟ نعم، لم يكن غريبًا.

هل كان أصدقاؤكِ يعتقدون أنكِ غريبة؟ لا، بل ظنُّوا أننا مرحون.

هل تشاجرتِ أنتِ وزوجكِ عن هذا طوال العام؟ لا، ليس شجارًا فعليًّا.

ألم يسبب هذا الكثير من المشكلات في زواجك؟ نعم، لم يسبب كثيرًا من المشكلات.

ألم يكن زوجكِ غاضبًا؟ نعم، لم يكن غاضبًا.

ألم يكن طفلاكِ حزينين لأنهما لم يكن لديهما أي لُعَب؟ نعم، لم يكونا حزينين؛ كما كان لديهما بعض الألعاب، ولكنها ليست لُعَبًا صينية ليس أكثر.

ألم تشعري بالحزن عندما كنتِ لا تستطيعين شراء كل الصيحات الجديدة؟ نعم، لم أشعر بالحزن.

هل ذهبتِ من قبل إلى الصين؟ لا، لم أذهب.

ماذا تعرفين عن الصين؟ لا أعرف عنها سوى ما قرأتُه في العديد من الصحف والمجلات التي تتوافر لي من خلال وسائل الإعلام لدينا.

ثم طلب التحدُّث إلى كيفن.

ألم تَخُضْ شجاراتٍ كثيرةً مع زوجتك بسبب هذا؟ نعم، لم نَخُضِ الكثير منها.

ألم تشعر بالحرج من ارتداء خفين غير متماثلين؟ ضحك كيفن، ثم قال على نحوٍ قاطع: «نعم، لم أشعر بالحرج.»

ألم تغضب من زوجتك لعدم السماح لك بشراء أشياء من الصين؟ نعم، لم أغضب منها.

وهكذا سار الأمر، سريعًا ومتتابعًا، وكأنه استجواب.

بعد هذا كنا قد اكتفينا. توقَّفتُ عن الرد على الاتصالات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني من الصحافة الصينية. ربما لم يكن هذا مهمًّا للغاية من وجهة نظرهم؛ فقد كان لديهم القصة التي يريدونها وفعلوا بها ما يريدون؛ فقد كان الجوهر المثير للاشمئزاز للمقالات في وسائل الإعلام الصينية هو أن الأمريكيين يعتمدون كثيرًا على السلع الاستهلاكية الصينية، حتى إن محاولة العيش من دونها تذهب بسعادتك أدراج الريح.

وما عليك إلا أن تنظر إلى الصعوبات التي واجهتْها عائلة بونجورني عندما حاولتْ ذلك. يبدو أن وسائل الإعلام الحكومية تلاعبت جيدًا بالقصة. وبعد أشهر، عندما كنت أتصفح بعض مواقع الإنترنت، وجدت مقالًا صحفيًّا باللغة الإسبانية ثقيل الظل تحت عنوان «المنتجات الصينية مفيدة للعالم» يسلط الضوء على اعتماد العالم على المنتجات الصينية، وكانت قصة أسرتنا واردة فيه على أنها حكاية تحذيرية.

ربما كان يجب أن أستمع إلى نصيحة جارتي. وربما كان ينبغي أن أتوقَّع هذا، ولكن في النهاية أصابني هذا بالذهول؛ فقد أصبحت عن غير عمدٍ أداة للدعاية للحكومة الصينية. الحكومة الصينية الشيوعية «الحمراء».

وردتْني مكالمة هاتفية بشأن سيارتنا التويوتا من نائب مأمور آخر. كان يضع الصيغة النهائية لإحصاءات الجرائم لشهر ديسمبر، ويريد مراجعة تفاصيل السرقة المزعومة لسيارتنا.

بدأ حديثه قائلًا: «حسنًا، عُثر على السيارة في المكان نفسه الذي أفيد أنها سُرقت منه، صحيح؟»

قلت له: «أعتقد ذلك.»

ثم خاض في الأحداث المتعلقة باختفاء السيارة.

«إذن، سُرقت من موقف السيارات حيث يوجد مطعم هوترز؟»

هوترز؟ ماذا يقصد بالتحدُّث عن هوترز؟ رددتُ عليه قائلة: لا ليس هوترز؛ فهذا المكان يبعد نحو أربع مربعات سكنية ناحية الغرب عن المطعم الصيني. زوجي لم يكن هناك، بل كان في المطعم الصيني في الناحية المقابلة من الجادة.

واستطردتُ قائلة: «لم تكن السيارة قط في ذلك المركز التجاري.»

لم يكن ينصت إليَّ.

وقال معارضًا: «ليس هذا ما هو مكتوب في التقرير.»

أشرت بلطفٍ أنه ربما يوجد خطأ في التقرير إذا ما كان يذكر المركز التجاري الذي يوجد فيه مطعم هوترز. وعند هذه النقطة، تغاضى عن الإشارة إلى هوترز وألمح إلى ما كان يعتقد حقًّا أنه حدث في تلك الليلة المعنية.

«ألا تعتقدين أن زوجكِ ربما قد أفرط في الشراب قليلًا ولم يستطع أن يجد السيارة؟»

فقلت: «إنه لم يشرب سوى الماء.»

كنت أستطيع قراءة فكرته التالية بوضوحٍ كما لو كان يتكلم بصوتٍ عالٍ: «نعم، أتصوَّر أن هذا هو ما أخبركِ به، مباشرةً بعد أن أخبركِ أنه لم يكن في مطعم هوترز.»

لم يُصدِّق الرجل قصتي، التي كانت قصة كيفن، والتي كانت قصة حقيقية وإن كانت تبدو سخيفة، وهو ما أعترف به. أستطيع أن أدرك سبب تشكك الضابط. وأنا أستمع إلى تفسيراتي، أدركت أنني أبدو عاجزة، كزوجة ساذجة في حالة إنكار. لم يكن صوتي مقنعًا؛ فقد بدوتُ غير متأكدة، حتى لنفسي. ولكن كيفن ليس من النوع الذي يرتاد حانة هوترز، وليس من النوع الذي يكذب على زوجته. بالطبع، لا يعرف الضابط ذلك، ولن يُصدِّقه حتى لو أخبرتُه به، وهو ما لن أفعله.

سألني بعد ذلك: «ولكن السيارة وُجدت بحالة جيدة؟»

نعم.

«وكانت الأبواب مغلقة ولا شيء منها مفقود؟»

صحيح.

«لا شيء مسروق ولا محطم؟»

صحيح.

سمعته يتنهَّد، ثم قال:

«هذا لا يبدو منطقيًّا على الإطلاق. لا تظهر السيارات المسروقة بهذه الحالة.»

وافقتُه على ذلك.

قلت له: «حسنًا، قال زوجي إنه خرج من المطعم ومشى إلى المكان الذي يُفترض أن تكون فيه السيارة، ولكنها لم تكن فيه. وقال إنه ما لم يكن قد فقد عقله، فإن هذا هو ما حدث.»

كنت أستطيع أن أعرف أن الرجل يعتقد أني مجنونة، وكيفن أيضًا.

قضينا فترة على هذه الحال حتى اكتفى الضابط. ثم أخبرني أنه لا بد أن يقرر بطريقةٍ أو بأخرى هل هناك جريمة قد وقعت أم لا حتى يتمكن من إنهاء تقريره.

«ألا تعتقدين أنه من الممكن أن زوجكِ ربما لم يتمكن من العثور على السيارة وحسب في تلك الليلة، وأنها كانت موجودة هناك طوال الوقت وأنه على نحوٍ ما نسي مكانها؟»

تردَّدت. هل أعتقد أن هذا ممكن؟ من الناحية الفنية، إنه ممكن تمامًا مثل أي شيء آخر.

فاعترفت: «هذا محتمل، نعم. لكنني فحسب لا أعتقد أنه مرجَّح.»

لم يكن يرغب في المجادلة عن الفرق بين المحتمَل والمرجَّح؛ فقد أسرع بإنهاء المكالمة بمجرد أن سمعني أعترف بأن ذلك ممكن.

كان لغز التويوتا الذي لا حل له محيرًا لسببين:

أولًا: ما زلت أعتقد أن السيارة سُرقت وأن كيفن لم ينسَ مكانها، على الرغم من أن هذا الاحتمال الأول بات الآن وجهة نظر الأقلية، حتى بين أصدقائنا وعائلتنا. كانت النظرية التي طرحتُها على مستمعيَّ المتشككين هي أنه ربما قاد شخص آخر — ملتزم بالقانون ولديه سيارة تويوتا زرقاء تشبه سيارتنا بالضبط ومفتاحها يناسب سيارتنا — السيارة عن غير قصدٍ لعدة أميال قليلة قبل أن يدرك خطأه ويعيدها إلى موقف السيارات بسرعة. ربما منعه الحرج من ترك ملاحظة بذلك. وربما كان قد شرب شيئًا آخر إلى جانب المياه في تلك الليلة.

ثانيًا: لست متأكدةً مما تعنيه استعادة السيارة بالنسبة إلى فضيحة بسكوت الحظ الصيني التي اعتقدت أني كشفت عنها الشهر الماضي. وهل يمكن أن يوم التاسع عشر لا يزال يوم حظ سعيد لكيفن؟

قرَّرنا أنه يمكننا نوعًا ما العيش مع البضائع الصينية.

إذنْ لا يبدو التخلي عن المنتجات الصينية للأبد أمرًا عمليًّا؛ لأنه قد يعني أننا لن نشتريَ مرة أخرى هاتفًا محمولًا، أو مسدس مياه، أو ربما حتى تليفزيونًا في أحد الأيام. لا نريد أن نتخلى عن تلك الأشياء إلى الأبد.

في الوقت نفسه، قدَّمت لنا المقاطعة انضباطًا كنا نفتقر إليه في سلوكياتنا الاستهلاكية. كانت تجرِبةً مُرْضِيَة؛ فقد جعلت رحلاتنا إلى مراكز التسوق والمتاجر ذات مغزًى بطريقةٍ غير متوقَّعة، بل ربما مرحةً في بعض الأحيان. ومن الناحية المالية، ربما كانت ذات تأثير معادل؛ لأننا أنفقنا أموالًا أكثر على بعض الأشياء — هدايا الكريسماس، والنظارات الشمسية — وأموالًا أقل على أشياء أخرى مثل الأحذية وحالات الشراء الاندفاعي؛ حيث إن هذه المشتريات في كثيرٍ من الأحيان تتضمَّن منتجاتٍ صينية. وأحببنا توزيع أموالنا بين العدد الكبير من المتنافسين تحت مظلة الاقتصاد العالمي عن طريق شراء بضائع مصنوعة في العديد من البلدان المختلفة، بما في ذلك بلدنا.

لذلك أوجدنا حلًّا وسطًا؛ قرَّرنا أن نبحث عن بدائل للمنتجات الصينية عندما يكون ذلك ممكنًا، ولكننا سنشتري المنتجات الصينية عندما يكون هذا هو الخيار العملي الوحيد، الذي غالبًا ما يكون هكذا. طبَّقنا مبدأنا التوجيهي الجديد على مسألةٍ صغيرة في منتصف يناير عندما كنت أشتري للأطفال فُرَش أسنانٍ جديدة؛ واحدة أمريكية وواحدة صينية. وعندما اشترى لي كيفن جهاز كمبيوتر جديدًا، اكتشفت أن الطراز الذي أريده يُصنع في الصين وأيرلندا أيضًا؛ فطلب إرسال جهاز أيرلندي، ولكنهم أرسلوا لنا واحدًا مصنوعًا في الصين على أي حال.

شعرت بطريقةٍ ما براحةٍ للعودة إلى شراء السلع الصينية؛ فرغم كل شيء، ثَمَّةَ دم صيني يسري في عروقي، وفي عروق ويس وصوفي، مختلطًا مع دم مجهولين سويديين وإيطاليين وألمان وأيرلنديين. لا أريد أن أنكر إرثي الصيني. إنه جزء نفخر به من جذور آل بونجورني الصغار الحاليين والمستقبليين. ومنع الصين من حياتنا إلى الأبد يبدو كإغلاق الباب في وجه سَلَفِي الصيني السيد تشانج، الذي أُحبُّه للغاية. بصراحة، تُمثِّل قصته أكثر الأجزاء حيويةً في تاريخ العائلة حتى الآن، وأغتنم أي فرصة يمكنني فيها التباهي به، للأصدقاء والغرباء على حدٍّ سواء. لا أريد التخليَ عن السيد تشانج، الذي قد يبدو التخلي عن البضائع الصينية إلى الأبد مشابهًا للتخلي عنه.

ثَمَّةَ عمل بسيط آخر غير منتهٍ؛ مجرد مسألة ثانوية. مضى ما يزيد قليلًا على العام منذ أن استبدلت بطارية ساعتي، وكنت أتساءل منذ ذلك الحين عن مكان صُنْع البطارية.

عدت إلى متجر المجوهرات ذات صباح هادئ لاستبدال بطارية جديدة بهذه البطارية. وأنا أنتظر، شاهدت امرأة مُسِنة تُجرِّب خواتم ماسية كبيرة وزوجها ينظر إليها بسرور. لم تستطع زوجة صاحب المتجر إخفاء خيبة أملها عندما أخبرتُها أن كل ما أحتاج إليه بطارية ساعة جديدة.

عندما عادت مرةً ثانية حاملةً ساعتي، سألتُها على نحوٍ عرضي هل من الممكن أن تخبرني بمكان صُنْع البطارية. ابتسمت وتجاهلت سؤالي. سألتُها ثانية، مرتين، بطريقتين مختلفتين، حتى عادت للتحقُّق من العلبة.

كانت لا تزال مبتسمةً عندما عادت وقالت: «الولايات المتحدة الأمريكية.»

إذن، هذا كل شيء. لم أعد مضطرةً لإضافة علامة خطأ أخرى إلى قائمتي العقلية لخطايا المقاطعة؛ إلا أنه طرأت على ذهني فكرة أنني لا ينبغي عليَّ أن أطمئن هكذا ما

لم تكن بطارية الساعة الجديدة تلك أتت من علبة بطاريات في الحجرة الخلفية في محل المجوهرات مختلفة عن علبة البطارية التي اشتريتها قبل عام. ربما كانت هذه العلبة صينية وأن هذه البطارية فقط هي الأمريكية. تفكرت لفترةٍ وجيزة في محاولة تحديد هذا مع زوجة صاحب متجر، ولكني كنت بالفعل قد عُدْتُ إلى السيارة التويوتا وخرجت من موقف انتظار السيارات عندما فكرت في ذلك. سوف يظل هذا الأمر لغزًا، مثل مصير السيارة التويوتا نفسها في ليلة ١٩ ديسمبر. بدت محاولة حل هذا اللغز مَضيَعةً للوقت.

يمكنك القول بالطبع إن العام الماضي كان مَضيَعةً للوقت، هذا ما فكرت فيه بينما أدخل بالسيارة وسط زحام السيارات في الشارع. ولكن مع ذلك، هذا الفكر الانهزامي لا يوصلني إلى أي شيء؛ لأن الهدف من المقاطعة لم يكن الفوز على الصين، أو الفوز على أي شيءٍ حقًّا، بل كان محاولة تحديد مكاننا في العالم، ومكان الصين في عالمنا. يتمثل ما اكتشفتُه في أنه يمكن للمرء أن يعيش دون منتجاتٍ صينية، لا سيما إذا لم يكن لديه شريك حياة وأطفال متمردون أو تعلُّق بالأحذية والأجهزة الإلكترونية الرخيصة. أما كوننا لم نستطع تحقيق هذا تمامًا فلا يعني أنه لا يمكن القيام به على الإطلاق.

أحيانًا أفتقد المقاطعة. أشعر أنني أستسلم عندما نشتري شيئًا عليه ملصق «صنع في الصين». يبدو الأمر سهلًا للغاية، ولكن محاولة العيش دون الصين بدتْ أحيانًا على النقيض: صعبة للغاية، أو على الأقل، بدا التمسك بها إلى الأبد أمرًا صعبًا. وبينما أشعر بسعادةٍ للعودة إلى سَلَفِي المحترم السيد تشانج، أعترف أن مشاعري إزاء مكان الصين من حياتنا لا تزال مشوشة. أحب أن يكون كل شيءٍ جميلًا ومرتبًا، ولكن مشاعري إزاء مكان الصين في العالم، ومكانها في منزلنا، معقدة.

عندما أرى عبارة «صنع في الصين»، جزءٌ مني يقول: «هذا جيد للصين.» في حين أن جزءًا آخر يشعر بحنين لشيءٍ فقدتُه، ولكني لست متأكدةً من ماهيته بالضبط؛ المقاطعة؟ الفترة السابقة للمقاطعة؟ ربما شيء آخر مختلِف تمامًا، مثل الطفولة الضائعة أو الفترة السابقة حتى لاختراع مصطلح «العولمة» — التي باتت تبدو لي وكأنها قبل مليون عامٍ مضت — عندما لم تكن فكرة مقاطعة الصين قد طرأت على ذهني من الأساس.

أخشى أنني نقلت حيرتي لكيفن أيضًا.

فقد أخبرني قائلًا: «أشعر بالذنب عندما أشتري أشياء صينية، وبعد ذلك أشعر وكأنني أتحامل على الصين عندما أتجنَّب الأشياء الصينية.»

ربما أفتقد المقاطعة من وقتٍ لآخر ولكني لا أعرف إذا ما كنت سأُجرِّبها مرةً أخرى أم لا. بطريقةٍ ما أُفضل ألا أعرف مدى ازدياد صعوبة الحياة دون البضائع الصينية بعد عَقْدٍ من الآن. وأيضًا لست متأكدةً من أنني أريد سماع جواب كيفن لو أنني طرحت مسألة مقاطعة الصين مرةً أخرى أمامه في فترةٍ قادمةٍ ما من حياتنا.

ومن يدري، فقد يوافق!

هنداوي